

W A C I N Y L A R E D J

رواية

الطبعة المصرية

واسيني



الطبعة
الثانية

مِي

ليالي ايزيس كوبا

ثلاثمائة ليلة وليلة في جحيم العصفورية

بردية للنشر والتوزيع

طبعة خاصة بدار احيال للنشر والتوزيع



الأعمال الكاملة

t.me/kotbhm

مَيَّ
لِيَالِي إيزيس كُويَا
ثلاثمائة ليلة وليلة في حميم المسفورة

واسيني الأعرج

فِي

لِيَالِي إيزيس كُويَا

ثلاثاء ليلة وليلة في جحيم المصفورية

بردية للنشر والتوزيع



جميع حقوق الطبع محفوظة

Facebook/darbardyah

bardiapubshling@gmail.com

(+2)01000089989

٤٦ ش أحمد زكي- المعادي- القاهرة
١٢ ش السلام- ميدان صلاح الدين- الأقصر

ولسني الأعرج
مى: ليالى ليزيس كوبيا
رواية

الطبعة المصرية الأولى ٢٠١٨
الطبعة الثانية ٢٠١٨

رقم الإيداع: ٢٠١٧/٢٧٣٩٨
978-977-773-050-1 :i.s.b.n

المدير العام: أدهم العيودي
فوتوغرافيا وتصميم غلاف: د. أحمد جمال عيد
إخراج قس: محمد محمود

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن كاتبها؛ ولا تعبر بالضرورة عن آراء وتوجهات
دار النشر).

طبعة خاصة





{أَتَمَنَّى أَنْ يَأْتِيَ بَعْدِي مَنْ يُنصِفُنِي}.

(مَيَّ زِيَادَة)

{أيكفي أن نحبَّ شيئاً ليصيرَ لنا؟ رغم حُبِّي اللافح،
أراني في وطني تلكَّ الغريبة الطريدة التي لا وطنَ لها}.

(مَيَّ زِيَادَة)

الهلال، تشرين الأول، ١٩٢٢

**Tu me dis, Dieu a pitié des affligés, Dieu
est bon etc... parlons-en à ton Dieu qui
laisse pourrir une innocente au fond d'un
asile¹.**

Camille Claudel 1934.

¹ تقول لي بأنَّ الله يعطف على المظلومين، وأنه طيب؛ إلخ... لنسأل إلهك الذي يترك البراءة تتعفن في ملجأ المجانين؟

غَنَمَةُ النَّاصِرَةِ

لا أعتقد أن مخطوطة شغلت بالي وبال الكثير من الباحثين؛ مثل مخطوطة "ليالي العصفورية"، لمي زيادة، الضائعة منذ أكثر من سبعين سنة. أجيال كثيرة تعاقبت، راکضة في كل الاتجاهات، بحثًا عنها، لكن دون جدوى، هل لأن المخطوطة ضاعت حقيقة؟ أم لأن قدرًا أعمى شاء غير ذلك، ورماها في بقعة مظلمة، ليجعل من العثور عليها؛ استحالة؟

سمعتُ الكثيرَ عنها بقسم المخطوطات العربية، في المكتبة الوطنية الفرنسية -فرانسوا ميتيران، BNF، التي أعمل بها منذ قرابة الثلاثين سنة، لكنني؛ لم أعرها الاهتمام الذي يليق بها، لانشغالي بالتركّض وراء مخطوطاتٍ أخرى كانت على مرمى يديّ، ربما لأنّ ما قرأته عن المخطوطة خلف لديّ أساسًا كبيرًا من العثور عليها، دون أن ينسيني ذلك في ميّ زيادة، التي ظلت قصة حياتها القاسية عالقة بذهني.

كلّ شيء بدأ بفكرة إنجاز شريط وثائقي عن ميّ إلياس زيادة قبل سنواتٍ قليلة، كنتُ أحضّر له برفقة الباحثة الكندية اللبّانية المعروفة؛ روز خليل، المتخصصة في الدراسات النسائية العربية، في مخبر "الأبحاث الأنثروبولوجية والأدبية" في مونتريال LRAL، والمتسبة لـ"مخبر الأبحاث التاريخية والفنية" في الجامعة الأمريكية ببيروت AUB. تعرّفت عليها منذ قرابة العشر سنواتٍ في ندوة دولية حول مصير المخطوطات العربية الضائعة، في جامعة مونتريال، الغريب هو أنّ الكثير من هذه المخطوطات لم تظهر إلا كعناوين، أو وردت في أحاديث مقتضبة لدى

بعض الدارسين والموسوعيين، وترجح روز احتمال حرقها من بين ما أحرق لأسباب دينية، أو سياسية، أو أسباب سرية تتعلق بالمحرم.

تحدثنا طويلاً لسنواتٍ متتالية عن الحالة المزرية التي تُوجد فيها الكثيرُ من المخطوطات العربية وعن كيفية إنقاذها، وجاء الحديث، في السياق نفسه، عن ميّ، التي ضاعت الكثيرُ من مخطوطاتها التي لم تظهر حتى اليوم، من بينها: "ليالي العصفورية"، "بيتي اللبناني"، و"مذكراتي". أي كل ما يتعلّق بحياتها الخاصة، وكان هذا الضياع وراؤه يدٌ مجرمة، لا نريدنا أن نسمع صوت ميّ الخفي والذاتي والحميمي.

فجأة؛ تحوّل الانشغال بميّ إلى قضيةٍ جوهرية وأساسية في حياتي، بالخصوص مخطوطتها "ليالي العصفورية"، لا بدّ أن يوجد سببٌ ما يتخفى وراء طمسها، إذا لم تكن قد مُزّقت أو أحرقت بيد ميّ نفسها، في حالة من حالات اكتئابها الحادة.

تفرّغتُ لميّ زيادة، على مدار سنةٍ بكاملها، استعدتُ كتاباتها كلّها، أعدت قراءتها بحثاً عمّا يمكن أن يسهّل لي مسالك البحث، ويدلّني على المخطوطة الضائعة "ليالي العصفورية"؛ الحلقة الأهم والناقصة، في أعمالها.

في الجوهر، كنت أريد معرفة دقائق فترة حجزها بمستشفى الأمراض العصبية والنفسية؛ العصفورية، بيروت، التي سجّلتُ فيها يومياتها الموحّجة، وأعطتها عنواناً موحياً بالألم والنسيان والظلم.

الفجيمة هي أنّ المخطوطة غير متوقّرة في أيّ مكان، على الرّغم من جهود الباحثين المختصّين.

طبيعيّ أن تكون العصفورية؛ هي المكان الأنسب لتصوير الشريط الوثائقي عن مي، ممّا سيعطي - كما افترضنا على الأقل - إحساسًا مميّزًا لدى المشاهد المحبّ لهذه الكاتبة التي أحرقتها طمع وجشع الآخرين.

بدأت العمل بحماس، معتمدًا على مساعدة روز خليل، المعنية هي أيضًا بقضية مي.

على الرّغم من ركضنا هنا وهناك، للسّماح لنا بالتصوير، إلا أنّنا لم نفلح أبدًا، السّياج كان أكبر من إرادتنا، لم تنفع الضّمانات التي قدّمناها لمستيري أملاك العصفورية، فقد رفضت إدارة سوليدير المالكة للعقار، رفضًا باتًا،

^٢ للعصفورية تاريخٌ مدون؛ العصفورية، أكثر من كلمة في ذاكرة اللبنانيين، فهي أول مصحّح للأمراض العقلية في لبنان، اليوم، باتت شركة سوليدير تدير العقار الممتد على مساحة ١٣٠ ألف مترًا مربعًا، فيما تدير شركات أخرى البيع والاستثمار، لتسويق «قرية بيروت» التي تُشيد على أنقاض «العصفورية».

فرغت «العصفورية» اليوم من البشر، أصبحت جنّة للطيور التي تجد، بين أشجار الصنوبر والمباني التاريخية، ملاذًا لها. مبانٍ تُذكر الزائر بالجامعة الأميركية في بيروت. فقد سُويت «العصفورية» على يد متابعين من الإرساليات الأميركية في نهاية ١٨٩٠، بعد إنشائها من السلطنة العثمانية. وهي تمتد على مساحة ١٣٠ ألف مترًا مربعًا من الأرض الخضراء، وتضم ٤٦ مبنى. وهكذا كانت، في مطلع القرن الماضي، أكبر مستشفى للأمراض العقلية في الشرق الأوسط. وبات أيّ مستشفى للأمراض العقلية يحمل اسم «العصفورية». وحسب حينما توقّف استعمال المصحّح، في سنة ١٩٧٢، بقيت مفردة «العصفورية» متداولة، وألصقت بمستشفى دير الصليب الذي يقوم اليوم بنفس الوظيفة. لكن، جهة استعمال العقار تغيّرت في سنة ١٩٧٢، حين امتلكت شركة «Geffinon» لإنشاء مدينة سكنية عليه. آنذاك، بدأت «مسجزة» المباني التاريخية التي أخليت من المرضى. عملية التفتيح امتدت خلال الحرب الأهلية، وكان كلّ من أراد البناء، في المنطقة، يجد في العصفورية ملاذ. لم يبق من «المدينة» إلا ثلاثة مبانٍ أكبرها، إدارة المستشفى، وفي

مشروعنا، لسبب غير واضح، سوى أنها؛ وهي تباشر استثمار مساحات العصفورية الأرضية والغايية، اصطدمت سوليدير برفض الكثير من المحافظين على ميراث بيروت ولبنان، ظلت الشركة مصممة على تغيير ذاكرة المكان، وتحويله إلى مساحات تجارية وفنادق، وربما نقل مركز مدينة بيروت إلى هناك، وتغيير الاسم، من بشاعة العصفورية، إلى أناقة قرية بيروت.

كانت الخيبة كبيرة.

الثاني والثالث كان المرضي يقيمون فيهما. المبنى الأساسي شيّد نهلية القرن للتاسع عشر، وبداية القرن العشرين، وقد بني بالحجر الأصفر، وغطّي سقفه بالقرميد. هذا المبنى في حاله جيدة، وتحيط به حديقة نمت أشجارها تزامنًا مع نمو المبنى. وعلى بعد أمتار، يستكين المبنى الثاني، المغطى بالقرميد أيضًا، يعود إلى خمسينيات القرن الماضي، وكان يُستعمل مستشفى. هذا المبنى بحالة جيدة، ويمكن المحافظة عليه. أما المبنى الثالث، فهنتمته مغايرة تمامًا. فيه بهو واسع، تحيط به غرف وأروقة متصلة بعضها ببعض، عبر قناطر من الخرسانة. سقف المبنى الثالث نمر منذ سنين، لكن الجدران صامدة، والقناطر لم تمقط بعد. عمليًا، تتطلب المحافظة على هذه المباني طلبًا قانونيًا، إذ أدرجتها المديرية العامة للأثار في الجرد العام للمواقع الأثرية، لكن مالكي العقار صعبوا القضية. في ٢٠٠٨، أبرم الملاك صفقة خاصة، باعت بموجبها شركة «الجقنيور» العقار إلى عبد الله تماري، (معروف بأنه الواجهة الرئيسية لأعمال شركة سوليدير)، بمبلغ ١٠٠ مليون دولارًا أميركيًا، أي بسعر يوازي ١٠٥٢ دولارًا للمتر المربع الواحد، أو ما يعادل ٥٠٠ دولارًا لمتر الهواء (متر البناء)، على أساس أن الحد الأقصى لعامل الاستثمار في هذه الأرض يسمح بتشييد ٢٠٠ ألف متر مربع، لكن المعلومات الأخيرة التي تداولها المتابعون، تفيد بأن الشركة "استحصلت من التنظيم المدني على إذن بإقامة أبراج يصل ارتفاعها إلى ٨٠ مترًا، وزادت بذلك عامل الاستثمار". طرح «قرية بيروت»، أخيرًا، على سوق الاستثمار، تحت إشراف البنك العربي (المعروف بنفوذ آل الحريري داخل إدارته)، و Med Securities Investment التي تتبع Bank Med الذي يملكه آل الحريري، إعلانًا تسويقيًا، يقول إن شركة سوليدير الدولية ستدبر المشروع. أما سبب اختيارها، في الإعلان المذكور، فلا يعود إلى كونها تملك العقار قانونيًا، بل إلى «حسن إدارتها إعمار وسط بيروت». سوليدير تعرف كيف تمسك بالمباني التاريخية لتسويق مشروعها، لكنها، في الوقت نفسه، لا تريد سوليدير لأحد أن يتذكر أن «قرية بيروت» كانت مصحة عقلية تأوي المنفك من المرضى.



فجأة غرقنا في سلسلة من الاحتمالات، والفرضيات، أهمتها؛ هي أن المخطوطة موجودة، وضائعة في مكان ما، علينا بالبحث عنها، كنا نعرف أن الكثير من مخطوطات مي تم العثور عليها في السنوات الأخيرة فقط، فتت طباعتها وإحاقها بأعمالها الأخرى، لم لا تكون ليالي العصفورية من هذه النصوص الضائعة؟

وبدأنا في خوض مغامرة البحث الكبيرة.

صممنا أن ننسى حكاية الفيلم الوثائقي، وفيتو سوليدير الأحق والأخرق، ونذخر كل جهودنا للبحث عن المخطوطة.

تمكنا - في البداية - من تحديد أمكنة أولية للزيارة، تحصلنا على وثائق كثيرة، حددت وجهتنا في عملية البحث. سبق أن حضرت مي، في العديد من المرات، في الجامعة الأمريكية في بيروت، ومنها أهم محاضرة ألقتها هناك، عندما استعادت الكثير من أصدقائها، واعترفت لها نهائياً، بالحق والعقل.

المسارات الأولى كانت ناجحة جداً، فقد وجدنا بعض آثار كتاب ليالي العصفورية، زرنا مستشفى نقولا رابيزه الذي قضت فيه مي فترة

^٢ عنوان المحاضرة: رسالة الأديب إلى الحياة العربية، ألقها مي زيادة، في الريمست هول بالجامعة الأمريكية، ببيروت، يوم الثلاثاء ٢٢ مارس ١٩٣٩، على الساعة الثامنة مساءً.

^٤ Nicola RABIZ.

بعد خروجها من المصحّة العقلية، كانت مُنهكة، لكنّها لم تتوقّف عن الكتابة في أية لحظة، كلّ الوثائق التي توصلنا إليها أكدت أنّ ميّ واصلت كتابة حرائقها حتّى بعد مغادرتها العصفورية، وتعرّفنا على بعض الشخصيات المهمّة التي ربطتها علاقات صداقة مع عائلة زيادة، عن طريق الأهل الذين زاروا ميّ في رابيز أو الفريكا، ممّا جعل الصورة تتضح أكثر. أهمّ وثيقة صغيرة، لكن شديدة الأهمية، والتي كانت دليلنا في تنقلاتنا الصعبة، كتاب: قصّتي مع ميّ. الذي خلفه وراءه صديقها أمين الريحاني، فقد كان أصدق من كتب عنها بحبّ وحيادية، لم يذكر مفاخره معها على الرّغم من حبّه لها، كما فعل الآخرون، لكنّه خصّصه لمحتتها، أكثر ممّا خصّصه لنفسه.

لا توجد امرأة عربية في التّاريخ الحديث، وحتّى القديم، نالت ما نالته، من عشاقها، على الرّغم من أنّها كانت دائماً بعيدة عنهم بأكثر من خطوة. هذا الكتاب الوثيقة كان منارةً بالنّسبة لنا، لأنّنا كلّما تقدّمنا في البحث، وجدنا دقّة أمين الريحاني فيها قام به بشكلٍ صادق وصریح. زرنا الفريكا، حيث البيت الذي اكتراه لها، حتّى يسهر على راحتها هو وعائلته، قبل زيارتنا ضيعة شحتول؛ أرض والدها إلياس زخور، التي يقطنها الكثير من أهل زيادة.

الغريب أنّنا كلّما توغلنا في أسئلنا لأقربائنا، لاحظنا فخرًا كبيرًا بابتهم ميّ، ممزوجةً بالرّيبة منها واللّوم المبطّن، فقد وضعوا لها تمثالاً نصفياً جيلاً



عند مدخل الضيعة، وفي مدرسة شحتول الرسمية التي رعاها المدير العام للتربية؛ الأستاذ جورج نعمه، نحتوا لها مجتمًا نصفيًا، أزاح الستار عنه في ١٩٨٦؛ الرئيس أمين جميل، في الذكرى المثوية لميلادها، لكن كلمًا سألنا أحدًا عن قصة العصفورية، التفّت صوب الفراغ وتمتمت: صعب أحكي عنها، فقد كانت حالتها الصحية والنفسية قاسية. الأمر طبعًا لا يتعلّق بحالتها الصحية التي يمكن أن تصيب أيّ شخصٍ، لكن قصة الاستيلاء على أملاكها وحجرها، من طرف العائلة، ووضعها تحت الوصاية بسبب جنونها، كما زعموا؟

عندما طرحْتُ الموضوع على روز، أول مرّة، قالت بلهجةٍ مصرية: أنت تضريني على اليد اللي بتوجعني، شكرًا أنك أشركتني. من حيث المبدأ، مستعدة للذهاب بعيدًا معك في المشروع، أحتاج فقط إلى بعض الوقت لترتيب شؤوني مع مؤسستي، وأرى إذا كانوا مستعدين لتحمل غياباتي المتكررة.

وبدأت الرحلة التي استمرت ثلاث سنوات بلا توقّف، وفي كلّ مرّة، حاجزٌ من اليأس.

- ياااه؟ من كان يقول؟

قالت روز خليل، وهي تصفّح مخطوطة: ليالي العصفورية.

- أستطيع اليوم أن أقول إننا انتصرنا على الغياب، وعلى جهنم البشر اليائسين أيضاً، انتصرنا على القتلة الذين حاولوا حرق مي زيادة من الذاكرة الجمعية، ليجعلوا منها مجنونة تسير وسط شوارع بيروت، متسخة، وأحياناً بلا لباس. حاولوا لجمها، كما يقولون، حتى لا تؤذي محيطها، لدرجة أن قال عنها ناقد بحجم سلامة موسى كلاماً كبيراً، كان تليفاً وانتقاماً، مع أنه كان في حياتها، من محبيها، بل من كوكبة عشاقها. جنونها المفترض جعل الكثير من أصدقائها أو من ظنّتهم كذلك، ينقلبون ضدها، وكأن الجنون جاء ليرضي أعماق جماعة مريضة، لا ترى في المرأة إلا أداة متعة لا اعتبار لها وجودياً. كل ما كان يبدو صداقة في الخارج، كان يُجني عقداً ذكورية لم تمحها للأسف، لا الحداثة، ولا الفكر التقليدي. الانقلاب ضدها، من طرف أقرب أصدقائها، دليل قاطع على هذا التناسي الموجه.

أفزع عقوبة، هي أن يُسرق من الإنسان حقّه في الوجود.

كانت مغامرة شديدة الدهشة والخوف والحيرة انبنت على فكرة صغيرة هاربة رمتها في الجوهر، باحثة في كتابها، ولم تكن تدري أنها كانت تنير طريقاً مظلماً: يبدو أن المخطوطة موجودة حقيقة، وضعتها مي عند إحدى صديقاتها، أغلب الظن المرضية سوزي أو سوزان، لطبيعتها، وحبها الكبير لكتابتها، فقد آمنت بقوة بعقلها وساعدتها، تفادياً لنشر كتاب سيؤلب عليها العائلة كلها.

لا أدري اليوم، من ناحية الحقيقة الموضوعية، إن كنا نبحت عن مخطوطة ميّ الضائعة: ليالي العصفورية. التي تساورني في شأنها بعض الشكوك المتضاربة، كأن تكون مثلاً قد سُرقت، أو أنّ ميّ نفسها أحرقتها، في لحظة غضب كثيراً ما تتناها بسبب الكآبة، أو لا هذا ولا ذلك، تكون غبابة في مكان ما، سري، ولم تُدمر، بعد مرورها على أيادٍ كثيرة حافظت على استمرار وجودها، بها في ذلك يد الأطماع الكثيرة.

ثلاث سنوات من التنقلات المتتالية برفقة روز خليل، بين مدن العالم، اقتفاء لأثر ميّ. من بيروت، مدينة القلب وتربة الوالد، في عز مراقبتها، إلى القاهرة التي شهدت أهم الفترات التاريخية في حياتها، وانتهت فيها أيضاً، إلى روما التي شكّلت مكاناً من أمكنة استراحتها، مثلها مثل برلين، وفيينا، باريس، ولندن. وأخيراً مدينة الناصرة التي شكّلتها منذ نعومة أظافرها. وجدنا صعوبة في دخولها، حاولنا مرتين بلا جدوى، على الرغم من جوازينا الفرنسي والكندي. في كلّ مدينة من هذه المدن، كانت تنتظرنا سلسلة من المفاجآت، والهزات المؤلمة، والمفرحة أيضاً.

اقتربنا منها أكثر، ولا هدف لنا من وراء ذلك سوى إنصافها بعد أكثر من قرن من مجيئها إلى هذه الدنيا التي لم تنصفها.

أنساءل أحياناً إذا لم تكن حياة ميّ، جزءاً من حياتنا العربية الفهورة اليوم، ومطيةً لتكون شركاء في زمن بداته هي، وجيلها، بشجاعة، وسط ذكورة متسلطة، خرّبتها الحروب والهزائم والخيانات المتعاطمة، وأتمنا



نحن كلُّ بؤسه، بل مددناه أكثر بدل كسره، ومنحناه كلَّ سبيل الاستمرار المتخلف والمتطرف أيضًا.

تبدأ الأشياء الجادة أحيانًا بسؤالٍ ساخر.

كنتُ في مخبر الأبحاث الأنثروبولوجية والأدبية في مونتريال الذي تدير روز خليل قسمه العربي. انتابتنِي يومها، ولأول مرّة، فكرة الرّكض وراء مخطوطة ميّ. سألتها بعد أن تحدّثنا طويلًا عن ميّ زيادة:

- ما الذي يثيرك في هذه المرأة اليوم، بعد كلِّ معاناتها؟

قالت بلا تردد:

- شجاعتها وإصرارها على أن تكون في مجتمع ذكوري، متخلف، ومصاب بالمازوشية والشيزوفرينيا، في أدنى درجاتها البدائية، وفي عزّ حربين عالميتين مدمرتين لدواخل الناس، قبل خارجهم.

في سؤالٍ شيءٍ من الخبث المقصود:

- هل قرأت سيرتها: ليالي العصفورية، أو عندك فكرةٌ عنها؟

ضحكت، قالت:

- تحتبرني يا ملعون! لا طبعًا، لم أقرأها، لأنّها ببساطة غير موجودة، باستثناء بعض النصوص والفقرات الهاربة من النصّ الأصلي، ولا أدري حتى كيف وصلت إلينا!

أضفتُ وأنا أحاول أن أقرِّبها من انشغالِ بدأ يكبر معي:

- وهل أنتِ مؤمنة بضياح هذه المخطوطة؟ ربّما تكون قد سُرقت منها وما تزال حتى اللَّحظة موجودة! من الصَّعب عليّ التوقُّف عند حدود الكلمة التقليدية التي تُحتم بها كلُّ الدِّراسات والبيوغرافيات المُنجزَة حولها: المخطوطة ضائعة. لا أملك أيَّ دليلٍ على وجودها، لكنَّ شيئًا في كان يملأني داخليًا، ييقن وجودها.

تأملتني روز قليلاً، فجأة شعرت كأنها كانت تريد أن تقول شيئًا آخر لم يكن واضحًا لديها، قبل أن أعاود الكرّة ونفق على العمل المشترك.

بعدما تحصّلت على إذن العمل في مشروع مخطوطة ميّ، سافرنا معًا نفتني عطر ميّ وخطواتها.

منذ تلك اللحظة، لم نتوقف عن العمل والتفكير والغوص في الاحتمالات الأكثر جنونًا.

حتى الصّدفَة السعيدة التي قادتنا نحو وريقات مخطوطة ليالي العصفورية، بعد سلسلة من الهزّات القاسية التي كثيرًا ما انتهت بنا إلى اليأس والخيبة، لم نُفرحنا كثيرًا، ولكنها قربت من هدفٍ بدا مستعصيًا. طبعًا، غير عمليات النصب والاحتيال، التي كلّمنا قربنا من الهدف، أبعدتنا وقايضتنا أو ابتزّتنا ماليًا، دون أن نرى المخرج الآخر من النفق المظلم،

بمجرد أن يأخذوا التسيقات، لا نراهم في اليوم الموالي. أذخر التفاصيل لوقت آخر، يوم إنجاز الكتاب المشترك مع روز.

قبل أن نعثر على سيدة عينطورة، في بيروت، عرفنا من أحد أفراد عائلة ميّ، رفض أن يُذكر اسمه الحقيقي، وأن تُنشر صورته، أن ميّ كتبت حقيقة ليالي العصفورية، ولم يكن كلامها هذيانًا. العائلة كانت تعرف أنها كانت موضوعًا أساسيًا في كتابها. سمعتُ أنه عندما هُدم جزءٌ من بيتها الذي اكتراه لها أمين الريحاني، في الفريكا، من أجل الإصلاحات والترميمات، تمّ العثور على المخطوطة، مخبّأة بين حائطين، في غطاءٍ من حرير، والكلّ في كيس بلاستيكي. يقال إنّ المريضة سوزان خبّأته هناك خوف سقوطه بين أيدي الأهل. البيت كانت تقيم فيه المريضة مؤقتًا، هي ومريضة ثانية اسمها إستر يواكيم، كانتا تساعدانها على تحمّل ليالي العصفورية الباردة، ونكران الأقارب. ماتت سوزان، بعد أسبوع فقط من وفاة ميّ، ولا أحد يعرف ما حدث بينهما سوى أنها سخّرت كلّ حياتها لميّ، بعد أن طردت من عملها وعاشت في أحد الأديرة بعد طردها من الفريكا. بعضُ الممرضين يقولون إنّ ميّ وجدت في بلوهارت؛ (سوزان)، المرأة الناعمة التي تُحِبُّ وتُشتهي، لكن هذا أمرٌ آخر لا يخصّ هذا العمل مطلقًا، ربّما تحدثت عنه بالتفصيل في الكتاب المشترك، لأنّ روز تؤكّد على ميولات ميّ الخاصة، على الأقلّ في فترة من الفترات، ولا ترى فيها أيّ ضرر.

يقول الشخص الذي رفض ذكر اسمه، ولا نشر صورته، إنهم عثروا على المخطوطة هناك، وتمت حمايتها من حرائق الحرب الأهلية اللبنانية. الكثير من أمراء الحرب والقتلة، اتصلوا بي يسألونني عن ميراث مي، لكنني أنكرت كل شيء، كانت مي محقة عندما كتبت هذه الجمل على ظهر المخطوطة:

(أخيراً دوتك يا وجمي وهم قلبي..)

أين أهرب بهذا الخوف الذي سيضيف لي رعباً جديداً؟ لأول مرة أجد الجراءة وأتحدث عن علاقاتي السوية، وحتى غير السوية بمقاييس الآخرين، عن محيطي الخادع، عن الناس الذين عرفتهم وعرفوني، تحدثت عن اللين أحببتهم وأحبوني، عن الذين ركضوا ورائي حتى تددت ألسنتهم، حكيث، عن الذين زجوا بي في دهاليز الجنون، وجعلوا من العصفورية سجناً كبيراً أموت فيه بصمت، ولا أحد يسمعي. حتى النفس الأخير، ويلا قفازات، قلتُ بعض ما أحرقتني، وحوّلني رماذاً في ثانية واحدة، لم أنتقم من أي شخص، كيفما كانت درجة أذاه لي. أعرف نفسي جيداً، لا يمكنني أن أكون في رتبة من أخفق في أن يكون هو بحبه وسخائه، فانتحل صورة عدوه.

يحق لي اليوم أن أتلاشى كما الغيمة، داخل حبي الذي شكلني، وفي عمق وهي الذي صنعتها، وصنعتني أيضاً.

يحق لي أن أحلم، ولو ثانية واحدة، قبل أن أخيب نهايكاً).

ثم اختارت؛ كما تعرفون، أن تموت في الأرض التي عاش فيها والداها، جزءاً مهماً من حياتها، في القاهرة. الذي أعرفه، هو أن سوزان، بلوهارت، خبأت المخطوطة - أو هذا ما قيل لي على الأقل - بين حائطين، وهي عبارة عن مجموعة من الأوراق الكثيرة، غير المرتبة، مثلما كتبها مي، أيام العصفورية.

المخطوطة موجودة في مكان ما، الله وحده يعلم مكانه، يجب البحث فقط عن اليد الموصلة، فهي مهمة جداً في مسار هذا الجهد.

ما قاله لنا الرجل، الذي رفض ذكر اسمه، ونشر صورة وجهه، كان دقيقاً ومهماً.

كلُّ أسئلتنا الأخرى، المتعلقة بمكان المخطوطة ومالكها الحالي، وعنوانه، باءت بالفشل، لكننا لم نستسلم، إشاراتِه كانت مهمة، بل مفيدة ويمكن استغلالها.

سألتُ من جهتي الكثير من الباحثين الذين اختصوا في مي، لكن لا أحد أفادني في هذه النقطة تحديداً، كلهم عندما يصلون إلى لحظة البياض، يعلنون بئس: ربّما تكون المخطوطة قد ضاعت مثلما ضاعت أغلبُ مخطوطاتها الدّاتية، مثل بيتي اللّبناني، ومدكراتي، وغيرهما.

في زيارتنا الثانية للعصفورية، مُنعنا من الدخول مرّة أخرى، فقد سمعنا كلامًا يبدو خرافيًا، وهو أنّ ميّ كانت تدفّن أوراقها، التي كانت تكتبها، وتخفيها في الغابة، خوفًا من أن يستولي عليها شخصٌ ما لا يحبّها، حتّى إنّ هناك من حدّد لنا الأماكن التي يجب السير نحوها، ورسم لنا مختلف الخطط، كتنا ندفع له عشرات الدولارات، مقابل صعوده على الشباك للوصول إلى عمق العصفورية والحفر تحت الأقواس؛ حيث يفترض أنّها خبأت شيئًا. ركضنا طويلاً بين مركز الآثار للحصول على إذن، لكن بلا جدوى، لأنّ المالكين الجدد للمكان، ضيقوا علينا كلّ شيء، ولم يسمحوا لنا بالعمل.

يبدو أنّ حربًا كبيرة صاحبت هذه المخطوطة، لكلّ طرف فيها، روايته الخاصة. بالنسبة للأهل، يجب ستر الموضوع بحرق المخطوطة لأنّها أسرارًا قاسية، يجب أن لا تُعرف. بالنسبة لجوزيف زيادة خاصة، هي سرٌّ من أسرار الحياتية، ولا يحقّ لأيّ واحد العبث بها، بالخصوص من مجنونة؛ كما كان يصفها لأصدقائه. يبدو أنّها حكّت عنه بعنفٍ شديد، لأنّه كان السبب الرئيس في جزءٍ مهم من مأساتها، حتّى أهله، لم يكونوا صريحين في القضية، وراحوا يكيلون لها التهم دفاعًا عن جوزيف، ومنهم ابنه الذكور إسكندر زيادة، الذي لم يترث من أجل معرفة الحقيقة وكشفها، ولم يحاول فهم التفاصيل الغامضة، واتّخذ صف والده واصفًا ميّ بأقبح الصفات:

والذي كان يحبّ الجمال، ومي لم تكن كذلك، كما أنّ والدي لم يكن يريد الزواج في الوقت الذي أشعرته مي بحبها له، أما السبب الثالث فلأنّ ذلك الطيب الشاب كان قد فضل الزواج بسيدة أخرى، تنطبق عليها شروطه في فتاة أحلامه باعتبارها صاحبة جمال وثقافة وحضور جذاب. غناها المادي أثار شهية الجشعين من الأهل، فقد ذكرت بالتفصيل الدقيق الميراث الذي خلفه والدها بتحديد أملاكه كلّها، العقارات والمساكن، وفداين الأرض، وفضحت العائلة القرية التي أعطت لنفسها الحقّ في السطو على ممتلكاتها، بحجة أنّها مجنونة. ليالي العصفورية نصّ يفضح ما خفي من أسرار النهب، إخفاء المخطوطة ليس إلّا وسيلة لطمس الحقيقة، تنقلها عبر أمكنة عديدة كان للحفاظ عليها من السطو والحرق الذي كان يهددها. طبعًا اتّضح فيما بعد، أنّ الذي أدهش جمهور الويست هول في الجامعة الأمريكية بعقلانيته، ودقة ملاحظاته، لا يمكن أن يكون مجنونًا، أو كما يقول المثل الفرنسي: *Celui qui veut tuer son chien, dit qu'il a la rage.*^١

لم نتوقّف رغم التعب والبياض الذي أصبح يواجهنا في نهاية كلّ مسار.

ذات مرّة قادنا بعض المعارف من الأصدقاء نحو امرأة طاعنة في السنّ، ذكرها الرجل الذي فتح قلبه لنا، كانت تقيم في جونيا، من أخوات

^١ الدكتور إسكندر زيادة، مجلة سيدتي.

^٢ من أراد ان يقتل كلبه، يقول عنه إنه مكلوب.

عينطورة، لا تغادر الدّير أبدًا، رافقها رجل دين تثق فيه كثيرًا، بعد زيارات عديدة اخترت فيها نوايانا، بثلاث أوراق من المخطوطة مصوّرة، مما أكد لنا بشكل حاسم، أنّ المخطوطة موجودة حقيقة. تبدأ الصّفحة الأولى بالجُمْل التالية، بخطّ ميّ المعروف: (أخرجوني من بيتي قبل السّاعة الرّابعة بعد الظهر، وأوصلوني إلى مكاني في القطار، وغابوا عني، فبقيتُ جالسًا حتّى عاد الدكتور والرّجلان الآخران، وعندئذ قام القطار، إذا نحن في منتصف السّاعة السّادسة. ومنذ الأسبوع الأول في بيروت، ذكّرت الدكتور جوزيف، بوعد، وقلت له إنّي أرغب في الرجوع إلى بيتي، فأنا بخير ولا أحتاج إلى أيّ شيء، فطيّب خاطري ببعض الكلمات، وأبقاني عنده شهرين ونصف شهر على مضضٍ منّي، وأنا أطلبه بالعودة، حتّى استكمل برنامجي في أمري، فأرسلني إلى "العصفورية"، بحجّة التغذية، وباسم الحياة الثّاني أولئك الأقارب في دار المجانين أحضر على مهل وأموت شيئًا فشيئًا). وفي الصّفحة الثّالثة، تفاصيل أخرى، لا تؤكّد فقط على المخطوطة، ولكن أيضًا على الجريمة، وعلى مسؤولية ابن عمها جوزيف زيادة: (لست أدري إذا ما كان الموت السّريع هيئًا، أمّا الموت البطيء طيلة عشرة شهور وأسبوع من التغذية القهريّة، تارة من الفمّ، بتقطيع لحمة الأسنان، وطورًا من الأنف بواسطة التريج ليصبّ ما يصبّ من الدّاخل نزولًا إلى الحلق فالصدر، فذلك موتٌ لا أظنّ أنّ إنسانًا يحتمل الإصغاء برياطة جاش إلى وصفه. ومع ذلك، كان أقاربي في زيارتهم النّادرة، يستمعون إليّ بسرور وأنا أصفّ نكالي وشقالي راجية منهم هيئًا أن يرحموني ويخرجوني من العصفورية).

كان الوصف قاسياً، لكن دقيقاً.

طلبت السيدة العجوز شيئاً واحداً وهي تنظر إلى عينيّ صديقها، رجل الدين، الصّغيرتين، الذي كان برفقتها:

- أنصفوها، إذا استطعتم، هي لا تطلب أكثر من ذلك، كلّ الذين مرّوا من هنا لم يقنعوني، كان هدفهم آخر. أنتم أقرأ فيكم شيئاً صادقاً، هذه المرأة قُتلت قبل موتها، للأسف أنا لا أملك سوى هذا.

أخذنا الصّفحات الثلاث بعد أن صورناها، وخرجنا. رفضت أيّ تعويض مادي.

هي أيضاً طلبت أن لا نكشف لا عن اسمها، ولا عن مكانها. سألتها عن بقية المخطوطة، قالت:

- كانت المخطوطة هنا في الدير. على ما سمعت من الأخت الكبيرة، جاء بها شخص، في عزّ الحرب الأهلية، من بيتها في الفريكا الذي تمّ تهديمه، وأخفاها هنا لدى الأخت الكبيرة التي توفيت قبل سنوات. يقال إنّ امرأة كانت وفية للأخت الكبيرة، هرّبتها إلى المكتبة الوطنية الفرنسية في باريس، برفقة مخطوطات سرّية كثيرة أخرى، خوفاً من ضياعها.

- ألا توجد أيّ علامة أخرى؟ فقد بحثنا عنها في المكتبة الوطنية، ولكن عبثاً، وإذا وُجدت، فهي غير مسجّلة تحت رقم معيّن، قد تكون من المخطوطات الضائعة، لكنّي أستبعد ذلك.

- كل ما أعرفه وضعته أمامكما، لأنني أشعر بطيبتكما وحبكما لمي. نحن مسؤولون أيضًا، تركناها وحدها للرب وللعدراء، تموت في عزلة الصمت والخوف، ولم ندافع عنها أمام هجمات المسيئين لها.

نظرتُ روز إليّ، ونظرتُ إلى عينيها الهادتين.

لم نقل شيئًا.

كان كل شيء يبدأ من جديد.

كنّا تندرج داخل موجة، كانت تقربنا من الهدف أحيانًا، وترمينا بعيدًا على هوى رياحها، في أحيانٍ أخرى. لا أدري لماذا شعرتُ، هذه المرة، بأنّ المحاولة كانت أفيد من كلّ المرّات السّابقة؟ فجأة لحقت بنا السّيدة العجوز، قالت لي:

- أنا كبرت، وقد أموت في أية لحظة، افتح حقيبتك ولا تسأل.

فتحتها دون أن أسأل، أدخلت في عمقها مغلقًا بلاستيكيًا، تمتمت:

- لم يبق في عمري الكثير، احتفظوا بها، ثلاث صفحات أصلية من كتاب ضائع، قد لا تعني الكثير لغيركم، لكنّها مهمة بالنسبة لكم. متأكدة من أنّ الأخت الكبيرة ستكون سعيدة، فقد حافظت عليها كثيرًا، وتقول دائمًا، تلك ذاكرة أختنا التي لم نعرف كيف نحبّها ونحميها.

- شكرًا يا أمنا.

قالتها روز، ثم انسحبنا.

لم أعرف كيف أشكرها، كنتُ أريد أن أسألها لماذا قالت الأخت الكبيرة عن مي: *أختنا التي لم نعرف كيف نحبها؟* لكنني تخيلت قليلاً السبب الباطني، ثم أنّ ضيق الوقت لم يكن ليسهل من مهمتنا.

قالت روز ونحن في الزيتون استعدادًا ليوم ثقيل - اخترنا أن نفطر هناك، نشرب ليمونًا بالنعناع، ونتأمل المراكب المتنوعة للبورجوازيات اللبنانية الجديدة التي جاءت بعد الحروب الطاحنة:

- شايف، يقولون إنّ الشعب اللبناني يعيش حربًا أهلية طاحنة، لا تتوقف أبدًا، لا تشغل بالك، لن يحترق ميناء الاستجمام هذا، كلّ الطوائف متفقة على راحتها، وتحمي بعضها بعضًا، عند الضرورات القصوى. لا تخف، الذئاب تتقاتل، لكنها لن تأكل بعضها، يستمر البؤساء في بؤسهم، والأغنياء في غناهم. الاغتيالات السرية اليومية المبرمجة والمنظمة، ستستمر، وموت المرفوضين في حوادث السيارات المفبركة، أو الغاز، لن تتوقف، الانفجارات الانتحارية من أصحاب طريق الجنة الذين يفجرون أنفسهم بغية محبة الله ورسوله، ستتضاعف، طريق الجنة هو الطريق الثالث، طريق جديد تم اكتشافه فجأة أيام حرب أفغانستان، والحروب العربية، لينضم إلى طريق الحرير والبحارات.

- المهم أننا في المسلك الصحيح.

- في المسلك الأصح هههه.

مولعٌ بالزوانح مثل حيوانٍ متوحش، يعيش في غاباته الاستوائية، تعودت على قراءة أيِّ عطرٍ هارب، بدأت أتفحص وريقات المخطوطة الثلاث، منذ أن سلّمتها لنا سيّدة دير عينطورة، أحاول أن أستشق ليس فقط رائحة الورق الأصفر، ولا رائحة السنوات التي مضت، ولكن رائحة اللبالي التي سرقت من ميّ كلّ شيء جميل، ومنحتها خوفًا ثقيلًا كان عليها تحمّله. خطّ ميّ الأنيق والجميل يقودني نحو تحمّل أناملها الناعمة واللذيذة، وهي تسطر حرائقها. لاحظت وأنا أوزق المخطوطة أنّ هناك بعض الفراغات بسبب الماء أو الرطوبة، الأمر الذي يفرض ترميمها بدقّة، وسريعًا قبل فوات الأوان.

كانت روز رقيقة طريق حقيقية، من بداية هذه الرّحلة حتّى نهايتها. على مدار الثلاث سنوات الأخيرة قطعت كلّ عطلها حتّى عطلة عيد الحبّ المقدسة لديها، التي كان يفترض أن تقضيها في برشلونة، لم تستمع بها، قالت نقضيها معًا في مدينتك التي تحبّها كثيرًا، مدينة الثالث المجنون،

دالي، بيكاسو، غاودي. فقد ظلت معلقة معي، بين مونتريال، باريس، وبيروت، والقاهرة، والناصرة، مدينة سيدنا المسيح، ومدن أخرى.

أحياناً أقول إن الأعمار هشة مثلنا. كنا في باريس، في المكتبة الوطنية الفرنسية، فرانسوا ميتران، عندما أكد لنا صديق قديم مختص في المخطوطات، أن المخطوطة يمكن أن تكون في باريس تحت اسم آخر، أو مسجلة تحت كلمة أنونيم Anonyme^٧. وجاءنا بمقالة لكاتب فرنسي توفي قبل سنتين، جون شاتلي، تقول مثل هذا الكلام. على مدار أسبوعين متلاحقين، بحثنا طويلاً عنها، بلا جدوى، وكان علينا أن نساغر إلى القاهرة للقاء المرأة العجوز التي وصلنا عنها، من الصحفي سامي، أحد أصدقاء روز المصريين، أتها تملك الكثير من الأوراق التي تعود لمي، لكنها تريد مالا كثيراً، وطلب منا أن لا نزورها إلا عن طريق متعامل خاص، يعرف مكانها جيداً.

لم نصدق كثيراً كلامه، لكن التفكير وحده في الحصول على المخطوطة كان دافعاً قوياً لخوض التجربة.

رتبنا أمر السفر إلى القاهرة ونحن في باريس. في آخر لحظة، بالضبط ٢٤ ساعة قبل سفرنا، طلبت روز أن نؤجل السفر ليلة واحدة، لأن لها موعداً

^٧ مجهولة.

مهماً وجاداً مع سامي؛ الذي ألح على رؤيتنا قبل الذهاب إلى القاهرة، أكد لها أنه يملك معلومات مهمة وجديدة حول مخطوطة "ليالي العصفورية".

تقول روز أنها جربت سامي في الكثير من المرات، وكان دائماً جاداً وصادقاً في وعوده.

أجلنا السفرة في انتظار اللقاء به.

التقينا به على الفطور الصباحي، في مطعم لا روتوند، في مونبارناس.

كنّا سعداء بالحديث المثر مع سامي؛ الوسيط الذي كان يملك معلومات مفيدة جداً، زدنا بتفاصيل شديدة الدقة عن السيدة التي يُفترض أنها مالكة مخطوطة "ليالي العصفورية"، وغيرها من مخطوطات مي الأخرى، التي لا نعرف عنها الشيء الكثير، وأعطانا كيفية الاتصال بها. قال إنها ورثت ذلك عن والدتها، الصديقة المقربة من مي زيادة، وأنها هي من هرب بعض مخطوطاتها من بيروت، بالخصوص مخطوطة ليالي العصفورية، وانتزعتها من مخالب الأهل الذين ظلوا يبحثون عنها لخرقتها، أو تدميرها، لأن الحديث الذي كان يدور وقتها، هو أنها صفت كل حساباتها مع أهلها، وأنها مسخت تاريخهم، وبهدلتهم، وتاريخ ضيمة شحتول، بل إنها لم ترحم حتى أصدقاءها من المثقفين المصريين الذين تخلوا عنها، مما جعل بعض الجهات المعنية في مصر تقوم بجهود كبيرة للحصول على المخطوطة، أيضاً.

ونحن نفطر باستكانة ونستمع لسامي الذي كان يتحدث وكأنه يروي
فيلمًا بوليسيًا، رفعنا فجأة رؤوسنا صوب التلفزيون المعلق في صدر المطعم،
الخبر كان جافًا وصاعقًا: سقوط رحلة المصرية للطيران رقم: MS804،
فجر اليوم. الرحلة الليلية، انطلقت على الساعة الحادية عشرة ليلاً وتسع
دقائق بتوقيت باريس، وعلى متنها ٥٩ راكبًا، نجا منهم شخصان، لأنهما لم
يسافرا، والشرطة بصدد البحث عنهما لاستكمال التحقيقات.

صرخت روز: يا إلهي؟ واضحة رأسها بين يديها.

نظرتُ إليّ بحيرة، ونظرتُ إليها ونحن غير مصدقين، كان يُفترض أن
نكون من بين الركاب الذين توفوا في الرحلة التي كانت على ارتفاع
٣٧٠٠٠ قدم عندما غابت فجأة عن الرادارات، على الساعة الثانية وخمس
وأربعين دقيقة بتوقيت مصر!

كلّما تذكّرتُ الحادثة، تأكّدت من أنّ الركض وراء ميّ منحنا حياة أخرى
ندين لها فيها برؤوسنا.

بقيتُ روز لثوانٍ طويلة صامتة، ثم تمتم مرة أخرى: هل يُعقل؟

- هل يُعقل أنّ صدفة ميّ العجيبة منحتنا الحياة؟

- ربّما كانت نفس الصدفة التي سرقت من ميّ عقلها ومنحتها جنونًا

غير مسبوق.

- فم نذهب إلى الشرطة على الأقل، حتى لا نتعرض لمضايقات غدا في المطار، أعتقد أن الأمر يتعلق بي وبك.

كانت إفادتنا بسيطة، إذ شرحنا للأمن، لماذا غيرنا الرحلة؟ شرحنا لهم في المركز الذي وجهنا نحوه، كل شيء، بالتفاصيل الدقيقة، بعدها سرحونا. قال رجل الأمن الذي استقبلنا، وسجل إفادتنا:

- حظكم كبير.

قضينا الليلة كلها في حضان بعض مثل خائفين من عاصفة، كانت تبت تحت التبرير، ثم عدنا إلى مشروعنا بثبات أكثر وفي سباقٍ محموم مع الزمن، وكان الموت الذي كان على الحافة، لم يكن يعيننا.

سافرنا إلى القاهرة، وهناك كانت تنتظرنا قصة فيها الكثير من الطرفة. اتصلنا، كما أمرنا سامي، على رقم الأسطى عادل، رد علينا رجلٌ بلا أستان، بدا ذلك واضحًا من خلال نطق بعض الكلمات السينية.

- نحن من طرف صديقتكم سماء، يا أسطى عادل.

- سماء مين يا أفندم؟

- سماء باريس.

- أتمت بتوع الوفد السياحي الفرنسي اللي حابب يشوف أهرامات الجيزة والأقصر؟ مرحبًا بكم.

- الوفد الفرنسي الكندي.

- أحسنت، تعرفون تسعيرة الجولة، والسفرة من هنا للأقصر، عبر النيل؟

- طبعًا.

- إذن نلتقي في مقهى ريش، وأفسحكم هناك، تشوفوا القبو الذي كان يخفي ثوار ١٩١٩، والطابعة التي كانت تطبع منشوراتهم، وبعدها نتقل للست زينب.

- الست أم الصبايا.

- بالضبط يا معلم، أحسنت.

التحق بنا الأسطى عادل بسرعة، عندما وصل إلى عين المكان، اعتذر عن الأسلوب البوليسي الغامض الذي عاملنا به، كان يريد فقط أن يتحقق من أننا لسنا شرطة، الباقي مقدورٌ عليه، كما قال، لدرجة أحسست كأننا كنا نقوم بعملٍ خطيرٍ ومحظورٍ يجب فيه الحذر والاحتياط. المخطوطة لم تُبع في مزاد، ومصادرها مبهمّة، ونقلها من مكانٍ لكان ممنوع.

قالت روز وهي تضحك:

- أي مزاد يا رجل؟ الناس هنا تباع وتشتري، المخطوطة ملكية لناس
معددين، لم يسرقوها، ولهم الحق في البيع، ولنا الحق في الشراء.

- لكن القانون لا يسمح بذلك إذا اعتبرت المخطوطة ميراثًا وطنيًا؟

- أي ميراث؟ مين اللي تذكرها وأعطها قيمة؟ في انتظار صدور ذلك
القرار الحامي، فهي مخطوطة لها مالكون ونحن نتعامل معهم على هذا
الأساس، المزاد الوحيد الذي أعلن فيه عن بيع ميراث مي، كان كذبة
كبيرة. ها هي قصاصة الخبر التي نُشرت في الكثير من مواقع الفيسبوك:
" مساء السبت سأحضر مزادًا في شقة، بشارع حلوي، بوسط القاهرة، أمام
مبنى الإذاعة القديم، الشقة مغلقة منذ ١٩٤١، وفيها كراتين وأوراق
ورسائل من العقاد، وطه حسين، وأمراء وعظماء، لأنها كانت جميلة جدًا.
أهم كرتونة هي تلك التي تشمل كل ملفاتها الطيبة وتقارير علاجها
ووفاتها، إنها مقتنيات الأديبة مي زيادة، والتي ستباع في المزاد العلني، إن
الورثة جمعوا كرتونة فيها أوراق تشمل مصاريف جنازتها، وحساب
الخانوي القبطي، لقد كانت مي عاشقة للموسيقى، عندها عدد من
الجراقونات، وأسطوانات كثيرة ورسائل بخط سيد درويش، وتلاكر
حفلات مسرحيات للريحاني، ويوسف وهبي، وكمية الصور لها تقلد
بحوالي الألفين صورة مع كل عظماء مصر، وأغراضها الشخصية، وجواز
سفرها، وبطاقتها، وخطابات الغرام بينها وبين جبران خليل خليل



جبران). وعندما ذهب الناس إلى المزاد، لم يجدوا شيئاً من هذا، الكذبة انطلت حتى على وزارة الثقافة المصرية!

التفت الأسطى عادل نحونا، نظر إلينا بعينين زائغتين كعيني ثعلب، وكأن المحاوره لم تعجبه. ثم قال:

- الكذبة كانت فضيحة، أنتم أتفتم مع المعلم سامي بشكل كويس.

- هو صديقنا وتعاملنا معه كثيراً وبنجاح مضمون.

برقت ملامحه من جديد، كنت سعيداً كطفلٍ بلقائي لأول مرة بالمخطوطة الهاربة.

- إذا خلصتوا الشاي، نؤكل نحو الجيزة.

ذهبنا نحن الثلاثة في سيارته القديمة، مزح:

- مرسيدس قديمة، كانت في أيامها عروسة.

- المهمّ توصلنا.

- توصلنا، وتوصلنا تاني، بس مش مؤكد ترجعنا، ههههه.

ضحكنا؛ كان مرحاً جداً.

مضت أكثر من ساعة ونصف منذ انطلاقنا، فجأة رأيت من بعيد أبو الهول غير مكترثٍ بها كان يدور من حوله من أحداث، ووقائع، وبشر

يتقاتلون. تذكّرت وجع مميّ: لقد دفنت نصفك الرمال المغيرة على علاك،
وما زلت ترقب الشرق وتبتسم، ونحن تغزونا الكوارث، وتفتك بنا
الدواهي، فنظّل نترقب ونرجو، أصحّح أنّ لغزك لغز الدهور؟ لماذا لا
يكون ابتسامك الدائم صورة الأمل المتجدّد أبدًا فيه.

وجدنا أنفسنا بعدها في عمق حيّ قديم في أطراف الجيزة، مليًا
بالأكياس البلاستيكية، ومواد البناء المبعثرة في كلّ مكان، تلفن الأسطى
عادل:

- أم الصبايا، السباح وصلوا.

قبل أن نرفع رأسينا ونرى الأهرامات الممتدة من بعيد، فتحت كوة
صغيرة من حائط يشبه العدم، طلّت سيّدة في عمرٍ متقدّم، الستّ زينب؛ أم
الصبايا! على رأسها ملاية سوداء. دخلنا مثل سارقين بسرعة، ثم أغلقت
الكوة.

شممت شيئًا ما داخل البيت، لم أحذّده، ربّما رائحة الورق القديم. مولع
بالزوايح السرية أنا، التي تنطلّب حواسًا حيّة تتخفى وراء الحواس
المعروفة.

جلسنا على كرسيين قديمين حول طاولة حديدية من الفولاذ، لا نؤا
تحركها من مكانها، ثم جاءتنا أم الصبايا ببعض الوريقات من المخطوطة

بدءاً من الصفحة الرابعة، ثم الخامسة والسادسة، عرفت خطّ ميّ بسرعة،
تفحصتها روز تحت الضوء.

- ليش تحديداً الصفحة الرابعة؟

- لاتنا بكلّ بساطة لانملك الصفحات الأولى.

أخرجتُ صورة الورقة الثالثة التي كانت معي، التي سلّمت لنا في دير
عينطورة، وجدت أنّ الحديث كان متواصلًا ومترابطًا مع الصفحة التي
بعدها؛ الرابعة. أدركتُ بدون كبير تفكير، أنّها من نفس وريقات مخطوطة
الدير. شرعتُ في قراءتها وعلى وجهي دهشة كبيرة، وأحاول أن أشمّ ليس
فقط رائحة الورق الأصفر، ولا رائحة السنوات التي مضت، ولكن رائحة
الليالي التي سرقت من ميّ كلّ شيء جميل، ومنحتها خوفًا ثقيلًا كان عليها
تحمله. خطّ ميّ الأنيق والجميل يقودني دائيًا نحو تخيل أناملها الناعمة
واللذيذة. لاحظتُ وأنا أوزق المخطوطة أنّ هناك بعض الفراغات بسبب
الماء أو الرطوبة، تقتضي ترميمًا عاجلاً قبل فوات الأوان.

- لازم لها ترميم يا ستّ زينب، وإلا راح تندثر.

هزت رأسها، ثمّ قالت:

- لازم ترميم، هذا هو الأمر الطبيعي. لو علم أحدهم بها، سيسرقها
منيّ، وقد يقتلني. الناس هنا مجرمون، حينًا خطير. تعالوا غدًا بعد أن تتفقوا

مع الأسطى عادل، حول المخطوطة، هي في مكان مأمون مائة بالمائة، وستصلكم فور إتمام الاتفاق.

ما حدث بعدها قصةً طويلةً يمكنكني أن أحكيها لاحقًا في الكتاب المشترك أيضًا، تستحق أن تُروى. لم يكن شيءٌ يشغلني سوى الحصول على المخطوطة، المكتبة الوطنية حملتني مسؤولية الاقتناء، لكن رئيس الدائرة كان مقتنعًا بقيمة المادة المقتناة، لهذا حافظوا على المسافة التي تجعلهم في منأى عن التورط في تهريب مخطوطة مهمة. لم أتساءل، وذهبت إلى المتهى للحصول عليها، لم تكن غالية بالشكل الذي توقعناه.

الذي أتذكره، هو أنه في النهاية، ونحن في المقهى، جاءنا السيد عادل وأم الصبايا، ثم لحقت بهما شابةٌ أنيقة، تعبق منها عطور جيفانشي، على رأسها شابو من الحلقاء، ونظارتان سوداوان. شربنا قهوة، ومثلما اتفقنا، أخذت الشابة كيس النقود الذي كانت قد وضعت أم الصبايا، في حقيبتها اليدوية، ثم عادت بعد خمس دقائق، بعد أن دخلت في محلٍ مجاور لبيع المجوهرات، عادت بلا حقيبتها اليدوية، قالت كلمة واحدة بصوتٍ ناعم وهي تنظر إلى عيني أم الصبايا:

- تمام يا أمي.

ثم غابت الشابة في عمق السوق.

بعثت أم الصبايا معنا قليلاً، بينما انسحب الأسطى عادل نحو سيارته،
ثم عاد في يده كيسٌ برتقالي، وضعه في حجري وهو يتمتم:

- عندك المخطوطة ومعها كيس من الأوراق والرسائل، لم نتفق عليه،
لكن خذه، وأعطنا اللي يطلع من إيدك، تفرحنا وتفرح أم البنين، وإذا ما
فيه، مساعين.

أخرجت ٥٠٠ يورو كانت في جيبتي، وضعتها في كفه الممدودة.

- لا عليك، أتمنى فقط أن تكون أوراق الكيس نافعة.

ثم انسحب بدوره نحو سيارة المرسيدس، برفقة أم الصبايا التي بدت
أكثر نشاطاً، وأقل من السن الذي رأيناها فيه، في أول زيارة لها في الجيزة.

حتى في لحظات اليأس، كانت روز تكرر على مسمعي دوماً جملتها:
يجب أن لا نياس حبيبي في وضع كل ما فيه يدعو إلى اليأس. الإبداع وحده
يمدّد في عمر الأرواح المظلومة. إن القطعة الناقصة من مشروعك هي ليالي
العصفورية، ها هي الليالي كلها اليوم في حوزتك، افعل بها الآن ما تشاء.

فتحنا الكيس البلاستيكي، قفزت آلام ميّ بقوة.

عندما قلبت مخطوطة ليالي العصفورية، بين يديها وأناملها، كانت
الدهشة تراقص في عينيها، وهي غير مصدّقة ما كان يحدث أمام عينيها.

- أخيراً حبيبي! في قمة فرحي.

- هل يُعقل؟ مخطوطة ليالي العصفورية هنا؟ أشعر بجفافٍ في الحلق، كيف غابت كل هذه السنوات وكيف نُسيبت وهي أهم وأصدق ما كتبت في حياتها الإبداعية، وبكل شجنها وخوفها وأساسها الذي سحبها من هذه الدنيا؟ انظر هنا، الكلمات ممحاة، كأنها كانت تكتب وتبكي، يمكننا أن نجد الكلمات الغائبة في النص وتثبيتها في التحقيق، دعمها الحار مسح بعض الخطوط: ومنذ الأسبوع الأول في بي... (بيروت) ذكرت الذكور... ده (بوعده) وقلت له إنّي أرغب في الرجوع إلى بيتي.. فأنا بخير ولا أحتاج إل... فطبي... طري (للي أيّ شيء... فطيب خاطرني)... وأبقاها عنده شهرين ونصف شهر على مفضض منّي وأنا... له (أطالبه) بالعودة.. حتى استكمل برنامجي في أمري، فأرسلني إلى "العصفورية".

لا أدري إذا ما كنتُ قد أنصفتُها، لكنّها الصدفة والرغبة الغامضة في داخلي هما ما قاداني نحوها بيقين كبير، بأنّي يوماً ما سأصل نحو كشف السر الغامض الذي ارتبط بمني، وبكل ما قامت به بعد أن تخلى عنها أصدقائها، وأحبّتها، وعشاقها، وحتى أهلها. أقول عشاقها وأنا أعرف الوجد الذي خلفه فيها معجبوها الذين قتلوها الواحد تلو الآخر، كل بطريقته، باستثناء أمين الريحاني. ربّما كنتُ واحداً من هؤلاء! قالت لي روز وهي تضحك، كأنها كانت تريد أن نقضي بسرّ في قلبها. هههه تشبهها جدّاً، هي تشتهي أن تكون مخطوطة بالرجال وأنت بالنساء، بعض الفنانين والكتاب هكذا، لا يطبقون العيش خارج هذا النظام الجماعي، مسكينة من تحبّك يا روحياً هههه.

لم يحدث لي أن أحسستُ بالآلام امرأةٍ مثلها أحسست بالآلام مني، لهذا أشعرُ
كأني معنيٌّ بقوةِ هذه الآلام القاسية.

لا أدري إذا أرجعت لها ما سُرِق منها أو بعضه؟ لكنني أعتقد أنها سعيدة
اللحظة بعد حياةٍ قاسية، وجنازة حضرتها القلط برفقة ثلاثة أشخاص
رافقوها حتى مشاها الأخير، لا أعلم إن كانت ضربة حظ أم حقيقة؟ لكنني
لم أكن أتصوّر أن يحدث هذا. أدركت من خلال أبحاثي أنّ بعض
المخطوطات تكون أماننا ولا نراها أبداً، لأننا ننظر كثيراً نحو المسافات
البعيدة التي تلغي الأشياء القريبة، مع أن البحث في المخطوطات الضائعة
يقتضي أن ننظر أيضاً بالقرب منا ونلتفت نحو التفاصيل الصغيرة التي لا
أحد ينتبه لها.

لم أصدّق حينها عثرنا على المخطوطة! أعرف أن الكثيرين لم يحصلوا
عليها على الرّغم من أنهم قضوا عمراً طويلاً وهم يركضون وراءها،
الصدف أحياناً تساعد، بعد سنواتٍ من البحث المستميت عن مخطوطةٍ
ضائعة. كنت قد تخصصت في ذلك منذ سنواتٍ خلت، عثرتُ على نصّ طه
حسين الضائع: في الشعر الجاهلي، غير المتداول اليوم. فيه الكثيرُ من
الفقرات التي قام بنزعها هو نفسه، والتي كانت ستُفركه في حياته حول
القرآن والعقلاية العربية المريضة. عثرتُ أيضاً على مخطوطات كثيرة، منها
ألف ليلة وليلة، في رواية مغاربية جديدة، وغير منشورة، لم ينتبه لها أنطوان

غالان وهو يجمع المرويّات، وإلا كان قد رقم النص كما فعل مع المرويّات الشامية والمصرية، صورتها من عند عائلة الفغون في قسنطينة قبل أن تُهزّب إلى الولايات المتحدة في شيكاغو، وساعدتني الصديقة الدكتورة وداد القاضي يومها على رؤية بعض صفحاتها والاطلاع عليها. ومخطوطة سي محند أو محند الذي جمعتُ قصائده الأمازيغية التي تمّ حفظها بالحرف العربي لأول مرّة، أجد متعةً كبيرة في مطاردة المخطوطات الضائعة. وجدتُ أيضًا مخطوطة صغيرة مكوّنة من رابط أوراق صغير، من ٣٥ صفحة، فيه عشر قصائد جديدة لأرثر رامبو، ولم توثق في المكتبة الوطنية بباريس، إلا بعد صعوبة كبيرة جدًّا، متوفّرة اليوم تحت رقم ٤٧ IKJN، وكان ذلك مثار فخري الكبير في موضوع بحثي الخاص بالمخطوطات. أجمل المكتشفات على الإطلاق، مخطوطة: *يوميات سرفانتس في الجزائر*. عندما كان رهينة عند حسن آغا فيزيانو؛ حاكم الجزائر في القرن السادس عشر.

لم أضف شيئًا لهذه الليالي العصفورية، احترمتُ المخطوطة كما وجدناها، لا زيادة، سوى أنّي نظمتُ صفحاتها التي كانت مبعثرة بفضل جهود روز خليل أيضًا، ورتّمتُ الكلمات الناقصة وهي بعدد ١٠٠٢ كلمة، عنها الدموع وهي تكتبها، والرطوبة، والحشرات. أضفتُ العنوان الصغير: ثلاثمائة ليلة وليلة في العصفورية. لتبيان ثقل الظلم والأذى، لأنّ حساب الأيام في العصفورية، غيره في الحياة العادية. وأعدت ترتيب العناوين

الداخلية لتكون المخطوطة مقروءة ومفهومة بسهولة أكثر، وتركت العنوان الأصلي كما هو، ليالي العصفورية. لم يكن القيام بذلك أمراً سهلاً، كان عليّ قراءة المخطوطة، وإعادة قراءتها بجدية مرّات ومرّات، بعد أن تمّ ترقيمها في المكتبة الوطنية الفرنسية: فرانسوا مييران. وترميم نقائصها مع روز، وعرضها على عددٍ محدود من المختصّين، قبل العمل على تحقيقها وطباعتها نهائياً طبعة تصويرية.

من بين كلّ الذين سمّوها، إيزيس كوبيا، الكنار، ماري، مي، وغيرها. لا أحد فيهم وُفق في تسميتها، لهذا أسميتها: غيمة الناصرة. وتمنيت أن أضع هذا العنوان على واجهة الكتاب، لكنّي لم أعطِ لنفسي حقّ تغيير الجوهر، وهو نفس رأي روز. لقد طافت غيمة الناصرة كثيراً، ورأت كلّ الألوان، من الخفيفة حتّى النارية، عاشت الرياح والعواصف، وعندما أنقلتها مياه الشوق؛ نزلت على أرض عطشى، فسقتها واختلطت بها حدّ التهاهي.

أحياناً أصرخ في غفوي:

لماذا تخلّوا عنك يا غيمة الناصرة، وتركوكِ تموتين في العزلة والخوف؟

الشيء الوحيد الذي بقي في ذهني اليوم وأنا الملم هذه الأوراق أخيراً، وأحقّقها، وأختم هذا الجهد لأتوجّه نحو كتابي المشترك مع روز خليل



حول رحلتنا، هو أنّ مميّ كانت امرأة أخرى، من معدنٍ نادر لا اسم له، أعطت كلّ ما لديها ولم تترك لنفسها شيئاً. الكثير ممّن قرؤوا رسائلها افترضوها امرأة لعوباً، لكنّي لست متفقاً معهم، ليس دفاعاً عنها لأنّها ليست في حاجة إلى ذلك، من حقّها أن تعيش الحياة التي تشتهي، لكنّي خرجت بيقينٍ كبير بعد هذه الرحلة، فقد كانت مميّ معشوقة من كلّ من تعرّف عليها، في زمن كان من الصعب العثور على امرأة ذكيّة ومثقفة وجميلة في الوقت نفسه، كانت تعرف جيّداً أين تضع قدميها، وكانوا يعرفون جيّداً حدودهم معها.

وأنا استعدت لنشر الكتاب المفقود من أعمال مميّ في شكلٍ تصويري ليحافظ على عقبه مع الشروحات والتعليقات لتسهيل فهمه، يتابني وجه روز خليل يوم سفرها، لا أتذكر إلّا وجهها المضيء من وراء المرايا، وهي تأخذني من يدي وتسرح بي بعيداً، تنظر عميقاً إلى عينيّ، ونحن نأمل الطائرات التي تنزل وتطير بشكلٍ لا يتوقّف، في مطار رواسي شارل دوغول.

- لو فقط التقينا قبل عشرين سنة! ما افترقنا أبداً.

- في الحياة متسع للفرح يا روز.

- لستُ نادمة على شيء، اخترت عمليّ وحرّيتي. ميا وليلي، تملّان حياتي، من زواجٍ لم يستمر طويلاً.

عندما عانقتني وضممتها بقوة، همست في أذني:

- شكراً لك حبيبي ياسين، شكراً لمي، شكراً لعجوز القاهرة التي
أنقذتنا من موتٍ محتم.

كنت أرى كلَّ شيءٍ في عينيها، وكانت ترى كلَّ التفاصيل في قلبي.

لأول مرة أراها كزهرة مشرقة، شعرها الأحمر في مهبِّ الريح، تكاد حمرة
وجهها تنفجر.

في الليلة الأخيرة في القاهرة؛ عندما فتحنا المخطوطة عن آخرها،
صرخنا معاً:

- أوريكا.....!..!

هذه هي ليالي العصفورية التي ضيّعت كلَّ من ركض وراءها، في
المتاهاتِ المبهمة؟

تمنينا معاً، لو كان برفقتنا، في تلك الليلة السعيدة، سلمى الحفار
الكزبري، فاروق سعد، محمد عبد الغني حسن، وداد السكاكيني، روز
غريب، حسين محمد عمارة، أنطوان فوال، منصور فهمي، جميل جبر، طاهر
الطناحي، سهيل البشروني، آمال داعوق سعد، أحمد الطويل، عبد اللطيف
شرارة، وكلّ الذين منحوا ميّ شيئاً من أعمارهم لينصفوها قليلاً فقط. لو
كانوا هنا، معنا، في هذا المكان تحديداً، لشربنا نخب ميّ؛ إيزيس كوبيا، في



عزّ عنفوانها، عندما كتبت آلامها الأولى، وقلنا بصوت واحد ومسموع:
كأسك يا ممي، وجدناك، وفهمناك. لكن للأسف، أغلبهم خرج من هذه
الدنيا القاسية، وبقيت أصواتهم مستمرة معنا وفينا.

سحبتُ الصندوق، أو علبة الحفظ؛ كما تسمي في لغتنا المكتبية، والمرقمة
AR.MZ.LIB.1886، التي كانت تحتوي على مخطوطة ليالي
العصفورية المرممة، في نسختها الأصلية، وفي نسختها التي طبعتها طبعة
تصويرية حتى يحافظ النص على أصالته، المكتبة الوطنية الفرنسية BNF،
ومخبر الأبحاث الأنثروبولوجية والأدبية في مونتريال LRAL، مع
التعليقات والحواشي. كانت مرفقة بمجموعة من الوثائق، المقالات المهمة،
وأجزاء من مخطوطات نصوصها، بعض تصريحاتها، فاك سيميلي، من
محاضرتها التي ألقتها بعد خروجها من العصفورية، تصريحاتها الكثيرة في
الصحف والمجلات، ورسالة كامب كلوديل لها، التي تعتبر وثيقة نادرة،
تقرير الطيب محمود الذي وصف فيه اللحظات الأخيرة لممي، وغيرها من
الأوراق التي تخص حياتها وأعمالها.

أناقل المخطوطة بعشقٍ وألمٍ مبطين، أشمها وأتلمس جوانبها.

أفتحها بحذر، أحمسها بنعومة كمن يلامس جناحي فراشة، خوفاً من
إتلاف ألوانها، تستغرقني رائحة الورق، والحبر القديم، والدموع التي

تبيست على الورق، والعرق الذي علق برائحة الخوف، و... والصراخ
المكتوم.

في غفوتي السّاحرة، يتابني وجهها ورعشة عينيها، أسمع رقيقاً يشبه
نبض قلبٍ مُتعب، كأنه كان يأتي من عمق المخطوطة، ومن بين حروفها
التي تتلاصق كأنها تبحث عما يحسّسها ببعض الأمان.

أتحسّس برهبة، الورق الذي انتفخ قليلاً في بعض أماكنه، بفعل الرطوبة
والإهمال، كأنني أفتح كتاباً مقدّساً ظلّ مرمياً قرونًا متعاقبة في دبرٍ معزول،
في أعالي جبل الموت، قبل أن تأتي يدٌ وتتشلّه من موتٍ ظلّ يتعقبه.

ترتعش الصّفحة الأولى بين يديّ، أتوقف قليلاً، أسترجع أنفاسي،
أواصل.

أتنبّه فجأة أنّ الرّعشة كانت متي، وأنّ الخفقان كان مصدره قلبي.

أتمتم، أقرأ.

أقف، العنوان يملأني؛

ليالي العصفورية: تفاصيل مأساتي..

مَبِّ زِيَادَة

(لبنس كويبا)

ليالي العصفورية

تفاصيل مأساتي. من ربيع ١٩٣٦ إلى خريف ١٩٤١

النسخة الأصلية الكاملة التي تم العثور عليها في صحراء الجيزة. ودير عينطورة في بيروت.

تحقيق وترتيب وتعليق

د. خليل وهاسن الأبيض

Éditions BNF Paris & LRAL Montréal

بدءُ الليالي؛

...أخرجوني من بيتي، قبل الساعة الرابعة بعد الظهر، وأوصلوني إلى مكاني في القطار، وغابوا عني، فبقيتُ جالسة حتى عاد الدكتور والرجلان الآخران، وعندئذ قام القطار، إذا نحن في منتصف الساعة السادسة، ومنذ الأسبوع الأول في بيروت، ذكرت ابن عمي، الدكتور جوزيف زيادة، بوعدده، وقلت له إنني أرغب في الرجوع إلى بيتي، فأنا بغير ولا أحتاج إلى أي شيء، فطيب خاطرني ببعض الكلمات، وأبقاني عنده شهرين ونصف شهر على مضض مني، وأنا أطالبه بالعودة، حتى استكمل برنامجي في أمري، فأرسلني إلى العصفورية، بحجة التغذية. وباسم الحياة ألقاني أولئك الأقارب في دار المجانين أحتضر على مهل.



١- مَرِيْمُكَ أَنَا يَا اللهُ، فَلِمَاذَا تَخَلَّيْتِ عَنِّي؟

(١)

موجودَةٌ وكأني لم أكن.

لا شيء الآن، سوى الموت كتابة.

لهذا أكتب لكي أستمر في.

الغياب؛ جهنم الأرض، العصفورية سجن قبل أن تكون مستشفى،
قضبان النوافذ في السجن تنقلب أوتارَ قيثارة لمن يعرف أن ينفث في الجهاد
حياة.

لقد وضعوا بيني وبين السماء والناس الذين أحب، حجابًا سميكًا.

أصرخ بكل ما أملك من ألم الجريح، بلا أمل كبير في أن يسمعني الله أو
شخص ما: مريمتهك أنا يا الله، فلماذا تخلّيت عني؟

أشعرُ بوهنٍ كلي، ولم أعد قادرة لا على الحياة ولا على الموت، ولا حتى
على الوقوف بينهما.

أكتبُ فقط، وأعاود الكتابة، لكي لا أموت اختناقًا بالجنون والجهود.

أعود لي باحثة عني، لا أجدني كما عرفتنني.

لا خيار لي سوى أن أكتب.

أن أكتب لا غير.

(٢)

أنا مي؛

ماري إلياس زيادة، ولدت في ١٨٨٦، من خلطة دينية ومكانية غربية، أم فلسطينية أرثوذكسية، نزهة معمر، من مرتفعات الجليل الساحرة وقناديلها العاشقة، وأب ماروني لبناني، إلياس زخور زيادة، من ضيعة شحتول، التي تزداد كل يوم ارتفاعاً لتقترب أكثر من سماء الله.

عمري اللحظة، تحطى عتبة الخمسين سنة بقليل، ٥٦ سنة، لا شهادة لي وأنا أكتب هذه اليوميات، إلا صرختي التي لن يسمعها أحدٌ غيري إلا شاءت صدف الأقدار شيئاً آخر، أو ربّما سمعها عابراً لا أعني له الشيء الكثير: لقد قتلتني أهلي، ومحو جسدي بترية دينية، هم من اختاروها لي، حمايتي لي من زمنٍ خطير، كان يرتسم في أفق داكن. طفولتي المعاندة سرقتها مني مدارس الزاهبات التي صلبت جسدي حتى حولته إلى حجرٍ أصم، يابس، بلا تربة، ولا رمل، ولا ماء، على الرغم من الغوايات والطراوات التي كانت تحيط بجسدي كنت أكتشفه في كل التفاتة، أو على مرايا الحُمام مرتسماً كالغيمة الشّبية التي لا أملك القدرة على وضع حدود لها، ولا أن ألمسها أو يلمسها غيري، في كل مراحل حياتي، حتى بدء الفجيرة التي رمتني عند بوابات العصفورية.

استلمتني من يدي أمي، مدرسة اليوسفيات في الناصرة، مدينتي المعشوقة التي كتبوا صرختها، حتى عامي السادس. هذه المدرسة منحني



القدرة على تحصين النفس من الخطايا، على الأقل هذا ما بدا لأمي، ثم اقتادني والذي إلى داخلية مدرسة راهبات الزيارة، في عينطورة، في مرتفعات الجبل، بيروت، حيث العزلة الكلية، والموت الصامت لكل ذرة حية في الجسد. في كل ليلة، كنتُ أرى وجهي، وشفتي، وأتمسّس نهديّ المتفتحين، ونهود صديقاتي النافرة، وهي تهتزّ بغواية وشهوة، باستدارات متقنة كأنها خرجت من بين يدي فنان، وهن يرتدين ألبسة النوم، وكأنّ هذه الأجساد ولدت، لا لتكون مشرقة ومانحة للحياة، ولكن لتحمي ويحلّ محلّها ضبابٌ أسود، ولا وظيفة لها سوى التخفي، الحرص عليها من أمة لمسة ذكورية، فتشيخ في النهاية مثل أشجار الأرصفة اليابسة، دون أن تستنشق أيّ عطرٍ خارج الجو المؤكسد الذي تعودتُ عليه. كنتُ أريد لهذا النهد أن يكبر بسرعة، وينام في كفٍّ غير كفيّ.

سنةً واحدةً مرّت ثقيلة في عينطورة، كانت كافيةً لأنّ تجعلني أخافُ من جسدي وليس عليه؛ كما علمونا. سنةً واحدةً سَطّرت كلّ الحواجز الممكنة، وفصلت نهائيًا بيني وبين طفولتي.

أنا الآن ميّ؛

ميّ كما أنا، ولست شبيهتها التي عشت بها زمنًا طويلًا.

انتهى في ثانية كلّ ما حلمتُ به كعاشقةٍ مراهقة، كلّما رأت شمسًا تُشرق، ظنّت أنّها لها وحدها، تفتح ذراعيها عن آخرهما وتستقبل فرح

الأشعة ورذاذ الصباحات الربيعية. منذ أكثر من مائة ساعة، وأنا بدون أكل ولا شرب، لدرجة أن نسيَ بطني شيئاً اسمه الجوع والشبع؟ كل ما يأتونني به، أرفضه، أرميه بعيداً لكي لا أصاب بالغثيان، أو أتركه على حاله حتى تأتي العاملة، الخالة مادلين، وتأخذه وهي تتمتم:

- حرام عليك يا ابنتي، هذا انتحارا

- ما عليك يا خالة مادلين، ربما كان هذا أهون من مذلة الجنون.

- لكنك تتحررين يا ابنتي، والرب لا يسعده ذلك.

- يا خالة، وين نحنا وين الرب؟ منسيون في هذا الظلام الفادح.

بالكاد أردت عليها، وهي عند عتبة الباب، تدفع بعربة الأكل للخارج، ثم تغيب كما الظل في صمت.

فعل الأطباء والمرضى والمرضات المستحيل معي، ليرجعوني إلى رشدي؛ كما قالوا. بعدها التجثوا إلى وسائلهم القاسية والعنيفة التي تحترق حرمة جروح الجسد الخفية والظاهرة، بدون حق. أنا لم أكن مجنونة، كنت مصابة فقط بآلام فقدان التي لا دواء لها سوى الإنصات لها بهدوء ومحاولة لمسها كما نلمس الضوء، من أجل احتضانها.

¹ اعتماداً على جوازها، فقد دخلت ماري إلياس زيادة (م)، إلى بيروت، في 4 مارس 1936، ومكثت عند عائلة ابن عمها الدكتور جوزيف زيادة حتى 16 مايو من نفس السنة، قبل أن يُزجَّ بها في ظلام مستشفى المجانين، ببيروت، العصفورية.

أنا مي؛

اختصاراً لماري، أوقع باسم إيزيس كوبيا بالإفريقية، غير أنه لا هذا اسمي، ولا ذلك، إني وحيدة والدي، وإن تعددت ألقابي، أكتب لأني لا أعرف مهنة أخرى أتقنها وأكبر بها وفيها.

قلبي ممتلى رماًداً.

هويتي ممزقة لكنها حية، كل ليلة الملمها، وأرقعها، فيأتي صباحاً من يفرقتها بكلمة واحدة، بحركة، بنظرة، ويسحب كل خيوطها ويحوّلها إلى كومة، في فوضى بلا شكل ولا هوية.

بحجة التغذية وباسم الحياة، ألقاني أولئك الأقارب في دار المجانين، احتضر على مهل وأموت شيئاً فشيئاً كحشرة، لست أدري إذا ما كان الموت السريع هيئاً؟ أما الموت البطيء طوال أسبوع من التغذية القهرية، تارة من الفم بتقطيع لحمة الأسنان وطوراً من الأنف بواسطة النربيج، ليصب ما يصب من الداخل نزولاً إلى الحلق فالصدر، فذلك موت لا أظن أن إنساناً يحتمل الإصغاء برياطة جاش إلى وصفه. ومع ذلك؛ كان بعض أقاربي في زيارتهم النادرة لي، يستمعون إليّ بسرور وأنا أصف نكالي وشقائي، راجياً منهم عبثاً أن يرحموني، ويخرجوني من العصفورية. مللت من جملتهم المكرورة، هي نفسها جملة جوزيف يوم زج بي إلى العصفورية.

- كلّه من أجل مصلحتك، إن شاء الله، لما تخرجين من هنا، ستعرفين كم أفدناك.

Chawkat SVP. -

Chawkat¹⁰. Pardon -

تعبت جداً يا سيّدة شوكي.

لا أدري إذا صدرت مني كلمة Choquer عمدًا، لكنني لم أندم على قولها أبدًا.

متعبة أنا مثل غيمة جافة، ماذا أفعل؟

وزني منذ البارحة أصبح ٢٨ كيلو، هذا ما قاله الطبيب وهو يحاول أن يثبني عن جنوني، لكنني لست مجنونة أبدًا يا سيّدي، من قال هذا عنّي هو المجنون؟ حتّى لو كانت هذه الكلمات، من كثرة تكراري لها، أصبحت لا تعني شيء الكثير، بما في ذلك للطّاقم الطّبي الذي يصبح ويمسي عليّ. صرخت حتّى دُخت، الألام كانت حادة بالخصوص الإطعام من الأنف، كدت أسحب النربيج لولا أن سبقتني إليه مدام شوكي، وجمّدت يدي على صدري، وحركتي. من شدّة الصّراخ، لم أنتبه للالم إلّا عندما مسّت إرّة الحقنة العظم.

لا أدري إذا نمت أو دخت، لكنني انطفأت تحت وطأة العنف الممارس ضديّ.

¹⁰ - ممتاز، الأنسة مي استلمت الخير!

- متعبة جدًا يا سيّدة شوكي.

- شوكت، من فضلك.

- عفوا، شوكت.

طلبي الأخير لما أفقت، لم يكن خارقاً، فقط شوية أوراق، وقلم رصاص. منعت منها. كتبت في البداية على باكيت سجائر. فتحتة كلياً وبدأت أدون حزني على بياضه، بخط ناعم كأنها آثار سرب من النمل، ربحاً للمساحات. القلم الصغير سرقته من الممرضة مدام شوكي، التي مرّت لتقنعي بضرورة الأكل، فحياتي في خطر. قلت لها بلا تردّد:

- لا خطر مطلقاً، فأنا أصلاً أريد أن أموت، هل هناك مانع؟

ضحكت، لأول مرّة تفعل ذلك.

- وتقولين إنك مش مجنونة؟

- أنتم اللي عم بتجننوني.

- مش مهم، لكن إذا بدك نموت، موتي، بس خارج حيطان العصفورية، لن تحزن البشرية عليك، ولن يتغير العالم بعد موتك، سيستمر عادياً وكأن شيئاً لم يكن. يا آنسة مَيّ، استردي حقلك أولاً، ثم موتي بعدها إذا شئت، لو كنتِ مكانكِ لفعلت هذا بلا تفكير مطلقاً، لأنّ الانتحار ليس حلاً، حل الذين لا مَخ لهم.

- أنا منهم، لا مَخ لي. أصلاً شوراح أعمل ببيك مَخ في عالم مصطول؟

انفجرت مدام شوكي ضحكاً كالملحة على النار، لم أتمالك نفسي، فضحكت، منذ زمنٍ طويل لم أضحك. ضحكنا معاً، فاهتز صدرها المثقل

بنهدي فيل إفريقي. الغريب أن جملتها أصابتنني: استقرتني حنك أولاً، ثم موتي إذا شئت.

كأنها نبهتني فجأة لشيء لم أكن متفطنة له، مع أنني لم أكن مستسلمة.

جددت طلب الأوراق والقلم، فجاءتني ممرضة أخرى، أراها لأول مرة، كانت لطيفة جداً، سوزان أو سوزي، الجميع هنا، ينادونها بلوهارت^{١١}. كانت أكثر نعومة من كل من رأيتهم في العصفورية، جاءتني بقلمي رصاص صغيرين ومبرة، وبعض الأوراق، وممحاة جزء منها أزرق والجزء الثاني أحمر، باهت.

- لا أدري ما سيقوله الطبيب عن فعلي، لأنني لم أطلب إذن أحد. من حق كاتبة كبيرة أن تكتب ألمها على الأقل؟

أصبت بدهشة، أول ممرضة تتحدث معي بوصفي كاتبة.

- ياريت كان الناس كلهم مثلك.

- أنا أريدك أن تستمرري في الحياة يا آنسة مي، قرأتك كثيراً، وأحبك بقوة عن بعد، أدرك بداخلي أنك لست كما يصفونك، لا يمكن لامرأة بعقلك ومحبتك أن تكون كما يقولون عنها، لكن في العصفورية أشياء شديدة الغرابة تحدث من حين لآخر. قبل أسابيع رموا عندنا برجلٍ سياسي كبير، شاب مليء بالحياة، قالوا عنه إنه مجنون، ومصاب بعقدة جنسية

^{١١} القلب الأزرق.

متأصلة فيه قاده إلى الجنون، لم يكن كذلك. منذ يومين غيروا له الجناح، لم يتوقف أبدًا عن الصراخ ليلاً. قبل يومين وجدوه مشنوقًا على جبل، علّقه في حديد الكوة العالية، من وفر له الحبل؟ من قاده نحو حجرة فيها قوّة ومسامير خشنة عالية؟ لا أدري كيف صعد حتى الكوة؟ كيف ربط الحبل؟ الذين عرفوه يقولون إنّه من رافضي الحماية الفرنسية، وهو من منظمي ثوار الأرز. أخذوه ليلاً، تحت حراسة عسكرية، واعتقد أنّه دفن ليلاً أيضًا. الظاهر أنّ كلّ من يزعجهم، يصبح مجنونًا.

- لا أدري من أين خرجت لي، ولا من أين جئت لي؟ لكن كلامك مريح جدًا، وخطير أيضًا.

- في خدمتك يا آنسة مي. كنت دائمًا أتمنى أن أراك وأكلمك، وها حلمي قد تحقّق.

لأول مرة أشعر أنّ في هذه القلعة البيروتية الممتدة والعالية، والمنفصلة عن الحياة، إنسانًا محبًا، يفكر في قليل من الخير. عندما ضحكت مدام شوكي، شعرت أيضًا بشيء قريب من هذا، لكن ليس بهذه القوّة، مدام شوكي تبقى هي هي بعنفها عندما تكون برفقة الطيّيب، تستيقظ فيها رغبة السّلطة والقوّة وكأنتها صاحبة الشأن كلّه في العصفورية.

هم يريدونني أن آكل، فيؤكّلونني بالقوّة، وأنا أريد أن يعاملوني فقط معاملة تليق بامرأة طييعية، بكاتبة منحت روحها وحياتها لكلّ ما هو جميل في هذه الدنيا، دون أن تطلب مقابلًا. أتساءل أحيانًا لماذا كلّ هذا؟ إذا كانت لديهم أحقاد ضديّ لأنني امرأة شرقية غادرت نهائيًا شرنقي اليقين



والاستسلام، فليخجلوا ويعاملوني بصفة والدي إلياس زيادة، فهو صحفي كبير، وسياسي محنك، ورجل مهني من الطراز العالي، كان يضع دومًا لبنان في مقدمة اهتماماته. في كل كتاباته ومغامراته النضالية والتعليمية والصحفية، كان الوطن العربي رهانه الأساسي.

لا أحد سمع نداءاتي الخفية والمعلنة، لا أحد كلّف نفسه سماعي.

كلّ وسائل ورسائلي، ارتطمت بأسوار العصفورية الثقيلة، لا أملك سلاحًا غير هذا، كلّ المحيط ضديّ؛ حتّى الأشجار والنباتات الصغيرة وحشرات الناموس والبعوض التي حوّلت جسدي الهش إلى ساحتها المباحة، وملائته ثقوبًا كما الغربال. لا أملك وسيلة للاستمرار إلّا أن أصرخ يأسًا، أو أغمض عينيّ، وأرمي بنفسي في عمق الدّوامة التي لا بداية لها ولا نهاية، دوار من الخوف الملون.

يمكنني أن أقيم ولو مؤقتًا في مساحة لا يملكها كلّ الناس، أرضيّ؛ وطن الكتابة. لعلّ معرفتي تسع لغات، ستجعل هذا الوطن أكثر اتساعًا، يفيض قليلًا عن حدود وطنيتي، يجعلني أنظر إلى هذا العالم كلّه كأنه وطني الأكبر.

تغيب بلوهارت طويلًا، فأستعيد كلّ تفاصيل وجهها الطفوليّ، وملاعها الملائكية، ولكنة لسانها الناعمة. تتابني بعض الشكوك في أن تكون مستعملة من طرفهم لكسر إضرابي. أتساءل، ثم أحاول أن لا أغرق



في هذا الافتراض الأسود، أنا في حاجة ماسة لشيءٍ آخر، قريب من الخير، حتى أتمكن من العيش هنا، داخل سطوة الخوف من كل شيء، حتى من نفسي.

أنا أمل الحائط الأبيض والسقف الأبيض، الذي كان كل يوم، ينزل قليلاً لدرجة أن يخيفني ويخنقني.

كيف حدث هذا كله يا الله؟ وبشكلٍ سريع وفجائي وقاتل! وبتواطؤ كل من عرفتهم، وبصمتهم.

منكسرة أنا؛ حتى القلب والروح، لا أصدق ما يحدث لي.

(٣)

أنا مي؛

أشهد أنني لم أكن سهلة، ولست سهلة، ولن أكون سهلة حتى الموت.

امرأة من حيرة وانتظار لا أعرف مؤداه، وخوف من مبهم يسطره
الآخرون لي.

صممتُ أن أقول كل شيء. إلى الجحيم، كل ما يعيق البركان الذي في
صدري.

لا أعلم إذا ما كانت صراحتي سترضي أهلي وأقاربي، ولكن شيئاً في، في
أعماقي، يجبرني على هذا الامتحان الصعب والمحنة الثقيلة قبل أن أجز
حقيقة، لا بسبب الاكتاب، ولكن بسبب الظلم وما ألصق بي.

... كل شيء بدأ عندما أخرجوني من بيتي قبل الساعة الرابعة بعد الظهر
وأوصلوني إلى مكاني في القطار وغابوا عني، فبقيت جالسة حتى عاد ابن
عمي، الدكتور جوزيف والرجلان الآخران، وعندئذ قام القطار، إذ نحن
في منتصف الساعة السادسة...

الأسبوع الأول انتهى هادئاً، على الرّغم من غلياني الداخلي الذي كثيراً ما كان يتتأني: كيف جعلني أوقع له على التوكيل الذي يسمح له بتسيير كلّ ممتلكاتي؟ أين كنتُ؟ أيُّ دوارٍ أصابني؟ مراهقتي الأولى التي جعلت حياتي كلّها محصورة في ابتسامة جوزي، في فرحه وغضبه، وفي كلماته التي ينتقيها بدقّة من قواميسه الفرنسية الثقيلة، التي تهرّني من الأعماق، أهو الحبُّ الأعمى الذي سكنني بقوة؟ أم الحاجة الماسّة إلى حائطٍ أتكى عليه، بعدما سقطت كلّ حيطاني، ووجدتني عارية من كلّ شيء؟ مجرد قطعة لحم مرمية في نقطة ماء، غير مرئية، من الكرة الأرضية.

كنت بين أهلي حيث كلّ شيء يبدو مثل صفحة ماء ملساء، لا ندوب عليها ولا عواصف ولا أمواج، فجأة؛ شيءٌ قويّ قذف بي بعيداً في فراغات الكون حيث تفقد الأشياء أشكالها وجاذبيتها، كلما مدت يدي صوبها، عادت بفراغ لا لون له إلا لون خيبي وبأسي.

كلّما التفتُّ نحو جوزيف، نظر إلى البياض الذي أمامه، أو خلفه، لا يتكلّم، ثم ينسحب نحو غرفة نومه. كنت أجد له كلّ أعذار الدنيا، وأقول في خاطري: ربّما فرضني حبيبي على أهله لأنه يريد إنقاذي من شيءٍ خطير كان يتهدّدني ولم أكن أعرفه، باستثناء كأبتي؟

شيءٌ ما يتأكل كالبركان قبل أن تندفع حممه بلا توقّف.

قفزت أمامه بعد انتهائه من الغذاء، ذكرته بوعده، وقلت له إنني أرغب في الرجوع إلى بيتي، في القاهرة. شكرًا على كل شيء، منحتني بعض الراحة، أنا الآن بخير، ولا أحتاج إلى أي شيء، ولا حتى إلى أسبوع في بيروت، شبت منها من بعيد، بعض الأرواح تسحبنا بالقوة إمانحو عن المكان، أو ترمينا خارجه.

وأنا أخلق في الفراغ المظلم، فقد شممت شيئًا غير مريح أبدًا، حاولت أن أقنع نفسي بغير ذلك، لكن بلا جدوى.

أواجهه مخافة أن أغضبه:

- جوزيف حبيبي، يكثر خيرك وخير عائلتك، منذ شهرين وأنا هنا، بدّي أعود لمصر، تركت أعمالي كلها معلقة هناك، عندي سفرة ضرورية إلى لندن، لو ما أسافر راح أتعب يا جوزي.

نظر إلى وجهي طويلًا كأنه يريد أن يعرف ما يتخفى من وراء ملامي المتعبة والمثقلة بالغموض، طيب خاطرني كعادته ببعض كلمات، يُتقن إدخالها إلى قلبي، فيشّلني كليًا، ربما لأن قلبي ما يزال ملتصقًا به:

- لا يا روحي، لأهلك حقّ فيك، مو معقول تروحي بيهك سرعة، ونحنا ما شبعنا منك، أصلًا ما شفناك.

- متعبة حبيبي جوزي، أنت تروح لعملك مع مرضاك، وأنا أنتظر هنا طوال اليوم بلا أي شيء، كل شيء مغلق من حولي، لا حق لي في الخروج!

أدرك أنك تخاف عليّ منّي، لكنني أفضل، حتى كآبتي زالت، أسفاري القادمة ستقلل من ثقلها.

- أفهمك جيدًا يا مّي، لكن مش ممكن ترجعي إلى القاهرة وأنتِ على هذه الحال من التعب! لا، لن تعودني إلا عندما أتأكد من أن حبيبتني بكلّ الصّحة والخير. هل نسييتِ وصية عمي إلياس الله يرحمه؟ بنت عمك في رتبة أختك وأكثر، ضعها في قلبك وعينيك، وما أنا ذا أفعل. فشلنا في الزواج لأسباب صعبة، وأخ لم يكن متفهمًا دائمًا، فلا نخسر إختوتنا.

- لن نخسر شيئًا حبيبي، الحرية ليست خسارة بأيّ حال من الأحوال.

كدتُ أصرخ مثل المهزوم قبل انتحاره بقليل، لكن صوتي لم يسعفني.

- فشلنا في الزواج نعم فشلنا فيه. لم يكن أخوك نعوم هو السبب ولا أهلك، ولا حتى أهلي الذين ظلّ والدي مرتبطًا بهم بقوة، ولكنك أنت، أنت وحدك حبيبي، ولا أحد غيرك. قررت ونفذت في غيابي، وركضت نحو ما اشتييت، بعنتني أمام امرأة أخرى، لم تكن لا أجمل ولا أبهى سوى أنها كانت فرنسية. لا ألومك في خياراتك، من الأفضل أن أصمت لأنّ لساني، عندما يصل إلى درجة من الألم، لا يتوقف ولا يرى شيئًا آخر سوى جرحه، المهم حبيبي ساعدني على العودة إلى مصر.

أبقاني عنده شهرين ونصف، على مضض منّي، وأنا أطلبه بالعودة يوميًا، لدرجة كنت أبدو لنفسي، أحيانًا، بلهاء. في كلّ ليلة كان يسألني عن

حكاية المكتبة التي كنت أنوي منحها لدار الكتب المصرية؟ والنسخ المكررة إلى إحدى المكتبات في لبنان. بصمت بعدها طويلاً، ثم يعاود، يلخ عن حساباتي في بنوك أخرى غير المصرية واللبنانية المعروفة، والسويسرية والإيطالية. وهل حدثني والذي عن أراضي امتلكها غير تلك المعروفة من العائلة، اشتراها في مصر أو فلسطين أو سوريا مثلاً؟ كنت أجيب بعنفية وصلت إلى درجة البلادة.

حينما استكمل برنامجي في أمري، أرسلني إلى "العصفورية". في لحظة يأس، عندما عرفت كل ما كان يركض وراءه، نظرت إلى وجهه طويلاً لدرجة أن أحنى رأسه، وبصقت على الأرض كي لا أندم أبداً، كنت قادرة على قتله لو تمكنت من ذلك، ولن يكون ذلك إلا دفاعاً عن النفس، لكنني لم أستطع؛ قلبي منعني وليس عقلي.

أدركت بسرعة أنهم كانوا يريدون التخلص مني بعد أن نزعوا مني البذرة الأخيرة من حبه.

أصبحتُ حذرة في كل شيء، وكلما تفاديت أكلة أو شراباً، كتمت العائلة ضحكها بصعوبة لأنني كنت أبدو لها غريبة، بل أكثر من ذلك، لم أكن في عيونهم أكثر من امرأة مصروعة، وغير طبيعية، مجنونة. مع الوقت بدأت أشك في نواياهم، لا أأكل إلا مما يأكلون، أنتظر حتى يشرعوا في الطعام، ولا أشرب إلا مما يشربون، بل كنت أراقبهم وهم في المطعم، وأنظر سريعاً لكل ما كانوا يهينونه، كنت الحجاز الوحيد في الاستيلاء على الميراث العائلي.

أخي مات في وقت مبكر، لا حق له في الميراث، الوحيدة التي تثقل على أطعاهم هي مي؛ أنا المتعودّة على الحماية والرّجال من حولي، طالبت جوزيف بحماية قاتلة، كان يعرف جيّدًا كم كنتُ مرهقةً وكم كنتُ في حاجة ماسّة إليه.

يااااه، كم كنتُ غبية؟

عائلتي الحقيقية انتهت بموت أمي، بعدها الفراغ المظلم، حتّى الذين كنتُ أحبهم، ذهبوا ولم يتركوا وراءهم إلاّ علامات صغيرة تضيء كهوف القلب، فجأة تحوّل العالم الذي كنت فيه إلى أدغال أمازونية بلا حدود، لا شيء فيها سوى الظلام والحيوانات المفترسة.

كنتُ امرأةً بلا متكا أسند جسمي المُتعب عليه بثقة.

الآن أمنح ظهري للفراغ وأستمع لتكسر كل شيء ظننته حقيقة، أغمس عيني في سوادٍ مريح قليلًا، وأتركني أهوي مثل ذرّة في الفراغ. أنام قليلًا، وأرى كثيرًا، ربّما كانت تلك أولى علامات الجنون.

(٤)

أشعلت سيجارتي السابعة، متخطية عتبة الحق الذي افترضته كحد فاصل بين المسموح والمؤذي، استمتعت قليلاً بدوائر الدخان وهي تتداخل وتنتهي في بعضها البعض. على الرغم من أنني توقفت عن التدخين منذ وفاة أمي، إلا أنني سرعان ما عدت بشراهة أكثر، بلا نظام، قبل أن يخيفني الطبيب بسعاله الذي كثيراً ما كان جافاً ويوجع صدري.

- إذا واصلت على هذه الوتيرة ستدمرين رئتيك.

- أعرف، لكنني لست محترفة.

- تعرفين ما معنى تدمير الرئة؟

بعدها حاولت أن أخلق نظاماً مقبولاً، وصلت من خلاله إلى خمس سجائر، وها أنا ذي أنخطأه إلى السبعة.

تخيلت كل شيء إلا هذا.

عندما التفتُ صوب المرأة، في لحظاتِ السكينة والخلوة، عاتبته نفسي بعنف شديد، ماذا كان يحدث لولا تلك الرسالة الملعونة؟ قلبي خدعني عندما رأى في جوزيف أفضل شخص في العائلة، قادر على حمايتي. كان متحمساً وجميلاً ويريد أن ينقذني من أوضاع كانت كل يوم تزداد سوءاً، حتى سفرتي بعد وفاة أمي الحبيبة، لم تكن كافية لرتق جراحاتٍ متتالية وعنيفة، كآبتي التي كانت قبلة موقوتة بدأ دخانها يصعد عاليًا معلناً عن انفجارٍ محتمل في أية لحظة، كنت أشم رائحتها في البيت كله، ولم أكن قادرة على تفاديها.

قال لي جوزيف وهو في كامل تأثره، إن وضعي يحتاج إلى اهتمام حقيقي واستراحة بين الأهل، لا يوجد أئمن من الأهل في ظروف الوحدة والمرء. تغيير الهواء في لبنان أكثر من ضرورة، والمكوث لمدة أسبوع هناك سيفيدني ويقلل من قلقي الدائم.

- حبيبي، لازم ولو أسبوع، أنا أيضاً ما عاد شيء يشدني إلى باريس، أي شيء، بعد وفاة زوجتي.



- الله يرحمها، كانت سيّدة طيّبة، آسفة، ربما نغصت عليها حياتها الهادئة.

- انتهى كل شيء، ما يزال في الحياة متسع.

- ألوم نفسي كثيرًا، كل حقدي عليك صرفته نحوها مع أنّها لم تفعل شيئًا ضدي. ربّما حادثة الرسالة كسرت الكثير من حبهالي وحبّي لها. أعفد أصبحت تكرهك بعدها، متأكدة من ذلك، كنت دائنًا أصرخ في أعماقي كلما أحسست بكما معًا في لحظة حميمة: ألا اتركوني لحالي، أبعدوا عني، ولو حينًا، أصوات البشر التي تتبطن الحسد والحقد والغل.

- أنا أيضًا لم أكن حذرًا، لا توجد امرأة طبيعية في هذه الدنيا تقبل بزواج يتراسل مع حبيبته الأولى، هي تعرف جيدًا أنّ الحب الأول قاسٍ ولا يمكن تخطيه بسهولة.

- قصّة وانتهت.

- من قال إنّها انتهت؟ هل أنتِ مؤمنة بذلك؟

- بعقلي نعم، بعقلي صعبٌ عليّ.

- امامنا كل الحياة، الآن يجب أن ترتاحي، أن نسافر معاً إلى بيروت.

آمنت به وبجمله الهادئة، المليئة حناناً وحباً، فقد كنت في حاجة إلى أية كذبة تمنحني فرصة للاتصاق به، بالحياة. أنا من اخترت هذا الطريق، ولم يدفعني نحوه أحد.

تمتت وأنا أحضنه بكل قواي:

- جوزي حبيبي، خائفة.

- بمن؟

- لا أدري؟!

- تخافين من العودة إلى بيتك وأهلك؟

- لا أعرف حبيبي، خائفة فقط.

ما تزال على شفتي تلك القبلة الفرنسية الطويلة التي تشبه قُبَل الأفلام،
لكنها منحنتني السكينة والهدوء.

أول ما وصلتُ في نهاية الأسبوع الأول أحضروا لي طبيبَ الأمراض العصبية، وهو مدير العصفورية، البروفيسور، بشكل متتكر طبعًا، وقالوا: مستشرق إنجليزي. البروفيسور مارتين، يبحث في المؤثرات الإنجليزية على الشعر العربي في بلاد الشام ومصر، يمكنك التحدث معه في كلِّ الموضوعات الثقافية التي تشغلك، بكلِّ حرية. كان البروفيسور مارتين رجلًا أنيقًا ومثقفًا بامتياز، موسوعة حقيقية في الشعر الإنجليزي، لكن معرفته بالشعر العربي ونظمه، وطرائقه، كانت تنقصها الدقة. ارتحت لمارتن مما أبعثني قليلًا عن نوبات الكتابة التي كانت تنتابني من حين لآخر، وظلُّ يكرّر الزيارات، حدّثني آخر مرّة، عن الشعر الأنجلوساكسوني، وعن أجمل النصوص التي تستحق الترجمة، ذكر لي عناوين كثيرة، فكّرتُ جدًّا في ترجمتها إلى العربية فور استراحتي وعودتي إلى بيتي في القاهرة.

اللعبَةُ لم تدم طويلاً. لم يكن يوماً أحدٌ بالبيت، رنَّ الهاتف مباشرة بعد مغادرة البروفيسور مارتين البيت، سألتني المرأة التي كانت وراء المقسم:

- هل البروفيسور جورج ما يزال ببيت الدكتور يوسف؟

- الدكتور جورج! قصدك مستر ميلر، المكلف بمتابعة الحالة الصحية لابنة الدكتور جوزيف.

لا أدري من أين جاءتني تلك النباهة الغريبة:

- أنا سميرة، ابنة الدكتور جوزيف، تعلّمت منه الكثير، عن الشعر الإنجليزي، استهواني بشكل أتي تمنيت لو يزورنا يومياً، لأنّ المجنونة تأخذ كلّ وقته.

- هناك بعض الطلبة الذين يعملون على الأدب الإنجليزي يستشيرونه كثيراً، على كلّ هو غادر قبل قليل، يزور جوزيف عادة للاطمئنان على المريضة، وتشخيص حالتها بدقة.

- قصدك المجنونة؟!

- لا، هي حالة تحتاج إلى تشخيص.

عندما عاد الدكتور جوزيف، بدأت أدور من حوله لا أدري كيف كنت أفكر وقتها، في حالة جنونٍ حقيقية. فجأة، كأنّ قوّة مثل الموجة العاصفة،

رمتني على سكينه الخبز، وحاولت أن أغرسها في رقبته، لكن الرأس
الدائري للسكينه منحه حياة أخرى، إذ تمكن من لوي يدي وراء ظهري،
وأنا أصرخ بأعلى صوتي، لكنني تمكننت من سماع صوت الجيران وهم
يتشكون:

- إذا ما قدرتوا تخرسوا هاي المجنونة، سنطلب الإسعافات لأخذها
للعصفورية.

وجعني قلبي.

بصقتُ، ضربت رأسي على الجدار حتى أدميته.

كنتُ مكتفة وأصرخ، حتى انتابني دوار نمتُ على أثره، أو على الحفنة
التي وضعوها لي.

- ليش تعمل فيني هيك يا جوزي؟ حرام عليك، شو عملت لك؟
الدكتور ميلر أو جورج؟!

أضربتُ عن الأكل، ليس فقط احتجاجًا على عدم السماح لي بالعودة إلى مصر، ولكن أيضًا خوفًا من أن يدسوا لي سُماً في الطعام، ورفضًا للفظائع التي كانت تُمارسُ ضدي في كل لحظة، حتى مصوغاتي الخفيفة التي جثت بها من القاهرة، سرقوها مني واتهموني بالجنون، وأن لا أحد في العائلة رأيَ ألبها. كل شيء قبلت به واستسلمت للقدر المحتوم إلا عقد أُمِّي، كان كل مبراثي منها، كلما رأيته أو لمستهُ شممت رائحتها، رأيت شبابها الحي وجمالها، وعلى تشريدي من بيتي، والحجر على مالي وحرثتي إذ لم يعد لي أي حق في الحياة، كنتُ عبارة عن كتلةٍ تتنفس بصعوبة، موجودة على هذه الأرض إلى أن تأتي ريحٌ عنيفة، فتكنسها كما كنست الذين من قبلها.

تكررت النوبات معي بشكل متواتر ومخيف، بدأت تتناوب الرغبة في الانتحار، بل إن أبواب جهنم كانت تفتح أمامي بسرعة كلما اشتعلت حرائقي في داخلي، وبدأت هشاشتي تتسع حتى تحولت إلى خطرٍ عليّ، بدأت أخاف من الموت الذي لم يكن يعني لي الشيء الكثير، حانطي الوحيد المتبقي جوزي، لا أدري كيف أدخلت ذلك كله في رأسي بلا أسئلة، ولولا خوفي مما تعلمته مع الراهبات اليوسفيات، وراهبات عينطورة، ورجبتي



المجنونة في فضح عائلتي التي قهرتني، كنتُ أنهيت علاقتي بالحياة وارتمت
نهائياً.

بعد وفاة أُمِّي، وقفت في لندن في وسط جسر الطاميز، فكرت طويلاً في
التسلق والرمي بنفسي في الفراغ، لكن لحظة الموت غرقاً أرعبتني، فواصلت
تدحرجي وأن أطلب من الله أن يمنحني بعض القوة لأستمر في الحياة
بدون أُمِّي.

ذات صباح، أشرقت شمسُه مبكراً، رأيتهَا من وراء زجاج النافذة التي
تفتح على باحة الدار. سمعت دقاً على الباب، طبعاً ليس من حقِّي أن أفتح
أي بابٍ أو نافذة تطلُّ على الحديقة، لا يحقُّ لي استقبال أيِّ شخص خارج
أفراد العائلة وأنسابي. خرج جوزيف وكان بلباسه الرسمي الأبيض؛
الطاقم الكحلي الذي اشتبهته دائماً عليه، وكأنه كان على موعد مع شخصٍ
مهم، فتح الباب. من عادات جوزيف أن يرتدي لباساً رياضياً عندما يكون
في البيت.

فتح الباب، دخل رجل يلبس الأبيض برفقة سيدة سميئة تلبس الأبيض أيضاً، أدركت بحاسة شمّي الحيوانية، أنهم جاؤوا من أجلي بعد أن اختصرت عليهم اللّعبة التي مارسوها ضدّي. وأنا أفتح النافذة قليلاً بشكل موارب، سمعت فقط كلمة جاهزين، وردّ الدكتور: نعم يا حكيم.. جاهزين.

- أين هي؟

- بالداخل، بغرفتها.

- أخشى أن تهرب من الجهة الثانية.

- نوافذ غرفتها مغلقة ومصفدة، بقطع حديدية سميكة.

- ممتاز، هل أقنعتها؟

- أنت تعرف يا دكتور، كيف يمكن إقناع مجنونة؟

لحظتها سقط يوسف درجةً ثانية، رأيتُه يتهاوى بعد أن تحوّل إلى غبار رمادي.

رأيتُ المشهد كاملاً، شممت من بعيد، كحيوانٍ متوحش، غاطره.
التفتُ بسرعة نحو محيطي، أنفخض أسلحتي المتوقرة، ركضتُ بسرعة في
كلّ الاتجاهات، حاولتُ أن أغلق الباب بكلّ قواي، كلّ المفاتيح في أمكتها
إلا غرفتي لا مفتاح فيها، فقد نُزع قفلها بالكامل، فأصبحتُ مساحة
مستباحة. سحبت الطاولة الكبيرة، والكرسي القديم، لا أدري كيف
منحني الرب تلك القوة الاستثنائية التي لم أعهد لها في نفسي، على حمله
ووضعه على الطاولة لأدعم به الباب من جديد، على الرغم من ثقله الكبير.
حتى النافذة المغلقة كانت مسدودة نهائياً بقطع الحديد وكانت كوة سجين
خطير، بعد أن نزع منها العامل الذي جاء به يوسف، مقبضها الحديدي. لا
حيلة لي إلا تدعيم الباب، وبدأتُ أصرخ بأعلى صوتي: أنقذووني يا
عالم، إثمهم يريدون قتلي. وكنت أعرف أنّ الجيران، وهم أبناء عمومة،
سيكررون نفس الكلام الذي سمعته منذ أن وضعت قدمي في هذا البيت:

- مو معقول! هالمجنونة ما بتنام وما تترك حدا ينام!؟

سمعت همس جوزيف من وراء الباب، بعد أن جرب عبثاً فتحه:

- مي، حبيبي، تعرفين أتي بحبك، وكلنا بها البيت نحبك، الطبيب يريد
فحصك لا أكثر، افتحي يا قلبي، نحنا ما نحب لك إلا الخير، يا الله يا
روحي، افتحي، الناس يضحكوا علينا.

صرخت بكل ما أملك من قوّة:

- أنت أكثر الكلّ إجرامًا من الكلّ، لأنك جررتني إلى هذا العفن.

- كلّه كان بطلب منك، نسيت الرسالة؟

- بس ما قلت لك اقتلني، والحجر والاستيلاء على كلّ ممتلكاتي؟ يا الله

كيف امتلكت هذه الجرأة لتدميري؟

- لحمايتك، النصابون في هذا الزمن كُثر يا روحي..

- اتركني أعود لبيتي في القاهرة أرجو ووووك، لن أطالبك بشيء.

- مشان هيك حضر الطبيب وعرضته لفحصك والاطمئنان عليك،

بعدها تروحي وبن ما بدك.



Tu n'es qu'un monstre, pire que les autres -

ثم اندفعوا كلهم بعد أن وحدوا كل قواهم، فدخلوا إلى الغرفة. سقط الكرسي، وسقطت الطاولة، لم أر إلا أرجلهم وهي تتحرك بسرعة، وأنفاسهم وهي تنقطع كما في فيلم رعب. كنت تحت الطاولة الصغيرة، في الزاوية، رأيت جوزيف، فجررتني من رجلي بيدين فولاذيتين، فقدنا كل نعومة. لم أصدق، على الرغم من علامات الموت التي ارتسمت في كل مكان رأيت في تلك اللحظة! أنقذني يا ربي مما أرى، هل هو نفس الكائن الذي احتضن وجهي وهو يوشوش في أذني: حبيبة قلبي أنا هنا، معك حتى آخر العمر. عندما أخذ حقيبة سفري المثقلة بالحقيبة والخوف والاستسلام له.

وهو يسحبني، دفعت بالطاولة نحو رأسه بكل عنف، فأذمت خده الأيسر وجهته. لو كنت قادرة على قتله، لما ترددت ثانية واحدة. انفلتت من ورحت وراء الخزانة الخشبية التي دفعتها بكل قواي لتسقط بكل ثقلها، كادت تقتل المعرضة البدينة لولا تدخل الطبيب الذي كان أكثر رشاقة، فسحبها قليلاً إلى الوراء. لو فقط كانت بيدي سكبنة لما ترددت في دهنها!

بطن كل من يقترب مني. مسح جوزيف دم وجهه، أصبحت فجأة عيناه
 حراوين كعيني قاتل يستعد للفعل. عندما رأى الدّم يسيل، زاد هياجه
 كثور جريح، حمل مزهرية، لا أدري كيف وقعت بين يديه، وهو يغلي: اليوم
 راح أقتلك يا مجنونة. منذ تلك اللحظة نسيت آتي موجودة، فقد امتدت كل
 الأيادي نحوي لتمزقني، في ثانية واحدة، أصبح جسدي مستباحاً،
 وأصبحتُ امرأة بين يدي قدر لم يكن لها عليه أي سلطان.

أصبتُ بدوار، عندما ضربني جوزيف على رأسي، وجرتني من شعري
 ورماني بين يدي الطيب والمرضة. الكل كان متشبتاً بجسدٍ منهك، لم يعد
 قادرًا حتى على الدفاع عن نفسه.

ثلاثة كانوا، ضدّ امرأة واحدة ووحيدة، كنت داخل فراغٍ شبيه بدوار
 الموت، هل التي كانت بين أيديهم الحديدية كانت هي مي، الكاتبة المعشوقة
 من عشرات الرجال، المرأة الأنيقة التي تختار كلماتها، وجمالها، وألبستها،
 ومكياجها؟ أم كائنا آخر، من كوكب غير معلوم؟ حقيقة شعرت كأثم
 ذئاب كانت تفترسني أمام الجميع ولا من يحرك يده.



ضاعت أنفاسي وشعرتُ بالاختناق عندما جثمت عليّ الممرضة ثقيلة الوزن، ذات الأنف المفلطح الذي يشبه أنف خنزير، والفمّ الواسع، كفم حيوانٍ أسطوري. ثم كتفني طيبب العصفورية كشاهٍ معدة للنحر، بمساعدة جوزيف، قبل أن ينهك في مسح الدم بسبب الفتحة التي تسبب فيها رأس الطاولة التي دفعت بها بعنف تجاهه. عندما سحبتني من شعري ورماني أرضاً، رأيت الحيوان الذي كان مخفياً فيه، انسحب نهائياً جوزيف الطيب والرشيقي، الذي كنت أعرف، وحلّ محله حيوانٌ خرافي. استسلمت للأرضية الباردة، شعرت بعدها كأنه كان يغتصبني. يخترق غشاوتي ولحمي وأنا أصرخ بأعلى ما أملك من قوّة. أتقدوووووني، يا ربي أرجوووروك لا تتخلّ عني. وكان من الصّعب عليّ تحمّل الألم في أسفل بطني. في النهاية استسلمت لهم بسبب الدوار الذي حوّل الأشكال البشرية الثلاثة إل هلامات متداخلة الألوان. شدّت الممرضة على كلّ جسيمي، ثم أدخلت ذراعِي في جاكيت المجانين، وشدّت الوثاق بقوّة على ظهري، لدرجة أنّي أصبحت مثل الزواحف، لستُ قادرة على فعل أيّ شيء. قبل أن تغرس في لحمي الحميّ، إبرة مورفين خشنة، كنتك التي تُعطى للحيوانات المهانجة. كان الألم قاسياً وعميقاً.

أقسى شيء يشعر به المرء هو أن يرى المدينة التي دافع عنها باستماتة، غير
مكترثة بما كان يحدث له، أو هي تُقاد إلى جحيم العصفورية تحت رحمة قتلة،
بالبسمة مدنية وطيبة، وطيب عيناه تشبهان عيني قطِ روسي. تمتتُ وأنا
أستجمع كل قواي بعد أن ثقل لساني:

- أرجوك يا جوزيف، توقّف عن هذا، ابعث لي حقيقتي الصغيرة، لا
يوجد فيها أي شيء ثمين سوى بعض الأوراق والرسائل، حتّى الحلي
الموجودة فيها أخذتموها، بس حقيقتي وأوراقي، مسامحة في كلّ شيء.

رأيتُ - أو تخيلت ذلك - وجهه وهو يتمايل، ورأسه وهو يهتز صعودًا
ونزولًا بثقل؛ أن نعم.

وأنا أستسلم لهم، مربوطة كليًا، في حالة دوار سرق منّي جسدي
وتفكيري، تقيّات وكدت أختنق.

شعرت فجأة بلا جدوى المقاومة، وبتفاهة البشر والعالم والثقافة التي
نملكها، شعور لم أحسّ به من قبل أبدًا، حتّى في أكثر الظروف يأسًا. أيّ
واحد فينا يمكن أن يُحوّل في ثانية واحدة إلى لا شيء، غبار، وهم، وهم

يجرّونني نحو سيارة الإسعاف المغلقة كصندوق حديدي حتّى لا يزعج
صراخي راحة البيروتين.

كنت أشعر بوحدة قاسية رهيبة، وأرى القدر المروع المعدّي دون أن
أدري لماذا، سوى الطمع والجشع!

هل حقيقة جاء جوزيف ليساعدني في مصيبتني؟ أم أنه هرع ليكشف
أعمالي ويقف على سرائر مصالحي وشؤوني فيستولي على كلّ شيء في حياتي؟
غبية أنا أن ظننت أنّ امرأة فوق أيّ شبهة، وأنّي أصبحت فوق الصغائراني
النهاية لست إلا امرأة صغيرة، سقط متاع أمام ذكورة متجبرة وقوانينها،
فيمّ نفعني ثقافتي في عمق عنف الطمع والكراهية؟ لا شيء. ماذا يعني أن
تكون مثقّفًا في مجتمع يشرب التخلف في كلّ ثانية، ويأكل نفسه بلا توقف؟

أغمضت عينيّ، ارتنخى جسدي، جمد لساني، كانت المورفين وحرائق
الحياة قد فعلت فعلها.

أصبحتُ لا شيء.

أقلّ من لا شيء.

(٥)

كنتُ وحيدة أمام الفراغ، بعد أن تحلّى الله عني وتركني أواجه مصيرًا صنعوه لي.

على مدار الأسبوع رفضت كل شيء، الأكل والشرب والحديث، صرخت كثيرًا حتى جفت حلقي قبل أن يفحصوني.

كنت أصرخ كالمجنونة وأتحمل عنفهم في إطعامي، أعيش مع أشباحي التي لا رحمة لديهم أقوم في منتصف الليل وأنا أتحسّس عنقي من شدة الاختناق، حربي كبيرة في كل ليلة مع المجنونات اللواتي يفتحن أفواههن وعيونهن عن آخرها لتخويفي أو ربّما كانت تلك حالتهم، أصرخ حتى وأنا نائمة حتى أقوم مذعورة، أتحسّس قفل الغرفة، والنوافذ، أشعر بالحرارة القاسية لكنني لا أتجرأ على فتح النوافذ التي تطلّ على الأشجار والحديقة الواسعة والأشجار الكثيفة التي تعبق برائحة الأرز.

جالسة على كرسي كسجينة في مخفر الشرطة.

كنتُ منهكة وضعيفة، ومقاومتي انهارت كليًا، لم أكن أنا، كنتُ شيئًا آخر إلا أنا.

ينقلونني من مكانٍ لمكانٍ برباط الجاكيت، مع أتهم لم يكونوا في حاجة إلى ذلك، أترجّاهم لكن بدون جدوى.

قالت المعرضة الخشنة، مدام شوكي، وهي تنظر إلى عيني، في يدها حقة

المورفين:

- الآن سننزل إلى مستر ميلر لفحصك ومعرفة وضعك، المفروض أن

تكوني عاقلة، ألم تطلبي هذا؟

- أنتم تكذبون علي، تريدون قتلي.

وبدأتُ أصرخ ولا أتحكّم في حركاتي حتّى أصاب بالدوار كما العادة،

بعد حقنة المورفين التي تجعلني كائنًا شبه ميت.

كنتُ منهكة جدًا ولم أكن قادرة على التفريق بين مَنْ يريد لي الخير ومن

يريد تدميري.

لا أدري إذا كان مفعول التخدير الثقيل هو السبب، أم القرص الذي

أجبرت على تناوله بعد أن فتحوا فمي بالقوة؟ عندما أدخلوني على الدكتور

ميلر في البناية الرئيسية، في العصفورية، كنتُ منهكة.

تلمس وجهي وصدري وتحت ذقني، بظاهر يده اليمني. هزّ رأسه.

Mmmm good -

رأسي ما يزال ثقيلًا، الدوار لم يتّهِ، لكنني شعرتُ ببعض الإنعاش وأنا

أشم رائحة خاصة، كانت كأنّها مزيج بين الكحول والزعفران وباسمين

النّاصرة المركز، الذي يُتقن صنعه سكان المدينة القديمة.

- حرّروها، تبدو مسالمة.

حررتي الممرضة من جاكيت القيد الذي وضعوني فيه لانتقاء شري،
فتحتُ عيني بتناقلٍ وصعوبة.

قال الطيب وهو يمدّني على سرير معدني:

- مفعول المورفين دكتور ميلر.

- نعم، افترض هذا، إذا أبدت أيّ عنف، مقاومة، أعيدوا لها الجاكيت.

كان صوت الدكتور ميلر مريحًا قليلًا، يتهاهى بهدوء مع العطر الذي
كنت أشمّه، يأتي من مكان ما. بدا لي وجهه أكثر أمانًا من الآخرين.

في البداية عندما أفقتُ أول مرّة وجدتني داخل غرفة مغلقة، بلا نوافذ،
ما عدا كوة صغيرة في الأعلى، تخرج - أو تدخل - منها، روائح غريبة، هي
خليط من الأدوية، والحشائش العفنة، والبول، أبوابها من حديد، تسمى
غرفة التحضير والاستقبال لقياس درجة الجنون، واختيار الجناح المناسب
له للفحص والإدخال، حتّى لا يوضع الجميع في مكانٍ واحد. كنتُ
مستسلمة لهم وكان عليّ أن أثبت خطأ تواجدي في هذا المكان، على الرّغم
من أنّي صرخت كثيرًا، ربّما سمعني من يرفع الظلم عني، لكن لا أحد. لم
أقبل بالجنون لأنّي لم أكن كذلك، أقصى الأحوال؛ هشاشة جسدية بسبب
الإضراب عن الأكل، انهيار عصبي جرّاء فقدان الحثية، وهذا بسيط ولا
يزعج أحدًا في المستشفى. أحد أطبائي - من الذين زرّتهم في القاهرة - قال



لي بك عندي حالة شذو و فرينا حادفة لكني لم آخذ كلامه بجديفة، فلما سئد
حركتي، وأعرف ماذا لربد و بجدت معي أن تزوج لكن لا لزواجية لي
كل هذا تذكرته وانا اصرخ بأهل جرحي: أنتم تخطون، لست بمنزلة
سائرون، لرجوكم الم بآلتي أحد طبعاً.

فالت للمرأة الكيرة:

- سرتك تحت عند الدكتور بيلر، هو سيد القرار.

- سهرت الحظيفة وبتكري مع حللي، أعود لي القاهرة.

- ليس بيده السهولة!

- الطيب الرئيسي الذي جاء بك من بيت أهلك، يقول إنك وصلتني

إلى درجة عليا من الجون، ولك سجنين هاتين إذا استمر الأمر معك على

هذا الحال، وإن مكثت الطيبي هو المصفوية.

قد أظهر لي الدكتور بيلر فهمه لما كنت أحتبه، فقد أجت من لك

الكثير، بنجاح كبير، كنت أترا لي منه نسلالات لم يكن قلعة على قوما

مراحة، لكني شعرت بالفعل أنه كان يصده اكتشاف خاطر اللعبة التي

مورست عندي.

سواء لم يكن بركاً

- صحتك طيبة، باستثناء تعبك العام، وهذا راجع لعدم الأكل بشكل

طبيعي.

- لا أكل لأن أهلي يريدون تسميمي.

- من أهلك؟

- أبناء عمومتي وأنسابي.

- لماذا يتهمونك بالجنون؟

- يا دكتور قد أبدو حقيقة مجنونة، يريدون الاستيلاء على ميراثي،
بممكنكم أن تبعثوا من يستقصي الحقيقة، الطمع يا دكتور، الطمع الكبير،
كان يمكن أن يقتلوني.

- هل وجدت شيئاً مسموماً في أكلك؟

- كنتُ حذرةً منهم فقط لأنني كنت أسمع محاولاتهم التخلص مني لأنني
كنتُ عائقاً.

- ابن عمك يقول أنتِ من طلبت منه المساعدة، وكل شيء تم برضاك!

- هل هذا وضع امرأة راضية بأن تزج في العصفورية؟

سمعتُ أصداً صوت البيانو تأتي من مكانٍ قريب، كان ناعماً، عرفت
أن المقطوعة لشوبان، عندها استرجعت تفكيري، فتحت عيني أكثر،

وبدأت أكتشف تفاصيل المكان. كتراس في شكل فوضوي، مكتب قديم، وطبيب يجلس قبالة سريري المعدني؛ ميلر، جورج المستشرق الوهمي، تأملني للحظات، عرفته منذ اللحظة الأولى من صوته أكثر من وجهه الذي نزع لحيته، ثم سألني على خلفية نقرات بيانو كانت تأتي من قاعة ما، لم تكن بعيدة:

- متشغلة بالبيانو أكثر من كلامي، تجيدين العزف على البيانو؟!

لا أدري إذا كان سؤال الدكتور ميلر عفويًا وبريئًا، أم كان يريد من ورائه شيئًا آخر؟

- شوبان، طبعًا يا دكتور أعزف، ميلر أو المستشرق جورج، كما تشاء، هو شيء مهم في حياتي، كنت أحبه حتى وأنا في عينطورة. لا بد أن يكون جوزيف قد حكا لك عن كل شيء، هو يعرفني بكل تفاصيلي حتى الحميمي منها، الصداقة بينكما تسمح له بذلك.

- هههه، مع آتي نزع لحيتي، عرفت آتي لست المستشرق المعجب بالشعر الأنجلوساكسوني؟ مع أن حبي للشعر حقيقي. طيب، هل تريدين شيئًا بعينه؟

- لماذا فعلت هذا يا دكتور؟

- كنت أريد أن أعرف حقيقة مرضك، أفعل هذا مع مرضاي، أنفهمك.

- وما خلاصتك؟

- لم أستقرّ بعد، تحتاجين فقط إلى حالة استشفاء في العصفورية لمعرفة وضعك عن قرب، ووضعك تحت الرقابة، هذا لا يعني أنك مجنونة، ولكن تحتاجين إلى عناية أكبر.

- طيب يا دكتور ميلر، فهمت، كيف تجدني الآن؟

- الآن، وضعك جيّد، لا مشكلة، أوضاعك متغيرة بحسب النفسية وهذا موجود عند الكثيرين، لا يعرفه حتّى المريض، لهذا إقامتك هنا ضرورية، تحتاجين إلى فحوصات كثيرة ضرورية.

- مفهوم دكتور.

- أين تعلّمت العزف على البيانو؟

- عند الأخوات اليوسفيات في الناصرة وعند أخوات عينطورة.

- وماذا تعلّمت؟

- عزف موزارت على البيانو، كانت تعجبنى سيمفونياته، ولكن ليس وحده، كارمن سيلفا أيضًا، وغيرها.

رأيتُ بعض الحيرة والإرباك على وجه الطيب، كأنّ إجاباتي لم تُرضه في النهاية. كان ينتظر منّي شيئًا آخر.

صمت قليلاً ثم سرعان ما عاد إلى سؤاله:

- هل تذكرين سبباً لوجودك هنا في العصفورية؟

- ولا أتي سبب، لكنك أعرف مني يا دكتور، ابن عمي جوزيف الذي

تعرفه هو السبب.

- الجيران تحدّثوا كثيراً عن نوباتك العنيفة، تظنين أنك غير مريضة وأن

وجودك هنا غير مبرر؟

- لا، مصابة بحالة اكتئاب منذ وفاة أمي، وهو ما يغيّر مزاجي ويدفعني

أحياناً إلى تمنّي الموت والعزلة.

لم يكن لديّ ما أقوله، كنتُ أشعر أنّ داخلي كلّه رماد، وبقايا صخور

بركانية محترقة، وحمم متيبسة. لم يحكّ كثيراً، لكن كانت لديه صورة عني،

صنعها له جوزيف - كما اشتهاها - للتخلّص مني، لكن كلامه أعاد لي

بعض الأمل في الحياة.

صمتُ طويلاً قبل أن أجيبه، بينما ظلّ ينتظر ردّة فعلي ويسجّل عني

الملاحظات:

- مجنونة بوهم اسمه الكتابة، صحيح أنه منذ وفاة أمي أصبْتُ بحالة

انهيار كبيرة، لكنني لم أكن في أيّ يومٍ من الأيام مجنونة تتعدّى على الناس



اشعر بأنّي مظلومة جدًّا، مشكلتي مع جوزيف ليست الجنون، ولكن مشكلة اعتداء على حقوق ليست له، لست مجنونة، مصابة بقرحة في القلب.

ضحك الدكتور بشيء من الخبث، ارتسم على ملامحه:

- على كلِّ، لم أستقبل في أيّ يوم من الأيام مريضًا نفسيًا ولم يقل لي إنه ليس مجنونًا، أنفهم موقفك، هناك قاعدة: بقدر ما يعترف الإنسان بمرضه، إمكانية شفائه تصبح سهلة وقرية. إضرابك عن الطعام، أليس انتحارًا وجنونًا؟ انتحار لا جدوى من ورائه.

- لا يا دكتور، أنا مجردة من أيّ سلاح، وأريد أن أرفع الظلم عن نفسي ما دام الكلّ تواطأ ضديّ، أنا مضربة عن الطّعام، فقط ليعرف أطباء هذا المكان أنّي مظلومة، ما أقوله صحيح. هل تراني الآن وأنا أمامك أنّي مجنونة؟ انهرت لفقدان أمي وأبي ومن أحبّ، ووجدتني وحيدة. الانهيار يمكن أن يُشفي.

- شرط الاقتناع والمداومة على الدواء، وإلا سيستفحل الأمر وتجدين نفسك في الضفّة الأخرى، وقتها يصبح من المستحيل شفاؤك.

نظر إلى عينيّ عميقًا كأنه كان يريد أن يتوغّل عميقًا فيهما:

- يمكن أسمع قصة جوزيف بالتفصيل، أنتِ من دعاه لنجدتك؟

- نعم، لكنّه في النهاية استعمل ضعفي وثقتي العمياء فيه ليقنتني على

طريقته.

وحكيث له قصة ابن عمي جوزيف بكلّ تفاصيلها المملّة، قصة لا تشرف العائلة التي كانت من وراء كلّ ما حدث، العائلة خسرت كلّ شيء وأعادتنّي إلى سؤال البداية: ماذا أساوي كامرأة أمام ذكورة متخلّفة، حتّى ولو كان مستواي عاليًا؟ كنتُ أظنّ أنّ هذا لن يحدث إلّا للأخريات، وما أنا ذيّ أواجه نفس الكابوس، لا فرق بيني وبين آية امرأة عادية.

لم أكن مرتاحة كثيرًا للدكتور ميلر، لكن الغريب أنّه كان لطيفًا معي، ورأيت في عينيه - في لحظة من اللحظات - شيئًا من النور فتح قلبي للحديث معه، على الرّغم من خوفي وخشيتي منه؛ أن يكون خاتما بأصابع جوزيف.

لم يعطني هذا الانطباع. أكثر من ذلك، شعرت كأنّه كان يختبرني نفسيًا ويناقشني حقيقة، ويدرس ردود أفعالي عن قرب.

عندما انتهى مفعول المورفين ومشتقاته نهائيًا، اتّضحت الرؤية شيئًا فشيئًا، وبدت لي الوجوه أكثر وضوحًا.

- سعيدٌ أنّك استجبتِ لكلّ الامتحانات، وضعك أفضل.

أرى الأشجار الكثيرة من وراء المنافذ الواسعة، أنساني كليًا في هذا الفراغ الأخضر وأحاول أن أنسى حيطان المكان التي تذكّرني بالجنون، هل:

بُنيت العصفورية حقيقةً لتكون مأوى لمجانين؟ لا أعتقد. المكان واسع
ويذكر بالمنتجعات الكبيرة للراحة، وبأناقة الجامعة الأمريكية التي
احتضنتني بحب، استقبلتني في الفترات الصعبة جدًا.

انتابني رغبة كبيرة في العزف، لكنني خفت من ردة فعل الطبيب،
فيعتبرني مجنونة. كنتُ أدرك أنه كان بصدد اختبار أية حركة في، يختبر عقلي
وقوته التفكيرية. أنا أيضًا كنتُ أريده أن يعرف أن المرأة التي تقف أمامه؛
ليست فقط عاقلة، ولكنها تعرف كيف تتذوق الحياة والموسيقى. اشتيهُتُ
أن أعزف مقطوعة كلاسيكية وأتركني أنام في دوارها، وليذُب وليتبعثر في
الفرغ نهائيًا؛ هذا الرماد الذي يملأ قلبي. لكنني أعرف سلفًا أن ملامس
البيانو لا تُسعف أصابعي المُتعبة والمرتجفة، ربّما بسبب الجوع والأدوية
والمسكنات، رؤوس أصابعي تؤلمني.

خسرتُ وقتًا طويلًا لأقنع الناس بسلامة عقلي، لكن عبثًا! أقرأ في عيون
بعضهم بعد حديثٍ طويل، بما في ذلك أهلي، النَّاس هنا، بعضُ الخوف
مني، وربّما تعاطفًا مع مجنونة مسكينة، مع آني ضحية جريمة موصوفة! لا
أحد يفكر.

عندما أعودوني إلى غرفتي، استقبلتني ممرضة شابة، أراها للمرة الأولى،
وجهها دافئ كخيمة. عندما اقتربتُ مني، ومسّت يدي، ابتسمت. شعرتُ
برغبة كبيرة للنوم والاستكانة، في كفّها الكثير من الحب، انتبهتُ لأصابعها
الناعمة، تمتمت وهي تمددني على سرير الفحص، وتأتيني بغطاء خفيف:

- كيفك حبيبتى هلا؟ وضعك يتحسن.

- أطباءكم طيبون، ما عدا الذي عتفني قليلاً في بيت جوزيف، ربنا لآتي
كنت عنيفة أيضاً!

- هو لم يعتفك، أنتِ لم تستسلمي لهم بسهولة. ما راح أثقل عليك، أنتِ
أكيد متعبة وتريدين أن تنامي، احكي لي شوي إذا أحببت، أنا هنا لأسمعك.
- هل أحكي لك عن ممي العاقلة أم المجنونة؟ أنا اثنان في واحدة.

- آنسة ممي، أنا لا أعرف إلا العاقلة، المرأة الكبيرة التي حضرتُ
محاضراتها في الجامعة الأمريكية قبل سنواتٍ عديدة، وقرأت نصوصها، كل
ما كتبه.

- كم تعيدنين لي الحياة! أي محاضرة؟

- التي أقيمتها على طلبة الجامعة الأمريكية بعد ظهر الثلاثاء، ٣١ أكتوبر
١٩٢٢، في متدى ويست هول. كان عنوانها: هو ذا الرجل. كانت عن
أمريكا ودورها الحضاري. أتذكر أنك حكيتِ بخير كبير عن اكتشافها
العالم الجديد والعظيم، ولم تذكرني أن كريستوف كولمبس غير نظام العالم
المستقر كلياً ودفع به نحو مغامرة ما زلنا إلى اليوم ندفع ثمنها، وكان وراءه
تشريد أكثر الشعوب ترسخاً بالأرض؛ الهنود الحمر. وظللت أحكي مع
صديقتي: كيف لامرأةٍ عظيمةٍ وذكية مثل ممي، تقفز فوق هذا؟

- والله يبدو أنك أكثر من ممرضة ههههه.

- أنا بلوهارت، ممرضة رئيسية هنا، وأعرف قيمتك الكبيرة.

- كنت متحمسة للنموذج الأمريكي، وما زلت، في التحول، وأنا على يقين من أنّ الشرق يحتاج إلى هزة شبيهة. لكن التدمير الذي تسبّب فيه كريستوف كولومبس كان كبيراً أيضاً، معك حق.

- المهمّ خَلينا نرجع لوضعيتك، كيف انطلت على واحدة مثقفة مثلك، حيلة يوسف؟

- تعرفين القصة إذن يا بلوهارت!

- قرأت عنها في جريدة المكشوف، لقد فضحت كل شيء وهي تناصرك، ومديرها المحامي فؤاد حبيش، متحمس جداً لك، ويفضح الظلم الذي مورس ضدك، على العكس من الجرائد الأخرى التي اعتبرتك مجنونة وانتهى.

- ماذا أقول يا بلوهارت؟ كل شيء بدأ برسالة ألعتها اليوم وألعمن سذاجتي التي ورّطتني. كنت أنتظره، بعثت له برسالة نجدة، فقد كان جوزيف الأقرب إلى قلبي، لا أدري كيف سلّمته نفسي بلا أسئلة؟ ربّما هذا من معاصي الطفولة التي تستمرّ فينا بقوة حتى آخر يوم! دخل عليّ وهو يجعل كومة جرائد، ضمّني إلى صدره، وكم كنت في حاجة ماسة إلى دفئه وفرنسيتة الأنيقة! له قوة جاذبية لا يمكن لأيّة امرأة أن تقاومها. قال لي:

تعالى يا مَيّ، الكل ينتظرك هناك، في بيروت، الأهل لا ينامون، يتناوبون على انتظارك، ضيعتك شحتول تنتظرك، أنت متعبة ويجب أن ترتاحي، لا يمكن لأهل زيادة أن يتخلّوا عن ابنتهم. قلت له يومها بلا خجل ولا حساب لردة فعله: الذين تعودوا على انتظاري ماتوا، والأحياء نسوني، ومن بقي منهم ينتظر موتي لينقضّ على جسدي.

- وكيف كانت ردة فعله؟

- كان أنيقًا كعادته، أخذني من يدي، وسحبني نحوه كمن يتدرب على رقصة تانغو، شعرتُ بضعفٍ ما يسري في كلِّ مفاصلي. تساءلتُ في لحظة الدوار: هل ضيعتِ البوصلة يا مَيّ؟ أجبتُه، بالكاد أنطقُ الكلمات مقطّعة: متعبة يا جوزيف حبيبي، وقَعْتُ لك على ما اشتهيتَ من التوكيلات، ووضعتُ كلّي بين يديك، اتركني الآن أعود إلى قلبي وروحي وعقلي، كم أشتهي عزف السوناتا الشقية! هي آخر ما ادّخرته، لم يبق لي شيءٌ إلا ظلال الموتى ولغة صامته تحترق في أعماقي مثل القشّ الناشف، متعبة جدًا حبي ولا أملك أية قوّة. فجأة تحوّلتُ إلى ظلٍّ أبيض، مثل غيمةٍ صيف، نسر بعمرى في أثر جوزيف، أو هو من كان يجزّني نحو محطّة الموت، التي لم تكن بعيدة عن بيتي، وفراشي، ووسادتي.

جوزيف كان قاتلي، ومقتلي من دمي.

جاءني من بيروت لأنني احتجته، وليخفف عليّ مصيبي التي أنهكتني. ان تفقد دفعة واحدة ثلاثة منك، مصيبة ما بعدها مصيبة. لم يكن لطيفاً كما تعود أن يفعل، فقد حلني كلّ شرور الدنيا بما في ذلك وضعه العائلي المتأزم جداً. في الحقيقة هرع إليّ ليستكشف أعمالي وأموالي وأمكتها المختلفة، في لبنان، مصر، أوروبا، تحديداً بريطانيا، ويقف على سرائر مصالحي وشؤوني وعقاراتي التي خسر فيها والذي جزءاً من حياته ليجعلنا مرتاحين. هل يُعقل؟ بدا لي كأنّ كلّ زيارته كانت مؤسّسة على كيفية الاستيلاء على كلّ شيء في حياتي. خاطبني في اليوم الأول عن وكيلٍ يمكن تعيينه للحفاظ على مصالحي، ولأنّ العاشق أبله، ظللتُ أقول في داخلي، جوزي حبيبي، لا يمكنه أن يفعل شيئاً قبيحاً، عينه على مصالحي. أجبته مع ذلك بنوع من التحفظ، بأنّه لا أملاك لي في مصر، وأنّ كلّ أعمالي المالية في لبنان، قليلٌ منها في مصر، وهي منظّمة تنظيمياً لا يحوجني إلى مساعدة أحد، لأنّها ليست بكلّ تلك الضخامة. الغريب؛ كأنه لم يكن ينتظر إلّا ذلك، جاءني في اليوم الموالي برفقة رجلين من أنسابتي، يتبعهم باشكاتب محكمة عابدين، ووكيله، وفتح دفترًا كبيرًا جدًا، سحب جوزيف قلم حبر، وقدمه لي طالبًا منّي أن أوقع في الدفتر، وقعت بلا أدنى تردّد. أيّ تأثير سيطر عليّ في تلك اللحظة؟ كيف لم أعجب لمجيء الباشكاتب دون أن أستدعيه؟ وكيف لم أرفض التوقيع؟ لست أدري! لا أملك جوابًا، كلامه بخوفه عليّ من جماعة السوء ومن الكثير من المثقفين المنافقين، والنصّابين الذين يحومون من حولي، يحتم عليه هذا الإجراء لمصالحي. سحب عقلي كليًا منّي، فقد زاد في شكوكي تمّن كانوا



يحيطون بي، وأظهر لي تقريبًا كلّ الناس أعداءً، يجب تفاديهم. الأمثلة التي قدّمها لي لم تكن سيئة، عزف على خلافتي الثقافية مع الكثيرين، لم يترك حتى أقربهم إلى قلبي، الدكتور أحمد لطفي السيد، الذي معي بقلبه الطيب، بينما ابتعد عني طه حسين والعقاد وصادق الرافعي والإدارة المصرية، ووضعني العام في مصر، فهل أنتِ مصرية على الرّغم من جنسيتك الثّانية؟ ألم تكتبي عن الغريب؟ لسانه شلّني عن أيّة حركة.

- لا يهمّ، سيصبح ذلك كلّه عبارة عن ماضي، وترتاحين، أتركك تنامين.

- شكرًا، لأول مرّة أتكلّم من كلّ قلبي دون أن يأمرني أحد، وأنا ما زلت تحت المورفين. شكرًا بلوهارت.

(٦)

يأتيني الهواء البارد من الفجوات، أسمع صفير الرياح الذي يشبه فحيح
الأفاعي.

الخوف يركبني كشبح أسطوري ويضغط عليّ.

قبلتُ تقريبًا بالقدر المشؤوم المسلط عليّ، لم أعد أصرخ لكي ينقذني الله،
لقد فعل في البشر ما أرادوه، على مرأى من جبروته وسلطانه، لم يعد
يسمعي مطلقًا. في بيت الجنون، فكرتُ في شيء واحد؛ هو أن أستمرّ فيّ،
بالإصرار على الحياة وشدّ خيوطها بكلّ حواسي وأسنان حتى ولو
انكسرت كلها من شدة الضغط عليها، لأنّ جنوني واندثاري، كان هو
هدفهم وشهوتهم الكبرى، وكان عليّ أن أوسع كلّ يوم من مرمى نظري،
من الغرفة الضيقة، حتى الحديقة، حتى البحر الذي لا يظهر منه إلّا القليل،
حتى شوارع المدينة المتخفية وراء الأشجار، إلى السماء التي كنت أشكّل
الرواها كلّ فجر عندما أفتح عينيّ، وكلّ مساء عندما أتحفّي تحت بطانية أمي
الرشيقة.

رفضتُ تناول الدواء لأيام متتالية، فقط لأثبت لهم أنّ عقلي سليم، وأني
امرأة طبيعية، وأنّ ما يحدث ليس جنونًا، ولكنه شيء آخر اسمه طمع
العائلة، بؤسها. لم يكن أحد قادرًا على فهم ذلك.



خلاياي تتحلل، أشعر بالبلادة تسكن داخلي، كلما حاولت أن أنهم
وضعي، وأحاول أن أعقلن الأشياء، توغلت أكثر في العزلة التي كانت
تسرق مني حياتي، أو ما تبقى منها.

لا شعوريًا، بدأت أفكر في الانتحار، الحل الوحيد الذي كلما انغلقت
السبل، انتابني كما الغيمة الهاربة بلا خوف.

مثل العميان الذين فقدوا أي أمل في البصر؛ أتفرس الوجوه والحيطان،
معتمدة أكثر على حاسة شمّي وملامسي.

لا أدري ماذا حدث لي البارحة في عزّ النوم؟ صرختُ كثيرًا حتى ألقي
دماغي وأصبحت حنجرتي مبحوحة، ليس من الألم، ولكن من شيء
غامض كلما حاولت فهمه، وجدّنتني بعيدة، قبل أن أضرب رأسي على
الحائط العديد من المرات، لدرجة ارتسام خطأ مستقيم من الدّم عليه، ثم
أصبّت بالدوار وغبت نهائيًا عن الوجود، وأسمع همهمات مدام شوكي
عند رأسي:

- مسكينة! لا تقبّل جنونها.

- مين قال إنّها مجنونة؟ لا تظهر عليها أية علامة، تبدو صافية لكن
تشعر بظلم، فلا أحد استمع إلى شكواها.

- فيه حدا عاقل يضرب رأسه على الحائط يا بلوهارت؟ صحيح أن هذا
المجنونة لا تشبه بقية المجانين، أحيانًا تقول عنها هي هنا عن طريق الخطأ

لثقافتها وعلمها وصبرها، ونعومة لغتها، وفي أحيانٍ أخرى تُصاب بهستيريا
تتحول إلى وحشٍ كاسرٍ يجب أن يُكَبَّلَ بالجاكيت، حتى لا تؤذي نفسها
وربقة المجانين.

- بي خوفٌ داخلي من أنها مظلومة!

- اللي سَمَّاكِ بلوهارت يا سوزان لم يكن مخطئاً، قلبك بسعة البحر. لكن
حبيبتى، الطيبة مع المجانين، تؤذيهم أكثر مما تنفعهم، والتساهل يمكن أن
يؤدى بهم إلى نهايةٍ غير محمودة.

زادت حدة الاتهامات، جعلتني أتقلب في فراشي.

- من يوم ما جاء بها ابنُ عمها إلى العصفورية، وأنا عندي شكٌ في
وضعها.

- قصدك خاتته؟

- لا أعلم! لكنّه ليس زوجها، زوجته الفرنسية ماتت، ربّما كانت
عشيقتة، أكيد عشيقته، ويقال إنّها السبب في تدمير بيته كلياً، وإنّما السبب
في موت زوجته.

- فيه ظلم كبير ضدّ هذه المرأة، هي سيّدة مجتمع وليست بهذه الصّورة.

- الصّحافة هي التي تقول هذا.

- الصحافة تقول عنها إنها مظلومة.

أسمعُ في سَكينة الدّوار.

بلوهارت تعلم القصة كلّها، لقد حكيت لها عن كلّ شيء، لكنّها تحفظ بعض السر ولا تتبادى مع مدام شوكي.

عندما فتحتُ عينيّ، لم أعرف أحدًا منهم، رأيتُ وجوههم الصفراء التي لا دمّ فيها باستثناء بلوهارت والطبيب الجديد، وسمعت همهمات القافية التي كانت تلحّ على فكرة الورطة مع هذه المجنونة التي لا تشبه الآخرين. كانت الأصوات كثيرة، والوجوه مجرّد ألوان متداخلة، كأنّ شيئًا غريبًا تطوّر معي، كيف حدث ذلك كلّهُ حتّى أصبْتُ بالجنون الذي تفاديتُه أبدًا؟ به دوائر لا أعرف إذا ما كان بفعل الأدوية أم هو أمرٌ طبيعي من كثرة ضرب رأسي على الحائط؟!

عندما أفقتُ وتمحّست لم رأسي الملفوف داخل شاشي خشن..

لم أندكر الشيء الكثير، سوى أنّي في الليالي التي سبقت، رفضتُ تناول الدواء، ثم سمعتُ صوت الطبيب النفساني الحكيم غسان وهو يردّد:

- ليش عملت في نفسك هيك يا ماري؟ ألم يكن أمامك شيءٌ آخر؟

لم تكن لديّ أية قدرة على الرّد، تمتعتُ، ولا اظنّ أنّه سمع كلّ كلمة المتقطعة:

- أنا مظلومة، أنا هنا عن طريق الخطأ. يا سيدي الحكيم، لا مسؤولية لي فيما حدث، لست مجنونة، أقسم بآتي صافية العقل، أخضعني يا سيدي لتجارب العقل لترى آتي مظلومة. أنا كاتبة معروفة، اسألوا من عرفوني من قبل، وكان لي في القاهرة صالون كبير جمعني بأكبر الكتاب، ماذا يمكنني أن أقول غير هذا؟ هل هذا لا يكفي ليجعلني خارج الجنون الذي وضعتوني فيه؟

ضحكت مدام شوكي. مزاجية بشكل غريب، وكأنّ كلامي أثار حواسها الداخلية الميتة، التفتت نحو الحائط لتخفي ملامح سخريتها من كلامي.

- صالون في القاهرة مرّة وحدة! ليش موببيروت؟ هههه.

ردّ الطيب النفسي؛ الحكيم غسان:

- سمعت بهذا، ما فيه حدا يا ماري أتهمك بالجنون، أنت سيّدة محترمة، وهذا مستشفى الأمراض العصبية والنفسية وليس مكاناً للمجانين.

- لكنّي يا سيدي ممنوعة من التصرف في حياتي وجسدي.

- بس يا ماري لازم تأخذين الأدوية للتخفيف من آلامك والتخفيف من أعصابك، بدون ذلك لن أستطيع مساعدتك. لا أطلب منك أيّ شيء، لا تريدين الدواء، ليكن، تعالي معي، للجنح الثاني، أريد أن أريك شيئاً ربّما لا تحببينه، لكنّه جدّ ضروري، لتدركي أنّ الأمر جاد وخطير، وعليك أن

تنبيهي له قبل فوات الأوان. سأترك لك فرصة الخيارات. لن أجبرك على شيء لا أنا ولا الطاقم الطبي المرافق لي.

- ما عندي رغبة.

- ولو، المسألة لا تخص الرغبة ولكن الضرورة، لا خيار لك، لأنني بعدها سأخذ قرارًا نهائيًا بشأنك.

كانه أفرغ على رأسي إناءً من الماء البارد، انسحب لساني إلى الخنز وضيمت لفتي، استسلمتُ له.

مدت لي بلوهارت يدها ثم ذراعها، ساعدتني على القيام، بينما وضع الطيب النسائي يده تحت إبطي الأيمن ومشينا قليلاً.

توقفتُ لثوانٍ، رتبتُ فيها بلوهارت لباسي من الورا، ثم واصلتُ التدرج، كنتُ أشعر بالتعب وبيعض الدوار، لكنني كنت قادرة على المشي بمساعدة الطيب وبلوهارت. الخطوة الأولى.. الثانية.. الثالثة.. الرابعة.. توقفتُ. هناك شيءٌ ثقيلٌ على ظهري، يرهقني، كأنَّ أحدًا وضع السلاسل في رجلي، ثم وضع كيسًا من الإسمنت على ظهري ليمعن في تعذيبٍ، ثم أمرني بالمشي من بيروت، لضيقة شحتور، وصعود الجبل العالي.

لا أدري كم استغرقنا من الوقت قبل أن أوضع على العربية التي سجتني نحو الجناح الثاني؟ قرأتُ: جناح ب، المرضى عقليًا. انفتح لي وجهي الباب الأول كأنه فمٌ حيواني أسطوري، ثم انغلق من ورائنا الباب

أبواب صالونات الكاوبوي التي نراها في الأفلام، ثم سرنا قليلاً، الباب الثاني، لكنني بعدها ضيّعت العدّ ولم أعد قادرة على تبيان الأشياء.

كلّ شيء كان يدور في دماغي بعنف، وأمام عينيّ، في مشهدية درامية.

توقّف الطيّب قليلاً:

- ماري.. انتبهي لي جيّداً.

- هل تريد أن تقتلني؟

- لماذا يا ماري؟ أنا أريد شفاءك السريع. شوفي منيح، أنت مصرّة على عدم تناول الأدوية، أنت حرّة طبعاً، لكن هذا يؤذيك وينقلك من مرحلة نسيطر عليها إلى مرحلة لا أحد يسيطر عليها. راح أفرجيك شي، بس لا تخافي منه. أعرف أنك امرأة شجاعة. ألم تقاومي ما رأيته ظلمًا ضدك من الآخرين؟ المقيمون هنا، من وراء هذا الباب، ناس كانوا مثلك، متعيين شوي، أعصاب، اكتئاب، لكن طبيعيين، قصدي مش مجانيين، رفضوا تناول الدواء، مثلك أيضاً. شوفي فقط أين أصبحوا اليوم؟ إتهم هناك، ولا يمكن للدواء أن يفعل فيهم شيئاً الآن سوى تنويمهم.

- دخيلك يا دكتور، ما بدني أشوف شي، رجعني لغرفتي.

- مثلها بدك، لكن راح تخسري شي كثير.

تدخلت سوزان وهي تحاول أن تمسح وجهي الذي سال عليه عرق بارد.

لكن في الوقت نفسه، كان عندي فضول عميق، فاستسلمت للذراع من جديد، وذراع بلوهارت التي أسندتني أكثر، لدرجة تمنيت أن ألصق بصدرها فأغمض عيني، وعندما أستيقظ، أجد كل شيء قد انسحب، والظلمة زالت.

تقدم الحكيم بخطوة، كان الفضاء أوسع. أول شيء سمعته صراخ كبير زلزل قلبي، ثم رأيت رجلاً ضخماً مُحاطاً بأربعة ممرضين أقوياء مثل الثيران، وهم يحاولون أن يسيطروا عليه، وهو يضرب رأسه المحلوق على الحائط الأقرب الذي ينضح دمًا: يا أولاد الشرموطة، خانتني، عمقول لكم باعتني بالرخيص، وبدكم إياي أتركها حية! سكينه المطبخ كيف راحت مني يا الله؟ مين اللي سرقها من يدي؟ ثم فجأة سكن عندما تمكّنوا من السيطرة عليه نهائياً، وحفنه بإبرة كبيرة تشبه تلك التي تستعمل للحيوانات لوقايتها من الأمراض الكبيرة، رأيتها في سوق الناصرة، ثم قيدوه بالجاكيت التي شدوا وثاقها من الورا. أصابتنى رعشة داخلية كبيرة، تشبّثُ بجسد بلوهارت. عندما داخ حملوه كما تحمل جثة ميت، وجرجروه من باب خلفية مؤدية إلى جهة الرجال. فتحوا باباً ثانية أمام وجهي، رأيت امرأة، ذكرتني بعيني كارمن المائلتين، عندما رأتنى التفتت نحو الحائط، ورفعت يديا إلى السماء وفتحت رجليها قليلاً كأنها تستسلم لتفتيش أمني وهي تقسم: والله

موانا، مالي آتية علاقة بهم. ثم شيئاً فشيئاً بدأ يرتفع صوتها ويعلو بشكل خفيف، حتى أصبح في لحظة من اللحظات يشبه صوت رجلٍ يعاني من الاختناق، كانت تعوي بتشنجٍ مثل ذئبة جريحة، قبل أن ينوموها بنفس الحقة.

الثفت الدكتور نحوي:

- هذه المسكينة مريم قصتها غير، يبحكوا أن بها مساً من الجنون، وأتيا مسكونة بجنتي أمر أقسم أن لا يخرج إلا بإخراج روحها، وظلوا معها بالطب الشعبي والمحاولات السخيفة، حتى دمروا خلايا مخها نهائياً، ومعدتها. حاولنا إنقاذها، لكننا لم نفلح أبداً، وصلنا متأخرين جداً يا ماري. ليست مجرمة عندما قتلت زوجها، ذنبها الوحيد أتيا وجدت نفسها في المكان السيئ، في المكان الذي كان يجب أن لا توجد فيه، وفي اللحظة السيئة، لحظة ارتكاب الجريمة. لم يكن أمامها سوى ذلك بعد أن جنتها يوم وجدته مع امرأتين، قالت للمرأتين انسجبا، قامتا بسرعة وقرتا دون أن تلبسا ثيابها كلياً، وغرست في بطنه سكين حادة، ظلّ يتقلب في مكانه، ثم دخلت إلى المطبخ وجاءت بسكين قطع الخبز الحادة. كان مذعوراً، أنزلت الغطاء عنه، كان مجمداً في مكانه، حتى صرخته لم تخرج، وهي تأخذ عضوه في حفنة كفها، وقطعتها بعنف، بينما الصرخة لم تخرج وانقلبت صفرة وجهه الى لون رمادي. بقيت الجريمة عالقة بالأذهان، لم يشفع لها إرهابها وصلمتها أبداً، بقيت في الحبس شهوراً على ذمة التحقيق، وخرجت من

هناك مصابة بخللٍ عقلي، وبحالة هلوسة ورعب وصراخ. الكثير من السكارى والعابرين كانوا يأخذونها ثم يرمونها في أيّ شارع. في كلّ مرة كانت تحمل وتلد في أيّ مكان، كان المارة يعبرون صباحاً، يجدون طفلاً يأخذونه نحو مركز الأمهات العازبات. يقول الذين عرفوها عن قرب - وفي ملفها الطّبي - أنّها أنجبت بنتين خنقتهما وذهبت لتسلّم نفسها للشرطة، خلصوا عليها إذ اعتبروها من اللّحظة الأولى مسكونة، وبدل المستشفى اختاروا لها الرّقية الشرعية قبل أن يأتيهم دجالٌ ظلّ يضربها ويصرخ في وجه الأحمر، ويدعوه إلى الخروج ويواجهه إذا كان بطلاً، حتّى أهلكها. أتى بها إلى هنا أحد المحسنين الطّيبين. والآن تتعافى قليلاً، وبدأت تعتبر أنّه ليس كلّ الناس أعداءها، وهذا وحده يبشر بخير بسيط ويقلل من رعبها اللّيلي.

كانت ترتجف مثل حيوانٍ مذعور وهي تنظر صوبنا. تقدم الطّيب نحوها، لم تهرب، بل خطت بعض الخطوات نحوه وهي تتفرّس في وجهه. مسح على شعرها بنعومة، وعلى وجهه، فاستسلمت له. تلمّس يديها.

- كيف ظهرك هلاً يا مريم؟

- زين، أفضل شوي. مين اللي معك؟

- ناس طيبين إيجوا يشوفوك، فرجيهم من الوغد اللي ضربك على ظهرك.

كشّف عن قليل من ظهرها، فكان أسود من الحرق والكمّي والضرب.

لم أتمكن من رؤية كل شيء، فقد انتابني رعبٌ قوي. كنتُ أرنجف، ربّما
لأني عشتُ في القاهرة في راحة، خارج هذا الدّوار. كان ظهرها مثقّبًا
كالغريال.

- أرجوك دكتور أعيدوني إلى مكاني، لم أعد قادرة على التحمّل.

- سنفعل حالًا.

أجاني الطّيب النفساني السيد غسان، وهو يحكّ من جديد على رأس
السّيدة، ويقبل يدها اليمنى قبل أن يستلمها الممرضون. فاستسلمتُ لهم.
يبدو أنّ المريض عندما يتعب يستسلم للقوّة.

لم أكن قادرة على الوقوف، مدّني الطّيب قليلاً على فراشي، بينما غسلتُ
بلوهارت وجهي.

تمت بالكاد في أذني:

- سُفتِ قديش المسألة صعبة وقاسية يا مريم؟ ما كان بدنا نخوفك، ولا
نعذبك، حينك تعرفين شوي هذا العالم، وما هي كوارثه. C'est juste
une onde de choc afin que tu te réveilles¹¹ الآن أنت
حرة حبيبتي. ما بدني تضيعي نفسك يا ماري إلياس. أنتِ متعبة، نعم،

¹¹ مجرد هزة عنيفة لا أكثر، حتى تستيقظي.

ولست مجنونة. لكنك على حافة الكأس كما يقال، إمّا أن تسقطي في عمق، وينتهي أمرك ويحل الجنون محل العقل، ويقع لك ما رأيته الآن، أو تقفزي خارج الكأس كلياً، وتعودي إلى وضعك الطبيعي، وهذا يتطلب شرب الدواء. كلنا هنا نجبك ونخاف عليك، ونعرف أنّ ما حدث لك ليس بريئاً، وأن ابن عمك لم يكن لطيفاً معك. لكنك متعبة جداً يا ماري، وتنحفين كلّ يوم قليلاً، وهذا يزيد من مخاطرك الصحية. ولا بدّ أن تسبهي جيداً إلى وضعك. أنا الآن أتحدّث مع امرأة متعبة، لكن بكامل قواها العقلية، وليست مجنونة.

- لكن يا دكتور غسان قلبي موجوع.

- وقلبي موجوع عليك أكثر، ولا أسمح لنفسي بتركك تغادرين هذه الحياة الجميلة، وتفرقين في عالم الجنون كما مريم المهبولة.

مد يده إلى يدي، كانت دافئة جداً، أو ربّما جسدي هو البارد من شدة الخوف. همس:

- ما راح أزعجك، أنا بمكتبي.

قبل جبهتي وخرج.

- حاولوا أن لا تتعبوها كثيراً، أعطوها فقط مسكنات.

في لمح البصر رأيتُ أبي، ففاه وظهره ومشيته كأنها لوالدي. كيف لهذا السر الوجودي يضعني أمام أجمل مخلوق في حياتي؟ قبل أن يغادرني الحكيم غسان لم ألاحظ هذا، ولكنني رأيت في عينيه ارتسام حيرة كنتك التي تنتاب العشاق عندما تتعطل لغتهم التعبيرية. لأول مرة أشعر بصدق التي تشك في كل شيء، بما في ذلك تسميمها من أهاليها أو عن طريق ممرضة يشتريها جوزيف. الصدفة الغريبة التي رمت به إلى هذا المستشفى القاسي. الدكتور غسان بدا لي مثل والدين بل والدي. عندما مشى خرج من الغرفة ومشى في البهو القديم، رأيتُه، ارتسم فجأة ظلُّ أبي، وجهه، وقامته. أعطاني ذلك سكينه كبيرة وطاقة استثنائية وإحساسًا مشبعًا بالفرح، أتى لم أكن وحيدة.

ليس سهلاً أن تفقد من تحب، لكن أن تفقد أبًا، شكل عالمك، وحياتك، وأقدس أسرارك، فكارثة. أن تفقد أبك معناه أن تحسر أول رجل أحببته في حياتك بلا أسئلة ولا حساب، وأنت على يقين أنه رجلك الأسطوري الأوحده، والأبدي. عندما يخونك الجميع والأقدار الصعبة، تنكئ عليه، أو تنام على صدره. تصرّف والدي لم يتغير أبدًا، ظلّ هو هو من طفولتي في الناصرة أو شبّابي في شحتول أو القاهرة، كنت مدلّته وحيبته ونوره كما كان يقول لي دائمًا. كان يكرّر جملته:

- الوحيدة يا اللي حملت جنوني الإعلامي والثقافي هي هذه، حبيتي

ماري.



ثم يضمتني إلى صدره. لا يمكن للعالم أن يسير بلا مغامر من راقعين ولا
مجانين أحرار.

- أنا مش مجنونة يا با.

- بدى ياك تكونى مجنونة، العالم زهق من العاقلين.

لم أعرف أنّ الزمن القاسي كان يجئني لي جنونًا خاصًا، قبلةً موقوفة
محفوظة في الأعماق، وضع فتيلتها في يد جوزيف، تاركًا له مأمورية
الخراب. لم أعرف أنّ للأقدار صناعها، يُنشئها لك من هو الأقرب إليك.

لم أكن أعرف أنّ الجنون ليس دائمًا مشيتك الفردية كما تصوّرها أبى،
يمكنه أن يأتي من سماء فارغة لا نعرف سرها.

التفتُ نحو بلوهارت، ولا أدري كيف خرجت الكلمة من فمي،
بخوف، ولكن أيضًا براحة:

- حبيبتى، فيه دواء أتناوله قبل النوم؟

- ارتاحي، سأقوم بتحضير كل شيء لك، لن تمرّي عبر المعالجة
الجماعية، أنتِ وضعك لا يشبههم، بعضهم فقد كلّ علاقته بالدنيا لأسباب
كثيرة.

- لكن لماذا يصرخون كلّ الليل؟



- كل واحد له وضعه الخاص يا ممي، ولكل واحدة قصة، وحدها تعرف سرها ومعاني الكلمات التي ترددها يوميًا على مسامع نزلاء العصفورية، قبل أن يُسرق منها عقلها. هناك المرتبطات بأوممة غائبة، وهناك من يخفن من كل شيء، حتى من أنفسهن، وبعضهن من ظلالهن.

- وأنا أيضًا أبدو لهم أكثر جنونًا، ماذا كان ينتظرون من امرأة انهارت كل حيطانها في زمنٍ محدود؟ جيد آني لا أكل ملابسي ونفسي وإني ما زلت حية وواقفة على قدمي.

لقد مات والدي وأنا جوعانة إلى حنانه، لقد قضى العمر كله يركض وراء الرغيف الذي ظل معلقًا في الأسفار. لحقه جبران، حبيبي وأخي الذي يعرف جراحتي التي لم يلمسها حتى الأقربون. لم أكن من حديقة نساته لأنني لا أملك قلبًا سهلاً وجسدًا طيغًا، لكنّه كان نبيلاً وجميلًا. قلت له يومًا عندما طال صمته: لا تكتب لي إلا عندما تشعر بالحاجة إلى ذلك. تألم قلبه كثيرًا، رد بحزنه الشفيف: هناك في مشارق الأرض صبية ليست كالصبايا، وقد دخلت الهيكل قبل ولادتها، ووقفت في قدس الأقداس، فعرفت السر العلوي الذي اتخذه جبابرة الصباح، ثم اتخذت بلادي بلادًا لها، وقومي قوميًا لها^{١٣}. ثم ختمتُ درب الألام بفقدان أم، كانت كلي وقلبي، فشعرتُني

^{١٣} من رسائل جبران إلى ممي. ٩ فبراير ١٩١٩.

فجأة مرمية في فراغ بلا حدود. كانت حائطي الأخير الذي بقي واقفاً. ربنا
لا تي اتكأت عليه كثيراً، هو ما جعله ينهار بسرعة. ليلاً أبكي بلا حدود.
حتى الذين كنت أعرفهم، غادروا المكان أيضاً. اخترت فقط أن أبكي
وأنتظر دوري، فسرقوني قبل الأوان. لم يكن جوزيف في حاجة إلى التسرع،
لم تكن رغبتني في الحياة كبيرة. تسلطه وظلمه جعلاني أصرّ على الحياة لاجئاً
ولكن انتقاماً. أحياناً نقاوم رياح الموت فقط لنرى مآل من أذانا.

- تميتت لو أستطيع أن أكون أكثر قريباً، لكن للأسف، المسافات يحددها
المستشفى وليست رغباتي. كان والدي يقول لي دائماً: كلما أصبت بجرح
تصعب مقاومته، اخرجني من دائرته، اذهبي نحو أماكن ومساحات خالية
من البشر، بها الأرض والسماء فقط والأرواح الصامتة، وارتاحي ولا
تفكري في أي شيء. فسافرتُ في عام ١٩٣٢ إلى إنجلترا أملاً في تغيير
المكان والجو أيضاً، لكن شيئاً غامضاً كان يمنعني دائماً من الفرح، حتى
السفر، على جماله، لم يكن الدواء. عدت إلى مصر يومها متعبة، لا شيء يبر
كسور القلب أمام الموت. سافرت ثانية إلى إيطاليا لاستدراك سفرة لندن،
أتابع محاضراتي في جامعة بروجيه عن اللغة الإيطالية، وآثارها. أحييتها
وتميتت أن أكتب بها مثل الإنجليزية والفرنسية. المرض والسعال الحائض
بسبب البرد، لم يترك لي فرصاً كثيرة للتعلم، وربنا العمر الهش أيضاً.
حاولت البقاء في روما، لم ينفع. أدركت أن مشكلتي في، في دمي وحواسي
في نحي المتعب وليست في الخارج. عدت في النهاية إلى مصر. وفاة أمي
كانت قاصمة للظهر. عدت إلى مصر مرهقة، فاستسلمت لأحزاني وكأبني

في الآخر، حين أصبح كل شيء أسود، رفعت الراية البيضاء من جديد لأعلن آتي لم أعد قادرة على التحمل، ففرقت في كآبة كانت أقوى مني. أصبحت فقط في حاجة إلى من يقف بجانبني ولو كذباً، ويسندني إلى صدره، ويمنحني فرصة للتماسك من جديد. وكان هو، ذلك المهر الذي أخطأت فيه. لقد فات قطار العمر بسرعة وبقية واقفة على الرصيف القديم أغزل الخيوط احتفاء من برد شتاء كان على الأبواب، ونسيت أنه كان بداخلي. كيف نحتمي من برد الداخل يا بلوهارت؟

- السيد جوزيف؟

- ومن غيره يا قلبي؟

- كنت تحينه؟

وكأنتها المرة الأولى التي يطرح عليّ فيها هذا السؤال.

جد لساني في حلقي، لم أكن قادرة على الكذب.

- نعم يا بلوهارت، كنت أحبه. كنت أرى فيه أشياء لم يكن غيري يلمسها. أكثر من هذا، كان بيننا مشروع زواج بعد وفاة زوجته. ظل يصتر حتى نسيت غضبي منه يوم اختار الفرنسية وتركني معلقة بين حلم وخيبة. حلمنا أن نستدرك ما خسرناه بسبب أنانيتي، وتدخلات عائلته، قبل أن هرب إلى باريس ويتزوج هناك. عذرت له لأن دراسة الطب كانت كل شيء بالنسبة له.

- هل هذا هو سبب الكآبة التي كبرت معك؟

- لا أصدق بجوزيف كل شيء. مسؤوليته كبيرة، لآتي يومها سمعت صوت الأشياء التي تكثرت بداخلي فجأة مثل شجرة عجوز قاومت العواصف والرياح، فنشفت من الداخل، قبل أن تستسلم للموت. ربنا طبيعة شخصيتي أيضًا لآتي تعودت كثيرًا على احتضان الناس الذين كنتُ بالنسبة لهم حبًا ضافيًا للمتعة. كل واحد كانت له زوجته المصون أو حبيته السرية التي يخاف عليها حتى من حضور الصالون، ولا يزعجه أبدًا أن يغازلني، ويتقرب مني.

- لقد بذلت جهدًا كبيرًا، لكن الرجل الشرقي لا يتغير بسهولة، يحتاج إلى زمن آخر، لدرجة أن تفكر المرأة على شو الزواج؟ شو اللي رايح يتغير؟ أصلًا شو الفائدة إذا تباع حريتك مقابل زواج لا شيء فيه يغري؟ حكاية طويلة. وحياتك يا أنسة مَيّ أحيانًا أرفض حتى التفكير في الموضوع، سبب خلافي مع أمي التي تريد أن تدفع بي نحو الزواج كيفما كان الرجل الذي يقابلني.

- في الشرق ازدواجية كبيرة هي رهينة ثقافة فيها الكثير من النفاق والخوف من كل ما هو جديد، هو حدائي ومنفتح على الحياة، ولكن في الوقت نفسه يحافظ على رجل الدين الخفي، يتحكم في كل حياته. بلاقي ما لا يُلاقى، لأن لكل واحد مسلكه. لهذا في لحظة من اللحظات، فُكرت أغلق الصالون نهائيًا، فقدت كل شهية للعمل بعد وفاة أمي. بعد ربع قرن

من العمل المواظب، كل يوم ثلاثاء، أغلقتة. لم أندم على ذلك، الأدب مشقة نطق، لكن البشر دوار صعب وغير مأمون النتائج. فجأة، شعرت بنفسي نبتة غريبة في زمن غريب، وعليّ أن أستأصل نفسي بنفسي بعد أن تنافست الأيادي على نزعي بعنف، وأنا حيّة، فماذا بعد موتي؟ وسط الجفاف والتهتك الداخلي والجوع العاطفي، سيجعل منّي عشيقته، وسيكتب عن المرأة الوحيدة التي انتقتة دون غيره. من هذه الناحية، يكاد كلهم لا يصلحون، لا أحد منهم كان قادرًا على رؤية نفسه في مرآة العمر الحار، مزهو بثقافته التي وضعت في الصّفوف الأولى، وذكورته السخية.

(٧)

- لشو بدك طاولة وكرمي؟

قالت الممرضة الخشنة مدام شوكي التي تشبه ملاكًا من الوزن الثقيل،
بصدرها البارز الذي يكاد يفقدها توازنها، ومرفقيها الموضوعين على
خصريها كأنها تستعد لحربٍ محتملة.

لم يكن لديّ ما أقوله سوى ردّة فعل تشبهها.

- بدك تعرفي، مو هيك؟

- أيوه؟ أول مجنونة تطلب طاولة. واحدة تطلب قصرًا، أخرى نبي
لأن فارس أحلامها تركها وحيدة وسافر بعيدًا. وأنت طاولة! أول مرة أرى
وأسمع هذا!

- أول مجنونة، وربّي آخر مجنونة أيضًا. بدي طاولة منشان أرقص عليها،
لديّ رغبة للرقص حتى الصّباح. ما يعرف شو اللي حصل لي، لكنّي حابة
أرقص، على الأقل يحقّ للمجنون ما لا يحقّ للعاقل. هل الرّقص ممنوع في
العصفورية؟ مين قال هذا الكلام؟ مش العصفورية ملهى كبير يمنع من
من له عقل؟ أنا ما صار عندي عقل يا ستي، تحمّليني. فجأة وجدت في
ملهى العصفورية ما يليق بي. مهنتي الجديدة: الرّقص على الطاولات. في
شي عيب أو ممنوع؟

كانت المعرضة تتبع كلامي بانتباه شديد وسخرية ضامرة. ضحكت، ثم غمزت الطيب الإنجليزي الذي كانت ترافقه، مؤكدة له بعينيها الكبيرتين، آتي كنت فعلاً مجنونة، لكن كان عليها مدراتي والسير معي في جنوني. مشهد غريب جعلتُ منه لعبتي. من كان المجنون، أنا أم هي؟

- آتي نوع من الرقص تجيدينه يا ماري؟

- كل ما يجرك عقد الأجساد الميتة، ومكانم الرجال المدفونة، خسارة ما معنا رجل؟ سلو، تانغو، تويست، الروك، شرقي. هز يا وز... رقصني يا جدع... الله يرحمك يا عم سيد درويش، يتمتنا بموتك، ونحن لم نشبع من حينك. كم كنت مدركا لأسرار الحياة! كنت تقول دائما، كل من يسخر من الموسيقى في قلبه تراب محروق بشمس بليدة.

- ههههه.. درويش؟ مين هذا المخلوق الغريب؟

- الطبال بتاعي.

- مات؟

- أيوه خسارة. بقيت بلا طبال، يا ريتك تعوضيه لأرقص لك.

- راح أجرب على الطاولة، لكن ما أضمن. لن أكون مثل طبالك سيد درويش. أنت متعودة عليه. تعرفين كل هذا وصامتة؟ رقصك سيعطي الحياة للعصفورية.

- وأكثر من هذا كله، أعرف أيضًا الرقص الذي يجعلك تتعزّين كاشفة بلا وعي عن مفاتنك، وكتلك الشحمية التي تفيض عن جسدك بقوة فيظهر شعر عانتك وإبطيك المقرّز. بدك أدخل في التفاصيل وإلا بكفيك؟

فجأة صمتت كأني ضربتها على الرأس بقطعة حديد مدبوخة، حتى إنني لمت نفسي داخليًا. الضحكات العريضة التي تحوّل وجهها إلى مهرج بلباس ملون، توقفت نهائيًا وحلّ محلها شيء أسود رأيت يترسم على ملامحها كالشعبان، حقدٌ غريب اتضح كل تفاصيل ملامحه، في عينيها، لأول مرة. التفتت نحو الطيب.

- سُفت يا دكتور؟ لم يكن الدكتور جوزيف مخطئًا عندما قال إن عندما حالة تمرکز جنسي، وتضخم ليبدو لم يتمّ تصريفه بالشكل المناسب والطبيعي، وفي الوقت المناسب، هي تصرفه بهذا الشكل العنيف ضدي.

- هههههههههه

ضحكتُ.

قهقهتُ.

لم يكن أمامي إلا ذلك وإلا لا شيء آخر إلا الجنون، يحولونك إلى مهزلة أمام الناس وكأنك كائنٌ فوق الحاجة، مضغة في كل الأفواه، وعندما تنتفض، يصغرون فجأة، ويتحولون إلى ضحايا.



"اتركوني يا أولاد الكلب، ليش أخذتموه مني؟ إنكم تقتلونني وهو قاتلي. لا أريد دواءكم وستمكم، أمشي في الشارع وأشحد، أحسن من بوسكم. رجعوا لي حبيبي أرجوكم. لا أريد أتي دواء. لا أريد أتي دواء".

أغلقت الممرضة الباب، توجهت نحو الطبيب.

- هذه المخلوقة العجيبة، من ساعة ما جاؤوا بها إلى العصفورية وهي تصرخ، كأنهم فصلوها عمّن تحب!

- الناس مساكين، لا أحد يعرف دواخلهم وحرارتهم.

أجاب الطبيب الإنجليزي الذي سحب الممرضة قليلاً إلى الوراء، لا أدري ماذا همس في أذنها؟ ربّما نهبها إلى تهذيب كلامها قليلاً، مما جعل وجهها يحمرّ كثيراً وتراجع، وتخرج من المشهد نهائياً. سمعت فقط كلمة حقّية، ثم التفت نحوي، وقال بلغة إنجليزية أنيقة:

- لماذا الطاولة حبيبتني؟

كان مهذباً ومحترماً، يتكلّم بهدوء مخافة أن يوقظ الملائكة.

- طبعاً للعمل يا دكتور، أنا أبسط من هذا الجنون الذي ألصق بي، أنا كاتبة، وكلّ شجني يمرّ عبر لغتي. لا أريد الشيء الكثير، من ساعة ما أصبحت نزيلة هذا المكان وأنا أرجوهم أن يأتوني بكرسي وطاولة، كتبت

بالفرنسية ديواني الأول أزهير حلم، وكتبت بالإنجليزية: The "shadow on the rock". أنا لا أحتاج يا سيدي إلى أكثر من بعض الأفلام، وكراريس صغيرة للكتابة، وحقيتي التي طلبت من الأقارب أن يعثوها لي. لأنّ مقامي سيطول وليس كما تصوّرت.

- حقيقتك الصغيرة موجودة، لا مشكلة، بعثت السيدة شوكت تأنيك بها.

كانت مدام شوكي قد عادت لغرفتي بسرعة حتى لا تفوتها رقصتي العظيمة. سلمتها له، كانت منكسرة عندما رأني أتكلّم برزانة. فتحنها، وأخرجت أثقالها، ومجّسم كامي كلوديل: راقصو الفالس. كان الطيب الإنجليزي يتبع كلّ حركاتي.

- تحيين النحت؟

- جدًا، والموسيقى أيضًا. هذه هدية من القنصل الفرنسي يوم ناقشنا في صالون ميّ زيادة الأدب العالمي والثقافة الفرنسية. وشاركنا في النقاش، كبارنا الفرانكفونيين، طه حسين، الشيخ عبد الرازق، وغيرهما، وغاب العقاد لأنّه لم يكن راضيًا. أراد أن يطلع على رسالتي التي كتبتها لجبران، فرفضت. قصّة طويلة ليس هذا وقتها.

لم يكن مطلوبًا مني أي شيء، لا أعلم لماذا تماديت في الكلام؟ فجأة كان علي أن أجتّم نفسي قليلًا.

هل كان القنصل الفرنسي يُدرك يومها ما كان يقوم به، وهو يهديني هذا المجسم المقلد من تمثال؛ راقصو الفالس؟ وأن هديته الثمينة ستوصلني في الأخير إلى العصفورية؟ كنت أعرف وضعها ومتعاطفة جدًا مع صاحبته كامي كلوديل. طلبتُ منه عنوان مستشفىها، تفاصيل إقامتها، مذكراتها ورسائلها في حفل استقبالٍ بمناسبة اليوم الوطني الإنجليزي، وكان عجبًا للآداب والفنون، وعدني وقام بواجبه نحوي يومها. أذهلتني نباهته ونقاشه عن الفنون بشكلٍ خاص، وأخبرته أنني أريد التراسل معه، فالذي يقف على عتبة الموت، يحتاج إلى أيّ جناح يرفّ قريبًا من قلبه، لينام في ظله. وعدني بأن يقوم بها هو ضروري.

لقد صنع التمثال الغريب لي قدرًا جديدًا لم يكن في البال. كنت أحب كامي كلوديل بقوة، كفنّانةٍ ومؤمنة أنّها هي من أعطى شيئًا من الأنوثة لمنحوتات رودان. من حقّها أن تحتجّ على القبلة¹¹، لا يوجد فيها شيء من رودان. القطع الأساسية التي نحتتها للتمثال كعاملمة، لم تكن إلّا منها. القبلة لا تشبه في شيءٍ طريقة رودان. الزمن لم يسمح لامرأة مثلها أن تبرز.

¹¹ هي واحدة من أهم منحوتات أوجست رودان، الذي كانت مساعده وعشيقة.



سرقوا منها حقها. عندما احتججت، رموها في مستشفى الأمراض النفسية
والعصبية، وهي في كامل قواها العقلية.

على الرغم من المسافات والثقافات المتباينة والتقاليد، أشعر بي في دوار
كامي، وأن رودان وجوزيف من طينة ذكورية واحدة، ويقين واحد أيضًا

٢- وانزَوَيْتَ تَتَأَمَّلُنِي، كأنك لم تكن مَعْنِيَا بِالْأَمِي.

(١)

تخترق الشمسُ الصُّباحية أشجار الصنوبر الحلبي الكثيفة، والصفصافة
العالية التي تتسامق باتجاه الطوابق العليا. تطلُّ بأعناقها وفروعها على
نافذتي الحزينة، أتمطط بلذَّة كبيرة، أرى النور يتسرَّب قويًّا من النافذة، يتسرَّب
كليًّا على سريري.

أحاول عبثًا أن أنام من جديد. هناك شيءٌ في الحياة يجب أن لا يضع،
وكلمًا تسرَّب من حواسنا خسرناه إلى الأبد.

مكثتُ في مكاني، أعدتُ غطائي على رأسي، كما عادتني، لا أرى إلا
الألوان التي تصنعها ظلمتي.

الآلام التي كانت تملأ فمي منذ ليلة البارحة، خفَّت، لكنَّها انتقلت إلى
دماغي. أشعرُ بأنِّي خارج الأرض وخارج المدار، وحتى خارجي. بعضُ
أعضائي لا تسعفني، ربِّما لأنِّي نمت عليها، أو ربِّما لأنهم خلعوا حساسيتها
من كثرة إدخال آلامهم في فمي وحنجرتي وأعماق الأعماق. أنتجتُ من
الفراغ، لاشيءٍ أنقيأه.

يبحثون عن ماذا؟ عن قتلي؟

كنتُ منهكة، وأنا لا أدري ماذا أفعل، ولا حتى ماذا أكتب؟

هل أكتبني أم أكتب هذا الجرح الذي لا يُكتب أبدًا؟ كلما كُتب زاد اتساعًا.

لقد تفاقمت جروحي الخفية وليس فقط تلك التي يراها الناس.

أول ما نزعْتُ الغطاء من على رأسي، رأيت على الحائط الأبيض حشرة كبيرة تسلقتُ بهدوءٍ وسكينة باتجاه السقف. تأملتُها قليلاً، كانت سوداء وملاعها غير واضحة، منتفخة. تساءلتُ في أعماقي: كيف أسقطها؟ ثم تخلّيت عن الفكرة نهائيًا عندما جمدت ذراعي، ثقلت يدي عن كل حركة، وبدانعلي بعيدًا عني.

عدت إلى وضع غطائي على وجهي. شيءٌ ما في داخلي كان يشعل حريقًا، أشم من خلاله رائحة لحمي وهو يتقد على الجمر. تخيلتني أمشي خطوة خطوة نحو المرحاض، ثم رأيتني أسقط، أتهاوى قبل أن ألصق بكلي على الأرض. لم أكن ثقيلة، أقل من ثلاثين كيلو، لهذا لم يكون سقوطي ثقيلًا ولا مزعجًا، لم يحدث أي ضجيج، حتى صراخي بقي في ولم يخرج أبدًا، لا أحد سمعه، ولم يتسبب سقوطي في أية فوضى.

حاولت عبثًا النوم من جديد، لم أفلح أبدًا.

عندما فُتح الباب، سمعت صرخة بلوهارت بصوتها الطفولي، تلتها ضربة على الحائط مثل الصّفعة.

- شو فيه يا بلوهارت؟

- لا ما فيه شيء، بس عقرب كان يتسلق الحائط.

قفزت من مكاني بسرعة وخوف.

- شفته بس ظنيتيه مجرد حشرة عادية التي تأتي من الحداقق. الحشرات في العصفورية أكثر حرية من البشر.

- هذا المكان يعج بكل أنواع الحشرات.

- اختنق. حتى عندما أفتحها، الإحساس بأن الشبايبك الخلفية تمنعني من أية حركة يقتلني.

كانت بلوهارت برفقة الطبيب الفرنسي موريس لافال، طب عام. فحص فمي وطلب مني أن أضح قليلاً، ثم تلمس صدري، استمع إلى دقات قلبي، تمت: جيد، شوية غمخاط سيزول بالدواء. نظرت بلوهارت إلى وجهي البارد فامتلاً دفئاً، مدت لي يدها الناعمة، تلمستها. اشتبهت تقبيلها، الوحيدة في هذا العالم الأصم من يهتم بي. تأملت نقاوة كفها، وكأنتها لم تقم بأي عمل شاق في حياتها. قبلتها، أحب أصابع المرأة لأن بها شيئاً من اللغة الخفية. لا أحب كثيراً أيدي الرجال لأنني لا أرى فيها أية نعومة، سوى المزيد من اليقين والخوف، والعنف المبطن في شكل تفضة حديدية.

أدخلت أصابعها في عمق شعري:

- كل شيء سيمر بخير، لا تشغلي بالك.

سألني الطبيب:

Comment vous sentez-vous aujourd'hui¹⁶ ?

Trop fatiguée docteur¹⁷

Surtout sur le plan psychologique¹⁸

أضافت بلوهارت وهي تأخذ يدي من جديد، وتقربها من صدرها
بحنانٍ فائض.

- ممعنون في قتلي وتعذيبي بعنف، يا بلوهارت.

- لا أحد يريد قتلك آنسة مي. نريد لك الشفاء، والعودة إلى أعمالك
المعتادة، وإلى كتاباتك. أعرف أنها أوجع جرح. بس كويس أنك تكتفين
قليلاً هنا.

- أكتب فقط كي لا تنطفئ الشعلة الزرقاء التي بداخلي.

أسوأ عذاب، هو الأكل القسري الذي مارسوه عليّ بلا رحمة، ليلة أمس.
تخصّصت فيه الممرضة الثقيلة، مدام شوكي، التي كثيراً ما بركت عليّ

¹⁶ كيف تشعرين بنفسك اليوم؟

¹⁷ متعبة جداً يا دكتور.

¹⁸ بالخصوص على المستوى النفسي.

صدري لتحدّ من حركاتي، فيتمّ إطعامي على الرغم مني. كلما أكلوني شيئاً،
مرّ كأنه سكين حاد، يمرّ ممزّقاً كل شيء في طريقه إلى المعدة.

لا ساء في العصفورية، لا قلب لها أيضاً، حيطان صماء، وغابة أستخسر
فيها خضرتها وجمالها.

أبكي في أعماقي.

- ماذا حدث يا ربّي؟ كيف تركتهم ينكلون بي وانزويت تتأملني كأنك
لم تكن معنياً بالامي؟ لماذا تركتني وحدي أواجه عاصفة الدّل والصفينة
والطمع؟

شعرتُ بأصابع بلوهارت تلتحم بأصابعي بقوة، سمعتُ صوتَ شيء
يتمزّق في أعماقيها.

كلُّ شيء يموت أمامي بهدوء، ويتحوّل إلى رمادٍ وحفنة يأس.

أتهاوى بقوة من دون عارضٍ يخفف من هول الصدمة.

أغمض عينيّ لكي استرجع البياض الهارب. أصاب بالآلا جذوى،
فأفكر في الانتحار، الانتحار... أسمع صوت الأخت الكبيرة في داخلية
عينطورة: لا يوجد أكثر ألماً للربّ مثل الانتحار، العذابات امتحان
للنفوس العالية التي تمنح جسدها لإنتقاذ الآخرين. خوفي من عقوبة الربّ

يجعلني أتقلص في فراشي، وأبرد، وأكثر رعباً مما ينتظرني هناك، أنسى - أو أتناسى - كل ما يقتلني عشرات المرات في اليوم.

أعود فجأة إلى حاضنة أُمِّي، أتعملم في الفراش الذي يشبه رحمها، أقوم بكل الحركات، أو هكذا يبدو لي. أسكن أُمِّي حتّى التوم ثانية. ربّما كان مصدر ذلك، بقايا مفعول المورفين الذي يستمر طويلاً مُحدّثاً في الجسد ارتخاءً كبيراً.

يتمتع الطيب نانية متوجّهاً إلى بلوهارت، لا أسمع. تقبل بلوهارت جبهني ثانية، أتحمس بشهوة حرارة القبلة. أتساءل: أين من همس الملائكة، صنعت هذه المرأة؟ تضع في فمي قرص المهدئات الأول، أشربه. الثاني والثالث أشربها معاً. الرابع بلونه البرتقالي، أشربه منفصلاً بعد ثوانٍ. لا أسأل، لا أشعر بأي ألم، لا أقاوم، أريد فقط أن أشفى.

- شُفتِ حبيتي مي؟ كل شيء يمرّ بسرعة وهدوء.

كنتُ مستسلمةً لها مثل طفلة. تقبلني من جديد على يدي، أشعر بشيء غريب في كل جسدي، تحضن كفي اليسرى بين كفيها، تهمس في أذني:

- حبيبة روحي، أعود لك بعدما تنتهي من الزيارة الصباحية للمرضى، وسأبقى معك أكثر. سأتيك بمقترح، أتمنى أن تقبلي به وسيساعدك على مغادرة هذا المكان بأقصى سرعة ممكنة، شو رأيك؟

- ما زلتِ تأملين خروجي من هذا السجن؟

- ستخرجين، وإلا لم تصرّين على هذا العذاب؟ جميل أنك لم تستسلمي بعد كل الألم، لا يوجد أي مبرر لبقاتك هنا، مسألة وقت فقط.

- نعم مسألة وقت كما كانت تقول المسكينة التي انتهى بها المؤقت إلى أكثر من نصف عمرها وموتها هنا. هذا هو الذي يسمى المؤقت الدائم. Le provisoire qui dure المؤقت القاتل.

- مهما كان الوجع القاسي، سينتهي يوماً. إصرارك على حقك، سيجعل هذا المؤقت قصيراً.

تقول بلوهارت بلغة فيها الكثير من النعومة والشفافية.

تلحن بالطيب، أسمع صوتها في البهو:

- لا تنامي، سأعود.

لغتها تلتني، وهمسها يجعلني أستكين أكثر من أي دواء.

أحاول أن أحو كل آثار القسوة، أضع الغطاء على وجهي من جديد. أغمض عيني، ثم أمضي نحو يهدوء، أشم عطر بلوهارت الذي تتقبه بحب، أحلم.

كم كان ذلك الزمن بعيداً!

أعود إلى تربتي الأولى التي شكّلتني كما يُشكّل الطين، أحاول أن أفتح نفسي بآتي في بيتنا في الناصرة، في الطابق العلوي، حيث أول ما كنتُ أسمعه في كل صباح، هو صوت العصافير، ممزوجًا برييح خفيفة تذكّرني دومًا بأنّ الرب يسمع كلّ نداءاتي الخفية التي لا أستطيع إخراجها. أقوم، أندرج نحو الشرفة، أتنفّس طويلًا، يأتيني عطرٌ ما، مزيجٌ من بخور الجامع الأبيض والكنائس المواجهة لي، التي أراها من سطح الدار. أمّد كفيّ الصغيرتين، أقطف أشعة شمس لذيذة تشبه الحلوى الملوّنة، أحاول أن أندوقها بلساني، أستنشقها دفعة واحدة كما الطفلة الحاملة لدرجة أن أقول في خلوتي: لا شيء يساوي هذه اللحظة التي تسرقني نحوها مثل أمّ حنون. التصق بها، لآتي بدونها، سأخسر كلّ شيء بها في ذلك علاقتي بالحياة التي نشدّ اليوم على خيطٍ رفيع لا أريده أن يتقطّع.

فجأة تتمزق تلك الغشاوة الجميلة، تخترقها الممرضة مدام شوكي، بوزنها ودمها الثقيلين، التي كتفتني أول مرّة، بجاكيت المجانين، وهي تصرخ: القيام، النهار طلع. أتأمل وجهها من وراء الفراش. على الرغم من ملاطفتها لي من حينٍ لآخر، حينها تعود إلى إنسانيتها، أرى البشاعة مجسّدة أمامي بكلّ تفاصيلها، وكتلها الفائضة على الجسد كنجحت بائس تركه صاحبه بكلّ زوائده. تسرق غفوتي بشكلٍ فجائي. أدرك بسرعة أنني في العصفورية حقيقة وليس مجرد كابوس عابر، وأتهم قادوني إلى هذا المكان لتعذيبي وقتلي بشكلٍ يومي على مرأى من الناس والله، وبتواطؤٍ معهم.

كيف للرب أن يتواطأ مع القتلة؟ يحترق الجواب في خوفي حتى من نفسي. ربّما كانت بدايات الجنون!

مات الذين كانوا هنا، وملؤوا الحياة عليّ. غادروا دفعة واحدة، لدرجة أنّي أشعر أحياناً أنّهم تخلّوا عني بقصدية مسبقة، أو أنّ الرب يعاقبني عن طريق الخطأ، فأنا لم أفعل ما يؤذي أحداً، ولا حتى ما يؤذي. أخي الصّغير مات مبكراً، تاركاً مكانه فارغاً في العائلة، كنتُ كلّما اجتمعت العائلة حول طاولة الأكل، رأيت مكانه بظله ونوره. أمي أيضاً لم تكن قادرةً على نسيانه، كلّما وضعت الصّحون على الطاولة، وضعت صحنه في مكانه الدائم. على الرّغم من وفاته المبكرة، كانت تراه شاباً قبل الأوان. والدي الذي هان من الكواسر، مات في حجري وتابعت آلامه القاسية يوماً بعد يوم، كلّما ضاقت بي سبل الدنيا، رأيت جالساً، يتأملني كأنه لم يمضَ أبداً، يختبر صبري عليه، وشجاعتي التي كثيراً ما خذلتني. تبعه الرّجل الحالم والعاشق دوماً، الذي عوّض أخي الميت؛ جبران. سحرني بلغته وسحره المدوخين، كان يريدني قريبة منه، بينما كان هو فيّ، جزءاً مني. لكنني رفضت أن أكون مجرد رقم في حديقة نسائه. وكان لي رجل عشت فيه معه، كنتُ أحبّه وكان يتحين فرصة رصاصة الرّحمة. جبران لا يشبهني في شيء، كبر في الحرية ومات فيها. بهذه الطّريقة، لم أطلبه بأن يكون لي، لأنّي أعرف سلفاً أكثر من غيري، أنّ أمراً مثل هذا مستحيل. الرّجل حيوان بلا رادعٍ نفسي، المرأة هشاشة مفرطة. عند بعض الذّكور، لا يمكن تفادي غريزة التعدّد، ربّما نتجت من الإحساس التاريخي بالقوّة والحقّ في كلّ شيء، والحقّ المطلق في المعنى

القصى. كنت شيئاً آخر، تربية تشبه السجن، أحرقت كل عفويتي، امرأة شريرة، أريدُ رجلاً لي وحدي، أموت وأحيا من أجله، فيه وبه، لا أقبل الشريكة في الحب، أو الشريكات، الشراكة في الحب في صف الجريمة، أمر قاتل، مصدر كل الأحزان الثقيلة.

كنت أرى ذلك في عيني أُمي الحزيتين ونساء المدينة القديمة، لهذا قضيت جزءاً من العمر، وربّما العمر كله، أبحث عن الرجل المستحيل، حتى انقضى العمر ولم أجده، ويوم ظننتُ أني وجدته، لحظتها سمعت الطلق الناري الذي اخترق القلب وكل الغشاوات المحيطة به. جردني جوزيف من كل شيء، وتركني خاوية، فارغة، كالفصبة، موجوعة. لكني لست نادمة إلى كل هذا الحد، لآتي مسؤولة عن كل ما فعلته، ولا أحمل أحداً مسؤولية مسلكي القاتل؛ طريق الخراب الذي مشيت فيه دون أن ألتفت روائي، ظناً مني أني كنتُ أسير في طريق الحرير. لم أكن قدبسة على الرغم من أن والدي اجتهدا لذلك. لو قادني القدر نحو ذراعي جبران، كنت طحته بغيرتي وافترقنا بسرعة بشكلٍ بانس وحزين، وحقد لا يمحي. نعم أنا سيدة الأقدار الحارقة، Je suis la femme fatale qu'on ne peut éviter. لا يوجد الفراق السعيد. رجل نشأ في الحرية ومات فيها، لا يمكنه أن يدرك حرائقي مهما تواضع معي، كان سندي وصدوقي وأخي الذي لم تلده أُمي، وحببي الآخر. موته دمري، ماتت بعده كل الأشياء، حتى الحياة. نخطئ إذ نظن أن من منحتهم الأقدار لنا طواعية، هدية أبدية، وأنها لن تأخذهم منا أبداً. للحياة مزاجها المجنون الذي لا أحد يعرف

سره. جاء موت أمي ليعرّيني من كلي، ويطوح بي بكل قواه، في شوارع
المدن الكثبية. كانت أمي سيّدة الأناقة والجمال والحب، منحنتي كل شهية
بها في ذلك عقدها، عقد جدتها من اللؤلؤ النقي الآتي من بحار الخليج
وخرجت من هذه الدنيا. تمتمت وهي تطوّق رقبتني به: سيحملك، يا
عذرائي، من الأرواح الشريرة.

فجأة وجدنتني وحيدة في عالم شعرت يومها بأنه لم يكن لي. تصرخ امرأتني
في أحد أجنحة العصفورية: حرامااا يا ربي، حراماا أن تنظر كمن يسأل.
ولا تصرخ مثلما فعلت مع سيدنا المسيح، ألم يكن بيدك أن تنقذه من قلة
الخيانة، وحراب الروم؟ حرام، لماذا تركتهم يقتلون حبيبي ويرمونه من أعالي
جبل الثلج؟ قتلوني إذ قتلوه. أحاول عبثاً أن لا أسمعها.
العزلة موتٌ بالتقسيط.

أحتاج إلى أن أقرأ وأكتب، لكي لا أموت اختناقاً، أن أغفو أكثر ولا
أستيقظ.

لم أكن امرأة خارقة، امرأة عادية، مثل الشمس والماء والهواء ليس أكثر،
كل أبوابها كانت مفتوحة على التور، فانسدت فجأة بدون سابق إنذار، خشي
بابها الطفولي الأول الذي لم يكن سعيداً دوماً، أغلق حتى لا أهرّب له كل
انتابني خوفٌ من هذه الغاية.

لم تكن مدرسة الزاهبات العذريات في الناصرة مخيفة فقط، ولكن متحكّمة في مصائر الأطفال الآتين إلى الدنيا بفرح، فيُغلق عليهم في علبة. أهل الناصرة عادةً، يسجنون أبناءهم في الدّين، وهم لا يدرون أنّهم يقتلون جزءاً من حريّتهم وعفويّتهم، وحتىّ إنسانيتهم، قبل أن يكبروا، تكون كلّ الحيطان التي ربّوها فيهم قد التقت وتشابكت وانغلقت، ويموت اللبلاّب الذي يتسلّق ويتشرّ عليها بحريّة، ويجفّ نهائياً، ثمّ يصبح خيوطاً وحبّالاً خانقة.

تلك ميّ؟

تلك أنا المرهقة من تبعات الرّب وحسابه الشّنيع الذي أخافوني به منذ اللّحظة الأولى.

مع أنّي لم أفعل في حياتي ما يغضب الرّب أبداً. دين أمّي كان جافاً، ودين أبي لم يكن أقلّ. في كليهما لم أجد ما ركضت وراءه طوال حياتي: الحريّة. ربّما تشابه الأديان كلّها في هذا.

هذه الطّفلة التي فتحت عينيها، في قرن الحروب الكبرى، والفتوحات العلمية الباذخة، هي أنا. فقد كبرت في فراغ الرّياح وخوف الأيادي الناعمة للأخوات اللواتي كن ينزعن منّي كلّ اشتهاٍ ينشأ في داخلي.

لم تكن في رأسي مدينة أخرى سوى الناصرة، الناصرة التي صنعها بالفرح وأشواق الغياب، كنت سجيبتها. أحببتها، لم أكرها حتى عندما قست عليّ. هناك مدن تشكّلنا من تربتها، تمنحنا عطرها وعاداتها وألوانها وأصداؤها كلّ يوم، من الفجر حتى آخر الليل، تمنحها العفوية وسحر الطفولة. من حينٍ لآخر ترحلنا بسكّين حاد، فينزل من أجسادنا وأعمقنا دمّ أسود، وتمنحنا الخوف والأسئلة المستعصية، ونظّل العمر كلّه نبحث عن ظلّ فيها نستكين إليه أبدياً. حتى والدي وهو يتعدى بي من أرض فلسطين تجاه بيروت، لم يفكر في شيءٍ بديل، سوى في وضعي في داخلية مدرسة راهبات الزيارة في عينطورة. كان يدرك جيّداً أنه كان يحاصر قلبي بالمعادن الحشنة، وبلغه الموت والاستغفار الدائم، وبدل أن يضع في جسدي نوراً سخياً، منحه مساحة ضافية من الموت والظلمة القاسية، لم أكن في حاجة لها لاستقيم وأقي نفسي من مزالق الأخلاق.

قال أبي وهو ينظر إلى عينيّ الحائرتين:

- أنتِ بأحلى داخلية، الدراسة والأمان والاستقامة.

- معك حق يا با، بس شو الاستقامة؟ أنا مستقيمة.

- أنتِ مستقيمة لكنك لست العذراء، أريدك أن تكبري في حنبا وظلها.

- ما فيه حدا يا با، يمكن يشبه العذراء.

- كوني فقط بالشكل الذي يرضيك ويرضيني، ويرضي أمك على الخصوص.

- سأكون يا با، بمشيئته.

في النهاية لم أكن إلا أنا.

كنت أتمنى أن أقول له من كل قلبي: اتركني يا با على سحجتي الأولى، فقد ولدت حرة، على تربة حرة، وتأكد أنني لن أختار إلا الحياة. الحياة وحدها بكل حقائقها وأوهامها، كانت رهاني وحبّي الأوحد. عندما كنت أقرأني في أوقات فراغي، لا أجد شيئاً شدّ اهتمامي مثل الحياة والحرية.

(٢)

الصعود إلى أسفل، تنطبق هذه المفارقة عليّ تمامًا. من السماء التي كنتُ
المسها كل صباح، إلى لا شيء. أعتقد أنّ هذه الحالة لا توجد إلّا عندنا، كأنّ
المجتمع كلّه كان يتربص بك، لا عدو له إلّا أي.

عندما أسمعهم وهم يتسابقون على التّعوت، أحجل من نفسي.

لقبني ولي الدين يكن بملكة دولة الإلهام، خليل مطران بفريدة العصر،
ومصطفى صادق الرافعي بسيدة القلم، وشكيب أرسلان بنادرة الدهر،
ويعقوب صروف بالدرة اليتيمة، والأب أنسطاس الكرملبي بحيلة الزمان،
والشاعر شبلي الملائق بنابغة بلادي، ومصطفى عبد الرازق بأميرة النهضة
الشرقية، وفارس الخوري بأميرة البيان، وعبد الوهاب العزام بالنابغة
الأديبة. يمكنني أن أعدّ الألقاب التي انطفت فجأة يوم سرقوا منّي قلبي.
الوحيدون الذي ظلّوا ينادونني باسمي بلا زوائد، هم المستشرقون، لويس
ماسينيون، كارلو ألفونسو نالينو، جوزيف شاخت، الكوندي دي غلارزا،
ويندل كلياند رئيس الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وغيرهم.

الجمل عندما ينوخ، يكثر ذبّاحه.

لماذا لم ينفعني أيّ لقبٍ من هذه الألقاب؟ لماذا تخلى عني جميع الذين
منحوني إياها باستثناء الأموات، بهذه السرعة الغريبة، وكأني لم أكن؟

بقتلني الكلام. يحيني الكلام.

أشعر أحياناً أنني ظالمة، وغير عادلة في أحكامي.

لم يكن كلُّ شيءٍ أسود.

لا أدري لماذا لا أرى من القينية إلا متصفها الفارغ أبداً؟ لماذا لا أرى الجهة البامرة؟ أضحك، أضحك في ظلامي. يتابني وجهها أبي وأمي، فأصمت، واكتفي باقتفاء خطواتها في هدوءٍ وسكينة. شوي شوي يا با، الله يرضى عليك، تعبت من الركنض وراءك. أكاد أصرخ من شدة التعب، وأنا أركض وراءه بين المدارس، يمشي ولا يلتفت. هل كان أبي يسمعي ويتعمد ذلك لكي أستعمل مخزوني المخبأ من الطاقة المتخفية؟ ربما. كلامه يجعلني أقول: نعم كان يتقصّد ذلك. كان يكرّر دائماً عليّ نفس الجملة: فينا شيءٌ كامن يا ماري، لا نراه لكنّه موجود، وعلينا أن نوقظه في اللحظات الأصعب التي تحاذي اليأس. لم أسأله عن التفاصيل على الرغم من أنني أعرف جيداً رأيه.

أركض وراءه، حتى ألتحق به.

- ما قلت لك إنك قادرة على اللحاق بي وتجاوزي؟

مشكلتي الوحيدة أن عقلي ظلّ منفصلاً عني، حرّاً كما عصافير الجليل.

حبُّ والدي كان كبيرًا، وحبِّي لهما كان أكبر، لكنّه مع الزمن، أصبح حبِّي أقلَّ من أوامر ودروس الابتدائية في مدرسة الراهبات اليوسفيات^{١٠} في مدينة الناصرة، ثم في داخلية عينطورة^{١١} في جبل لبنان، ثم في مدرسة الراهبات اللعزاريات^{١٢} في بيروت. كانت الضوابط ثقيلة وقاهرة لنداءات الدّاخل، وجّهوا حبِّي للرب، أكثر من حبِّي لوالدي.

لا للفتنة وجه آخر أكثر امتلاء.

لما كنتُ تلميذة في مدرسة الراهبات بعينطورة، كنتُ نكأُ بالقاء خطب، تساعدنا المعلّمات على إنشائها. كان هذا يدفعني إلى التّأليف، والمشاركة، والمغامرة في إلقاء الخطب التي تميّزتُ فيها بالفرنسية وبعدها بالعربية، إلى يوم ظفرت بالجائزة الأولى في الإنشاء في هاتين اللّغتين. ولما ذهبنا إلى مصر، وتسلّم والدي تحرير المحروسة، أخذتُ أنشر فيها بعض المقالات، وشرعت في تحسين لغتي العربية أكثر، من أجل الكتابة وليس الخطابة فقط. لم أقطع علاقتي باللّغة الفرنسية، فقد كانت وسيلتي للتخفّي والفرح، وقول ما لا يقال. عندما كتبت ديواني الأول^{٢٣} أزهير حلم، باسم مستعار، إيزيس كوبيا، الفرنسية كانت سرّي اللّغوي الكبير الذي تتخفّى فيه كلّ الآمي من حبِّ جوزيف وخبثته. لما قدّم الطّيار الفرنسي فيدرين إلى مصر،

^{١٠} من سنة ١٨٩٢ إلى ١٨٩٩.

^{١١} من سنة ١٩٠٠ إلى ١٩٠٣.

^{١٢} سنة ١٩٠٤.

طلب مني أن ألقى شيئاً لاستقباله، ألقىت بدل الخطب التقليدية، نشيداً بالفرنسية، نشرته الكثير من الجرائد العربية والفرنسية، شجمني هذا على المضي في التحرير والكتابة. بعض الصّدف فيها من الإدهاش ما يريح ويجعلنا نفتح أعيننا عن آخرها، بل تغيّر مصائرنا كلياً. حدث أن احتفل بتكريم الشاعر خليل بك مطران،^٢ بمناسبة إنعام الخديوي عليه بوسام سام، وكان جبران خليل جبران قد بعثَ بخطبة في الحفلة لتعذر مجيئه، فوقع الاختيار عليّ لإلقائها، فوجدتني في مجمع حافلٍ من الأدباء، أنا الصغيرة الخجولة. تخطّيت الحُمرّة التي علت وجهي، ألقىت كلمة جبران، ثم عقبت عليها بكلمة من تأليفي. استغرب النَّاس، من هذه الفتاة الصغيرة التي تعطي المنصّة بلا خوف، وتلقي كلمتها ببلاغة عالية؟ هتفوا لي هتافاً كبيراً، جعلني أزهو بنفسي. انتشيتُ بقوة وأنا أرى الأيدي ترتفع صويته، لدرجة صرّت أحلم بأن أكون أديبة كبيرة. ألم يكن جبران إنساناً عادياً، قبل أن يصبح إلهاً صغيراً؟

لم يكن جبران حبيبي الذي أسرتني كتاباته، كان أمانى، وحائطي اللغوي.

لا أعرف ما الذي حدث لأجدني ملتصقة بقلبه مرّة أخرى بعد أن دفنته في قلبي، قبل دفنه في كلماتي وتربته البعيدة؟

^٢ "كلن لم سنة ١٩١٣.

لمسة خائنة أحدثت فجوة في أعماقي يصعب رتقها أو ملؤها. برئت قلم
الرصاص وفتحت الكراسة عن آخرها.

لا أدري ما الذي قادني نحو جبران في هذا الليل الهادئ، والملي
بالسكينة؟

لقد مات مخلقاً وراءه خراباً لا يمكن فهمه بسهولة.

انتابني شهوة لم أكن قادرة على مقاومتها فقط للكتابة له، كما لو كان
حيّاً.

من بين كل الذين عرفتهم، وحدك كنت هناك، في ذلك الأفق البعيد.
علامة نور تختلف عن كل شيء، حتى نفسك، كما عرفتك في البداية. كنت
ترتدي لباساً من غيم وأشعة، لم أتبين وجهك أبداً من شدة الهالة التي كانت
تحيط بك. أتجه نحوك بحثاً ليس عنك فقط، لكن عمّا تخفيه في الأعماق لي.
هل بقي شيء لي بعد كل تلك النسوة؟ ليس المهم أن تحبني، الأهم أن تكب
لي، وتحسني بأني امرأة يمكنها أن تصبح حبيبك الأبدية، عاشقة،
معشوقة، مجنونة بسبب رجلٍ أشعرها بوجودها ثم جنتها. حلمي الأكبر
كان أن أصبح كل شيء لرجلٍ واحد، كما كانت كامى لرودان، قبل أن
يقهرها بيقينه المميت والقاتل. أنت لم تمنحني تلك الفرصة وسط جيشك
النسوي؛ إيميلي متشل، ميشلين، ماري هاسكل، جوزفين بيودي،
شارلوت تيلر، سلطانة ثابت، مارييت لوسن. أين مكاني حبيبي في هذه

الخديقة المعطرة؟ كان كل شيء فيك محتلاً من نساء أخريات. عندما صنمت أن أركض نحوك فقط لأضمك، وأرى الشهوة في عينيك، نربت من كفي ومن بين أصابعي، أو لنقل سبقتني لآتي أنا أيضاً كنت بين موتين. الموت الذي تبع وفاتك المبكرة. الأحباب يموتون دائماً مبكراً حتى لو عشنا قرونًا بصحبتهم. والموت بالتقسيم الذي أنا فيه، يوظني كل صباح، ويقنني خطاي قبل أن يُجهز عليّ يوماً ما. كل يوم يمضي أقول له شكراً إنك أخفقت في سرقة روحي. كم من مرة تعلقت الكلمات في حلقي لأقول: تعال اسرقني إليك؟ أعتقد أن العقاد، على الرغم من كل أنانيته وغيرته المجنونة من كل ما كان يحيط به من رجال، منك ومن لغاتهم، كان محقاً حينما قال لي يوماً: إذا أردت أن تعيشي مزمقي هذه الغشاوة الوهمية، اتلي كل ما يسرق حريتك. لم يكن قادراً على معرفة آتي أنا أيضاً كنت أحتاج إلى رجل يمزقها بحبه وجبروت قوته العاطفية. رجل يحبني، ويستطيع أن يفعل بها ما يشاء، ويرتقي بي نحوه، ولا يمنحني لبؤس الندم والألم والحياة.

ما الذي أتى به إذن في هذا الليل البارد دفعة واحدة كالنهر الجارف؟

كل شيء بدأ من لحظة صنعها الآخرون قبل أن تصيبي بقوة.

هناك لحظات في الإنسان تصنعها الصدفة الغريبة هي من يرمي بالإنسان نحو مكانٍ مضاء، أو نحو ظلمة داكنة.

من كان يظنّ أنّ الطفلة التي أدهشت الكثيرين، في عزّ الربيع السّاحر،
في عزّ ضجيج حربٍ عالمية، كانت تكبر بهدوء، عندما صمّمت أن تعير
صوتها لجبران الغائب بقراءة رسالته في تكريم صديقه خليل مطران،
بمناسبة تقليده وسامًا هامًا من الخديوي عباس حلمي، في ساراى الجامعة
المصرية القديمة، وحضره نيابة عن الخديوي، شقيقه، الأمير محمد، وكبار
السياسة والأدب. التفت الأمير نحو نديمه، قائلاً: يسرنا وجود الشّاعر
البعليكي في بلادنا، وسوف نقربه. وزاد بعد دقيقة بصوتٍ منخفض: إنّنا
الشّاعر طائر غريب المزايا، يفلت من مسارحه العلوية، ويجيء هذا العالم
مفردًا، فإن لم نكرمه، يفتح جناحيه ويعود طائرًا إلى موطنه^{٢٤}.

في الحقيقة، سليم سرّكيس، هو صاحب فكرة توريطي تلك الورطة
الجميلة، التي جاءت بعدها هزّات حياتية لم أكن أتصوّرها، فقد وقع اختيار
صاحب مجلة سرّكيس عليّ لإلقاء كلمة جبران، لا أدري من أين ولا كيف
جاء هذا الحماس الذي منحني فرصة أن أكبر بسرعة؟

- لا بد من ميّ، ولا أحد غيرها، صوتها يجمع بين النّعومة والثقة.

- نعم، وسيكون جبران سعيدًا أن تقدّمه امرأة من نفس كاره، ويقدرها
جدًّا.

^{٢٤} من زيادة. كلمات وإشارات. ص ٢٤

لم يكن أحدٌ يعرف - باستثناء والدي الذي علمني فنون الخطابة - أنني كنت خطيبة حقيقية، فقد وقفت للمرة الأولى ٢٧ في حياتي أمام كوخِي الأخضر، في ضهور الشوير في جبل لبنان، وألقيت للمرة الأولى خطبة احترمتُ فيها كلَّ الوقفات والتفخيمات التي علّمها لي والدي ومعلمي في مادة اللّغة العربية.

كان عليّ أن أكون مسؤولة في قراءة رسالته كما لو أنه هو من قرأها، في الحفل الكبير الذي أقيم في بهو الجامعة المصرية بمناسبة الإنعام عليه بالوسام الرفيع.

قبل سنة واحدة من هذا الحدث، وبشكلٍ غريب، كنتُ قد بعثت رسالة لجبران أعترفُ له فيها بسلطانه الكتابي عليّ. مصيري مع الرسائل خطير، كلُّ رسالةٍ سحبتني نحو دوارٍ لا أخرج منه إلا بصعوبة كبيرة، يوم كتبتها، لم أكن أعرف أنّ تلك اللحظة التي خطّطتُ فيها حروفي الأولى لجبران، ستعني تحت قدم إليّ حرّاً، لم أكن قادرة لا على احتوائه، ولا حتّى على مجاراته بعدما قرأتُ له الأجنحة المتكسرة ٢٨. عندما أقرأ رسالتي له اليوم، أجدني شديدة الغباء. كان الرجل بعيداً بسنواتٍ ضوئية عن كلِّ ما كان يحيط به: أشاركك في المبدأ الأساسي القائل بحرية المرأة، كالرجل، يجب أن تكون المرأة مطلقة الحرية بانتخاب زوجها من بين الشبان، تابعة بذلك

ميوها وإلهاماتها الشخصية، لا مكيفة حياتها في القالب الذي اختاره له
الجيران والمعارف. حتى إذا ما انتخبت شريكًا لها، تقيدت بواجبات تلك
الشراكة تقيّدًا تامًا. أنت تسمي هذه سلاسل ثقيلة حبكتها الأجيال، وأن
أقول إنها سلاسل ثقيلة، نعم، ولكن حبكتها الطبيعة التي جعلت المرأة ما
هي. فإن توصل الفكر إلى كسر قيود الاصطلاحات والتقاليد، فلن يتوصّل
إلى كسر القيود الطبيعية.

كم كنتُ بعيدة عنه في تلك الرسالة الأولى المرتعشة والثقتنة من
خرافاتنا التي أبطلت الحياة مفعولها؟

كان جبران رجلًا ضباييًا.

إله من غيم ومطر وعواصف، لم يكن عاديًا، وكنتُ عشبة خضراء، في
مهبّ الدين واليقين.

ألعن أحيانًا تلك العلاقة مع الأدب من أين جاءتني، كان يمكن أن
أتحول إلى صحفية نشيطة كما كان أبي يريدني.

تلك الليلة ٢٩ الربيعية كانت مذهشة، كانت حاسمة في تكويني، غبّرت
كلّ شيء في نظامي الحياتي.

كان حفلاً كبيراً، أرى اللحظة كل تفاصيله ووجوهه. وزير المعارف، حشمت باشا، والعالم اللغوي الكبير توفيق رفعت، وعبد الوهاب باشا آل قرطاس، مبعوث البصرة، وعلي صادق، وكيل محافظة القاهرة، وإدريس بك راغب، السياسي الكبير، ونعوم بك شقير، مدير قلم التاريخ في حكومة السودان. كان الحفل حدثاً، وكان عليّ أن لا أخطئ في أية حركة، ذلك يعني الموت بالسكنة الفجائية.

افتُتح الحفل الكبير بالترحيب الاعتيادي.

- وإنما إذ نرحب بأساطين الفكر ورهبان القلم، حَمَلَة مشاعل المعرفة من كبار الكتاب والأدباء، وأهل الفكر والثقافة والصحافة والسياسة، والذين، من شتى بلدان العالم العربي، والآن نحن على موعدٍ مع أحد حراس الفكر ورعاة الأدب، ليتفضل صاحب السعادة سمو الأمير محمد علي توفيق باشا، نيابة عن مولاي الخديوي عباس حلمي الثاني، وحين يكون عرس الليلة من أجل خليل مطران، فلا بد أن يُشارك بالكلمة أجباء وعشاق مطران ورفاق رحلته مع الكلمة الرقيقة. نعتز بلا حدّ بالأرجوزة الرشيقة التي أرسلها من المهجر الشاعر الفنان الأديب المعجزة، جبران خليل جبران، فقد بعث أيضاً من بوسطن بأمریکا، برسالة عنوانها الشاعر البلبكي. ومن هنا، من سراي الجامعة المصرية تشدو لكلماته بيتنا، الأدبية الشابة رقاقة الكلمات، عذبة الحديث، أسرة الجميع؛ الأنسة مَيّ.

قرأتُ، وكنْتُ مثل طيرٍ في الفضاء الواسع، لا قوّة تمنع تخليقه.

في ذلك اليوم ولدتُ.

كان التصفيق بلا حدود، لدرجة أن بقيتُ زمناً طويلاً واقفةً وأنا أحاول
أن أكنم دموعي التي فاضت بعد الإلقاء.

كان أبي في أقصى درجات السعادة يومها، وهو يقرأ بصوتٍ مسموعٍ من
صحيفة الأهرام، عن النشاط وعني، بينما ظلَّت أُمِّي الحبيبة نزهة غارقة،
تقرأ المقطع، والمؤبد.

اسمع يا إلياس شو عم بتقول الجريدة: مَيَّ أخذت بمجامع القلوب،
وحركت العواطف، فاستعاد الحضور جملها البهية، وعباراتها الرقيقة.
يحكون عن مَيَّ أكثر من مقتل الدبلوماسي الإنجليزي.

- الاحتلال أقسى شيء على الشعوب، يا نزهة. يتحمل الناس ثم فجأة
تصير مو فارقة معهم، يرمون بأنفسهم في أتون النار وحرارتها التي تسع
رقعتها بسرعة. اليوم دبلوماسي، وغداً ثورة بلا حدود.

كنتُ سعيدة بتصريحات من حضروا، لكنني كنتُ في أعماقي، مشدونة
إلى شيءٍ آخر.

- بدني أعرف بس شو كتب عني لطفني السيد؟

فهمني أبي بسرعة.

- لظفي السيد يقول التالي: أَلقت ميّ خطبة بليغة، لا يعرف أيّها كان له الحظّ الأكبر والتأثير، بلاغة الخطبة أم فصاحة الخطبية وحسن إلقائها؟

- يا الله، كم هو كبير هذا الرّجل!

تلك كانت وسيلتي الجميلة لأقول لجبران، إلهي الصّغير، كم أنت كبيرٌ في حضورك وفي غيابك.

وجدتني فجأة في مدار رجلٍ موزّع بين نساءه وحبيبته الوحيدة، الحرّية، مات وهو يحضّنها في أمريكا.

كانت له نساؤه وكانت لي أوهامي، لهذا توقفت^{٢٠}، لأكون لنفسي. وتوقّف هو بكلمة حفظتها عن ظهر قلب: الأفضل أن نبقى هنا، هنا في هذه السّكينة العذبة، هنا نستطيع أن نتشوّق حتى يُدنيا الشوق من قلب الله^{٢١}.

عاش بين عشرات النّساء مغنمًا شهواته وجنون ألوانه، وعشتُ بين عشرات الرّجال اشتهنوني، دفعة واحدة. رجال كانوا بصدد صناعة عالم جديد، كلّما اقتربت منهم، صغر الكثير منهم. كنتُ مدركة للعبة الشهوة التي سجنتها في أعماقي مدارس الرّاهبات. إكتشفتُ وأنا بينهم في الصالون، أنّ هذا العالم الجديد الذي كانوا يبشّرون به ليل نهار، محكومٌ عليه

^{٢٠} بدأت هذه المراسلات بينهما، في سنة ١٩١٤، وتوقفت في ١٩٣١.
^{٢١} رسالة جبران إلى مي موزّخة في تشرين الأول ١٩٢٣.

بالموت اختناقًا، اليوم أو غدًا أو بعد مائة سنة، ما دامت المرأة لا سلطان لها فيه، ولا تشترك في صناعته. تمنيت أن أصرخ بقوة حتى تقطع أحبال الصوتية: أيتها الرجل، لقد أذلتني، فكنت ذليلاً، حررتني تكن حرراً^{٢٢}. لكن لم يكن يسمع إلا لأنانيته ولحدائه جبانة صنعها على مقاسه، كنت أدرك أن سنونوة واحد لا تصنع ربيعاً^{٢٣}. من يشكك في لطفي السيد، إسماعيل صبري، أحمد شوقي وحافظ إبراهيم، خليل مطران، عباس العقاد، صادق الرافعي، أحمد زكي، رشيد رضا، مصطفى عبد الرزاق، سلامة موسى، شبلي شميل، إسماعيل مظهر؟

عندما انتهيت من قراءة رسالة جبران على مسمع الجميع، اندهشت من الناس الذين صفقوا بقوة لي.

أفرحني كثيراً أتى أصبحت فجأة مهمة وامرأة في المدار، عندما قام الأمير محمد علي توفيق، وصافحني. ما أزال أذكر كلمته الكبيرة:
- أنسة مي، إننا نهنئ أنفسنا بك.

كبرت بسرعة كفاكهة سرقت منها العديد من مراحل النضوج. عندما رأيتني أنضج من خلال الجرائد التي تحدثت عني كثيراً، ومن خلال السنة

^{٢٢} كلمات وإشارات. ٤٠-٤١

^{٢٣} مثل فرنسي. Une hirondelle ne fait pas le printemps.

الكثير من كبار الأمة، كان عليّ أن أرمم كلّ الهزات العنيفة والشروخ التي أحدثتها الشهرة المبكرة.

الحياة في النهاية ليست ما يظنّه فينا الآخرون، حتّى ولو كانوا صادقين، لكن ما نصنعه بها نحن.

أخرجني فجأة من غفوتي، الصّوت المجرّوح والمبحوح، الذي كان يأتي من ناحية مباني الأقواس:

- حرام يا ربّي، حرام أن تنظر إليّ كمن يتسلّى، ولا تصرخ، تمامًا مثلما فعلت مع سيدنا المسيح، لماذا؟ ألم يكن بيدك أن تنقذه من قبلة الخيانة، وحراب الروم؟ حرام، لماذا تركتهم يقتلون حبيبي ويرمونّه من أعالي جبل الثلج ليتحوّل إلى أجزاء أكلتها الذئاب الجائعة؟ قتلوني إذ قتلوه.

أحاول عبثًا أن لا أسمعها، لكنني لا أفعل شيئًا آخر سوى سماعها.

(٣)

مدت بلوهارت يدها بعد أن أنهت دورتها الصباحية، نحو الكتاب الذي كان ينام على الطاولة الصغيرة. مراسلات كامي كلوديل. هي من أنثى لي به من مكتبة العصفورية. تأملته قليلاً، ثم أرجعته إلى مكانه.

سألتني:

- هذا الصباح بدوت لي أفضل، وهادئة بعد عاصفة الأيام الأخيرة؟
يجب أن يتوقف هذا التعذيب.

- تتفقين معي أنه تعذيب؟

- ما دام فيه رفض منك للأكل، نعم. يُفرض عليك ذلك بالقوة حفاظاً عليك، لا يمكن إلا أن يسمّى كذلك.

- أنا أعرف أن قلبك صادق وحيّ، لهذا أسمعك جيّداً. ظلموني يا بلوهارت، ظلموني جيّداً لدرجة أن حولوني إلى مجنونة. إلى الآن لستُ مؤمنة بأنّ ما حدث لي هو مجرد صدفة، ترتيب جوزيف لم يكن عبثاً، لقد استولت العائلة على كلّ شيء. لو غادرت اليوم العصفورية، لن أجد ما أكله. كلّ شيء أصبح محرماً عليّ، الحُجْر الذي وقّعت عليه، لا يمنحني أيّ حقّ. حتى أصدقائي تخلّوا عنيّ، وبدل أن يدافعوا عنيّ، راحوا يكيلون لي التهم القاسية، وجعلوا من كآبتي مادّتهم لذبحي.

- أعرف هذا كله يا ممي، لكن بإضرابك أنت تخدمين أعداءك، تمنحينهم فرصة قتلك على طبق من ذهب. أوقفني الإضراب عن الأكل، عودي إلى حياتك الطبيعية، انسِ أنك كاتبة، وأنهم سيعرفون الحقيقة من تلقاء أنفسهم. الجمل عندما ينوخ، يكثر ذباحوه. يمكنك أن تغتري هذه الخيارات الانتحارية، نحو شيءٍ آخر أجمل.

- سوزي حبيبي أشعر بأنّي مقتولة في الصميم، ومظلومة جدًّا!

- الظلم لا يُواجه بانتحارٍ يسهل الحياة على قاتلك، هناك حلول أجمل

وأبهي.

- وماذا عليّ أن أفعل؟

- أن نحرك من هم خارج العصفورية، في لبنان وخارجه. الكثير من الجرائد تحدّثت عن كاتبة انتهت إلى الجنون، ومتحمّسة أن تنزل المانشيتات عن جنونك وعن قتلك الأطفال وعضّ الحديد، كلام لا معنى له نقرأه يوميًا. أنا مؤمنة بك، لهذا أريدك أن تثبتني للآخرين أنك في كامل قواك العقلية، وأنت ظلّمت، وأكون أنا وسيطك في هذه الرحلة الشاقة، أوصل بريدك أو أتيك به إلى كل من تريدين، في بيروت وضواحيها.

- الصحافة باعنتي يا سوزي، وخيرة أصدقائي ولّوا وجوههم عني صوب الفراغ، كنت أحسب حسابهم، لكنهم تخلّوا عني، فشككت في صداقتهم. ماذا لو كتب طه حسين عني شيئًا صغيرًا، سطرين لا أكثر، جأ

في هذه الصداقة؟ ماذا لو كان العقاد وفيًا لحب نبت كبيرًا، قبل أن يموت بسرعة، قتلته غيرته المميتة من جبران؟ كانت حديثنا المريض في كل مكان بعد أن قرأت فصوله، انتابني جفوة تجاهه. رأيت نفسي غيرته بوضوح. قلت له صراحة وهو يسخر من كتاب المواكب لجبران: لاحظت قسرك على جبران. انتفض صارخًا: العكس هو ما يفاجئني، أما أن تدافعي عنه فذاك طبيعي. ثم ماذا لو انتفض لطفي السيد الذي كنت أعرف إخلاص وقلبه الجميل؟ ولماذا صمت الرجل الذي يقول إنه جنّ بي، مصطفي صادق الرافعي؟ وووو.. أيعقل أن يكونوا كلهم مثل بعض؟ كيف استسلموا لصحافة كاذبة وهم أعرف الناس أي لم أكن مجنوناً؟ مُتَعَبَةٌ جَدًّا نعم، لكنني أقاوم السقوط في هذا الجنون الذي فصله لي جوزيف عن مقاسه ومقاس العصفورية.

- وعلى الرّغم من ذلك، هناك صحافة تناصرك على قتلها. إذا كنت تثقين في، سأكون في خدمتك خارج هذه القلعة، وستلاحظين أن العاد سيتغير بسرعة. يجب أن يوضع الناس أمام ضمائرهم.

- من يسمعي بعد كل هذه الحملة المسعورة؟

- هناك دومًا شخص معني بك، ربما لا تعرفينه. هل نسيت جهنم تجاه المرأة وحربتها التي اعتنقتها بحماس، واعتنقتها العشرات مثل، من الشابات والشباب؟ هؤلاء يحملونك في قلوبهم. أعطهم فرصة الدفاع عنك. وإضراباتك المتكررة لن تفيدك في شيء، بدأت تتحول إلى فعل متكرر.

ستعويدين عليه أنتِ نفسك بلا طائل، بعد أن تعود عليه بعض أطباء
المستشفى والمرضات.

لا شعوريًا وضعت يدي على كتاب **مراسلات كامى كلوديل**، تأملت
وجه بلوهارت وعينيها.

- كم تشبه عيناها عينيك!

- هل كانت كامى كلوديل مجنونة؟ نسختان من مراسلاتها، كانتا في
المكتبة. يوم طلبتُ الكتاب لك، استلفت النسخة الثانية. كنت أعرف أنك
لم تختارها هباء. الغريب، وجدت شبهًا كبيرًا بينك وبينها. شيء ما غامض
كليًا، وضع هذه المصائر المتقاطعة في نفس المسالك. حزنت لوضعها
القاسي. لا أقول إن مصيرها يشبهك، لكنّها مثلك عانت وما زالت تعاني
من ظلم مجتمع الضغينة. سيّدة في كلّ عقلها تُرمى في مصحة عقلية
معزولة!

- أحبّت رودان إلى درجة الجنون. صاحبة هذا الجسم الرّخامي المقلد:
راقصو الفالس هو لها، جاءني به القنصل الفرنسي في إحدى جلسات
صالوني المخصّصة للأدب والثقافة الفرنسيين، وكأنّه كان يتوقّع لي مصيرًا
مشابهًا. في الحياة لحظات غريبة وإشارات لا ندرك معانيها إلا بعد زمن،
وربّما حتى بعد فوات الأوان. لقد كان مقتنعًا داخليًا بأنّ شيئًا ما كان

يجمعنا. أمها وحتى أخوها ورودان رموها في ذلك المكان العفن وتركوها
تواجه مصيرًا قاسيًا لم تكن قادرة عليه.

في السنة التي ولدت فيها كتب لها هذه الرسالة، في سنة ميلادي ١٩٤٢م
هي شبيهة برسالة جوزي:

صديقتي المتوحشة!

رأسي المسكين مريض حقيقة، لا أستطيع القيام صباحًا. ركضت هذا
المساء ورائك دون أن أعثر لك على أثر ولا على أمكتتنا. ما أنعم الموت إذ
يأتيني مع احتضاري الطويل. لماذا لم تنتظريني في الورشة؟ أين ذهبت؟ ماذا
تحتج لي الأقدار من آلام؟ أمر بلحظات نسيان تعيَّب بعض آلامي، ولكن
اليوم أصبحت هذه الآلام ثابتة. كامبي؛ حبيبتني، على الرغم من كل شيء
وعلى الرغم من الجنون الذي أراه قادمًا نحوي، بسبيك، إذا استمر الوضع
على ما هو عليه. لماذا لا تصدقيني؟ سأترك صالوني، النحت، لو استطعت
أن أذهب إلى أي مكان، إلى بلد النسيان، لن أتردد، لكن هذا المكان غير
موجود. في بعض الأحيان أشعر أنني سأنساك حقيقة، ولكن في لحظة هاربة
أشعر بالقوة العظمى. ارحمني أيتها الشريرة، لم أعد قادرًا على تحمل غيابك
يوماً واحداً. وإلا فالجنون القاسي هو مالي. انتهى كل شيء، لا أعمل، ومع
ذلك، فأنا أحبك بجنون. حبيبتني كامبي تأكدي أن لا امرأة لي أصادفها

١١ فبراير ١٩٨٦.

غيرك، وكلّ روحي ملكك. لا أستطيع إقناعك وحججي واهية، على
ركبتي أنحني أمام جسدك الأسره^{٣٥}.

- هل كان يكذب بكلّ هذا الشجن؟

- لا أعرف! ولكنني عندما قرأت رسالته لعاملته وصديقتة وحبيته التي
أنجب منها، روز بوري^{٣٦} التي كان يقول لها دائماً ملاكي الحبيب، في
رسالته من بروكسل. يقول الكلام العاشق بلا مسؤولية وهو ما دمر كامى
كلوديل وجنتها بينما ظل كبيراً وضخماً، يعقد في الصفقات وينام مع
عشيقاته وعاملاته من دون خوف ولا ملل.

- إلى هذه الدرجة وأكثر، يكاد رودان يكون إلهًا في النحت الفرنسي.

- إله من جنون. أنا مؤمنة أنه لولا كامى كلوديل لظلّ خشناً في
منحوتاته، هدّبت ذوقه وأنستته، بينما دمرها ودفع من ورائها أهلها،
بالخصوص أمها التي كانت تكرهها، ففضوا عليها بوضعها في مستشفى
المجانين. لقد قتلوا الذكاء والنور والرفافة والهشاشة يا بلوهارت. تستحق
مصيراً أفضل من هذا.

أعدت بلوهارت السؤال من جديد:

^{٣٥} Camille/ Auguste, Je couche toute nue P :51.

^{٣٦} Rose Beuret.

- لهذا أكرّر وأعاود: تموتين من أجل من؟ ومن أجل ماذا؟ من أجل جوزيف؟ لا يستحق. خانك وباعك وحطّمك، ورماك هنا، ثم انسحب وكان شيئاً لم يكن. نصيحة واحدة؛ كلّ الناس يقولون هنا ما الذي أتى بك إلى هذا المكان؟ أنتِ لست مجنونة، ولكن موجوعة، وهذا أفهمه. أوقفي الإضراب عن الأكل يا مّي، وقاومي. طالبي بحقك بوسيلة أكثر تعقلاً وفاعلية. غير ذلك، ستعيشين حياة التكرار: صراخ وشتائم وقبح مدلم شوكت، وحقنة المورفين الخشنة، رميك في غرفتك نصف مية، ثم النوم إلى أن يتعب غحك وتدخل في مرحلة الهذيان والجنون الحقيقي. هل أنتِ مستعدة للبقاء في هذا الوضع؟ عذراً، أطلتُ كثيراً، أعرف أنه ليس من حقّي، لكنني أحبّك لهذا سمحت لنفسي بهذا الكلام. ما عدا ذلك، أنت سيّدة مصيرك وشأنك.

- أريدكم أن يتوقفوا عن تعذيبي، لقد قتلوني يا بلوهارت.

- أعرف، لكن ليس لدي ما أضيفه، أنت سيّدة قرارك، الانهيار العصبي ليس جنوناً، حالة لها مسبباتها، لكن إهماله يمكنه أن يجعل الإنسان يتقل إلى مرحلة أخطر.

كانت عيناها تلمعان ببريق خاطف قبل أن تنهرا دموعاً.

- حقيقي لا أملك غير هذا، نريدك حية في معاركك النبيلة ضدّ الفتنة وأعداء الحرية والخير.

ثم سحبتني من يدي بأصابعها الناعمة، وضمتني إلى صدرها. سمعت
نبضات قلبها الطفولي.

أكثر من هذا، فقد شعرت بانتفاضة جسدها ودفئه ونعومته.

كم كانت بلوهارت قريبة.

(٤)

يصفو قلبي من كل غيم، أراها بكل ملاحظتها.

لا أدري ما الذي أيقظها في؟ ربّما أصابعها الناعمة، وجسدها الحي.

شعرت بها في، أقرب من همسة أو لمسة، بل إنّي شممت فيه عطر صديقتي في عينطورة؛ هيلينا، التي تكبرني كثيرًا. كانت تمثل دور أمي. كانت كل يوم تقوم بشيء من أجلي، أو تأتيني بهدية ما، كانت تغار عليّ وتعاقب كل من تقترب منّي بشكل مبالغ فيه. هناك عادة عند راهبان عينطورة، وذلك بأن تعين لكل صغيرة دون الثانية عشرة؛ من الفتيان اللواتي يكبرنها. ماما هيلينا كانت هي أمي، في قاعة الطعام أجد دائمًا درجي مملوءًا بالفاكهة والحلوى، في قاعة الدرس أجد تمثالًا للعدراء، أو مندبلاً معطرًا وملونًا، وكلّما فتحت كتابًا وجدت بين صفحاته أشعارًا ومقاطع من أغاني وجدانية، وعلى وسادتي كل مساء زهرة، وتحتها ورقة عليها كلمة أحبّك، وكلّما كنتُ حزينة أخذتني للبيانو وشبكت أصابعي بأصابعها، وجسدها ملتصقٌ بجسدي، ثم تلامسني وتقترب أكثر وهي تقول: لا، ليس هكذا العزف. تضع يدها فوق يدي وأنا أضغط على ملامس البيانو، أنهو قليلًا مع رعشة جسدها. لا يا روعي، إصبعك متصلب شوي، لازم يتحرك شوي. لحظة. تُقبّله، ثم تمصّه قليلًا العديد من المرات ثم تدخله في أعماق فمها ويدها الثانية في أعماق حجرها. أشعرُ برعشة جسدها وأسمع

اعماقها المحروقة. هيك إصبعك بيصير أخف وأجمل وأكثر قابلية على العزف. أقول لها: مليح يا ماما، أفضل شوي. وأنا غير مؤمنة بما أقوله لأن إصبعي ينتفخ وأكاد لا أحس به. في البداية كنت أنفر من ذلك، مع الوقت أصبحت أمد إصبعي تلقائياً قبل أيّ عزفٍ وأجد متعة في القول لها:

- ماما هيلينا، بدي أعزف. فيك تمصي أصابعي.

- انتظري شوي حبيبة قلبي، بس تفرغ قاعة البيانو من الأطفال، أروح أنا وأنت.

أصبحت لا تعزف إلا قليلاً، ثم تجلس على ركبتيها، وتبدأ في مص أصابعي واحداً واحداً، ثم اثنين معاً، ثم ثلاثة معاً، ثم الخمسة. حتى أشعر بأن فمها سيتمزق. لا أدري بماذا كانت تحس وهي تغيب في المشهد؟ تأخذ أصابع يدي بيد واحدة وتدفن اليد اليمنى تحت لباسها، بينما أصابعي في اليد اليسرى في فمها، ثم تمصها جيئةً وذهاباً. وقبل أن نعزف تمس لي:

- مامتك أنا حبي حتى الموت، شكراً لهذا الاستسلام يا صغيرتي، الطاعة واجبة إذا أحببت تتعلمين بسرعة. دقيقة كهذه تعوضني عن صفاء أسابيع، لحظة واحدة كافية لإسعادي.

في ليلةٍ من الليالي كان دورها للإشراف على ترتيب ردهات النوم. كنتُ في البيانو، فركضتُ نحوي. كنتُ منغمسة في موزارت التي صرّت أنقنها

بفضل ماما هيلينا. عندما لاطفت شعري من الورا، صدرت مني حركة لا شعورية:

- اتركيني.

- ماما هيلينا لا يُقال لها اتركيني، أيا كان السبب.

- عذراً ماما هيلينا.

- عدلي جلوسك حبيبي إذا أردت أن تعزفي جيداً. علام تبكين؟

- بدي نام، اشتقت لماما وبابا.

ثم تركتني أنام على صدرها. كان المكان شبه مظلم.

- مش قادرة أعزف.

- خلاص نامي يا روعي، وبكرة نعاود العزف.

هممتي ثم مكيجتني على غير العادة.

- الليلة أنت لي.

همست في أذني.

- أريد أن أكون لك ماما هيلينا.

ضمتني، ثم قادتني نحو غرفتي. انزلت معي في سريري، فهي في
النهاية أُمِّي؛ ماما هيلينا. مسدت على رأسي، ومررت أصابعها على شفتي،
وهي تتمتم:

- أنا أمك في الدير، وحبّية قلبك في السرير.

- أنتِ أُمِّي في الدير.

رغم التّفور الذي واجهتُ به قُبَلَتها في البداية، إلا أنّي سرعان ما
استسلمت لها، شعرتُ بلدّة لم أعرفها من قبل. قُبَلَتها لم تكن تشبه في شيء،
قبلة أُمِّي، ولا ضمّتها أيضًا.

فجأة امتلأت قاعة النوم ضوءًا، فبدأ ظلّ الراهبة الكبيرة، الماما الكبيرة،
المفتّشة، واضحًا ومستقيمًا، ونظرتها حادة:

- أهل هذه هي الصّورة التي تقوم فيها كلّ منكما بوظيفة الأمومة
والبنوة؟ الاختلاء بين تلميذتين محرّم وممنوع. كيف وأنتا متعانتان في
الظلمة؟ أهكذا أنتِ الكبيرة تؤدّين لابنتك المثل الطيّب في الطّاعة واتباع
النّظام؟ غداً أحدث الأمّ الرّئيسة بشأنكما، لن تكوني أُمّها بدءًا من هذه
اللّحظة.

ثم التفتت نحوي وكأُتها تكتشفني للمرّة الأولى بعينيها اللتين تشبهان
عيني ثعبان:

- وأنتِ يا صغيرتي، ما هذا التأتق؟ ما هذا الشعر المتهدل على جبهتك ووجهك، وهذا الشريط الأزرق المعقود على عقرب الشعر، فوق العين؟ غداً تضعين شعرك الجميل في الشبكة السوداء، وترتدين المئزر الأسود ذا الكمين كسائر زميلاتك. أحظر عليكِ مخاطبة ماما هيلينا أو الردّ عليها إذا خاطبتك، ريثما تتخذ الأمّ الرئيّسة قرارها بعد أن أخبرها بأنّي ضبّطت هيلينا تقبلك في الظلام. وأنتِ في الدير لا يُفرض عليكِ إلّا الترتيب والنظافة والبساطة في كلّ شيء، فقط. الباقي كلّه ممنوع منعاً باتاً.

- هيلينا لم تقبلني على شفّتي، كانت تضمّني إلى صدرها لأنّي اشتفت لأمّي كثيراً وبدأت أبكي. تعطف عليّ لأنّي وحيدة ومريضة. ضمّمتي بين ذراعيها ونوّمتني على صدرها الطيّب.

- اخرسي، وقحة. اذهبي إلى سريرك، وانكّمي. أنا أرتي الأفاعي هنا. اركعي واستغفري الرّب قبل النوم.

- يا ماما، هيلينا لم تفعل ما يؤذيني، كانت نعم الأمّ.

- تكذّبين، اخفضي بصرك، رأيتكما معاً، كانت تقبلك من شفّتك. عندما تكبرين ستعرفين سبب هذا الطرد لهيلينا.

لأول مرّة أرى ماما هيلينا تبكي بدموع حارقة.

لم أكن منزوعة أبداً مما فعلته معي. مسحتُ عينيها كما تفعل صغيرة ترى أمها تبكي أمامها. عانقتها، ضممتها إلى صدري طويلاً، أحسست بانفداع نهديها السخيين نحوي. منذ ذلك اليوم لم أرها.

في آخر الليل من اليوم الموالي، عندما نام الجميع، ذهبت نحو البيانو القديم، بذيله الطويل. جلست في الظلام دون أن ألمسه، كانت أصابعي منجمدة. تذكّرت شفتي هيلينا. شيئاً فشيئاً بدأت المسه صعوداً ونزولاً، من أدنى البيانو إلى أقصاه، أحركه بسرعة وبلا نظام. رأيت تسارع مصها لأصابعي، ثم يدها اليمنى وهي تخنفي تحت لباسها الرقيق. أسندت بعدها رأسي على خشب البيانو قبل أن تنهمر عليه دموعي. لكن ظلّ ماما هيلينا ظلّ قريباً مني. رأيت آخر مرة عينيها وهما تميلان نحو البياض كعيني من يحتضر، ورأيت جسدها يتراخي كأنه كان ينحدر نحو جحيم كان من الصعب مقاومته.

حاولت أن أنسى كل شيء، وأتفرغ لحياتي التعليمية. غادرت مدرسة راهبات الزيارة في عينطورة، واستقرّ بي المقام في مدرسة الراهبات العازاريات في بيروت.

بشكلٍ غير مُنتظر، وصلتني من ماما هيلينا، رسالةً واحدة، أولى وأخيرة، سلّمتها لي إحدى صديقاتي. حفظتها عن ظهر قلب: محبوبتي ماري، كبرت أكثر وكبرت قليلاً، أحبك أكثر من حبك لي، لكنني أغار من ابن عمك الذي تحوّل إلى وكيلٍ عليك كأنه زوجك، طالب الطب، ذاك

الذي يزورك كل أسبوع ونحن مجتمعات معاً في ردهة الاستقبال مع أهلنا وأقاربنا. عندما رأيتك معه آخر مرة يوم افتتاح المدرسة ورأيتك تقبيلني بلهفة لحظة الوداع، ويقبلك بنفس الشّره. التوى قلبي. أموت كلما فكّرت أنك تحببته. أيمكن أن تحبني حداً غيري؟^{٢٧} لو أمكنني قتله ساعتها، ما ترددت.

الغريب أنّي لم أبحث عنها، وكأنّ موضوعها انتهى في داخلي. ماروتني رسالتها القصيرة، كان حقيقياً، لأنّ ابن عمّي جوزيف؛ الذي كان قد سرق قلبي، كان مأخوذاً بي. كان يدرس الطبّ ويحلم لنا بأجل اللحظات، حدّدنا حتّى المكان الذي نبنى فيه بيتنا في شحتول، على رأس المرتفع، جث نرى كلّ الناس، ولا يرانا أحد.

قيل لي لاحقاً إنّ هيلينا انتحرت، لكن كنتُ قد قتلتها قبل ذلك بكثير.

^{٢٧} معترجة من قصة الحب في المدرسة.

(٥)

أعلمتني الإدارة بقدومه، كنتُ أنتظره.

دخل البروفيسور ميلر، يتبعه فريقٌ طبيٌّ بكامله، لم تكن على وجوههم أية علامة من علامات الحيرة، كانوا منطلقين في أحاديثهم، بينما كنت سجيئة خوفي من أن أموت في هذه القلعة ولا يسمع بألمي ونداءاتي أحد.

اقتادوني كالتسجينة، نحو القاعة الكبرى، قاعة جميلة، معطرة ونصف مضاءة. جلس الدكتور ميلر قبالة كرسي فارغ، طُلب مني الجلوس عليه، كان عريضاً ومريحاً، بينما وقف بقية الفريق الطبي وراء البروفيسور ميلر في شكل نصف دائري، كأنهم يأخذون صورة عائلية قبل الفراق، ثم أمرهم بالجلوس في نظامٍ يشابه ما رأيته في هيكل الشرق الماسوني؛ في باريس.

أقابلهم بصمت، تحت ضوءٍ قليل.

لم يكن وجه البروفيسور بارداً كبقية أطباء العصفورية، باستثناء سوزي، حسيبة قلبي بلوهارت. أكثر من ذلك، فقد شعرت بشيء من الحنان في علامات وجهه وملاحظه.

انتظرتُ طويلاً قبل أن يسألوني أسئلة باردة لم أكن أملك لها أي جواب، كنتُ خارج منطق الجنون الذي زجوني فيه. لماذا أنتِ مصرة على الإضراب على الأكل وتكتفين بشرب الماء؟ ما الشيء الذي تشعرين به أنه كان السبب

الجوهري الذي أدى بك إلى هذه الحالة؟ تحصلت على الكثير من حقوقك، حق الاطلاع على الصحافة، حق الكتابة على الورق، حق العزف على البيانو، حق التجول مرفقة بممرض أو ممرضة من المؤسسة، فلماذا هذا الانتحار؟ هل تظنين أن هذا سيمنحك شيئاً جديداً ويحل مشكلتك؟ أنت لست متهمه بشيء، لماذا الخوف؟ الجنون مرض بعضه يداوى، وليس جريمة. ما هي الكوابيس التي ترينها، وما شكل الأحلام التي تتكرر معك؟ هل تؤمنين أنك مجنونة؟

هل أومن أني مجنونة؟ ههههه، هل هذه غباوة الطب كله، أم إنها غباوة الأطباء المسطرين أمامي كمجموعة مافيوية تحاسب أحد زبائننا، بعد أن وشي بهم؟ أشكال تشبه الفخار الصيني.

كانوا خمسة، كأثم طلبة تخصص طب، في حالة تربص، إذ بدت لي الكثير من أسئلتهم سخيفة وغبية. حاولت أن أقنعهم بأنني في كامل نواحي العقلية، بأحاسيسي وحركاتي وأصابعي وإشارات عيني. أنا لا أفعل شيئاً سوى مقاومة هذا البؤس الذي جروني نحوه. لم اختر شيئاً، ولم أقتل أحداً، هم من صنعوا لي قدرًا يشبه قسوتهم الداخلية.

كان صوتي يرتفع أحياناً، فقط ليسمعوني ويسمعوا قلبي الذي كان في حالة غليان، ليتفهموا إضرابي عن الطعام الذي لا يفيدني في شيء. لكنني كنتُ كلما توغلت في محاولات الإقناع الذي ينتهي بالصراخ: وحياتكم من مجنونة، أهلي زجوا بي هنا ظلمًا وانعدامًا، كل ليالٍ أذبح بسكين حاف، لكن

لا احد يسمعتني. بدوت لنفسي مجنونة حقيقة قبل الأطباء المتجمعين حول البروفيسور ميلر.

من عيونهم المرتعشة، يبدو أنه لا أحد منهم صدق كلامي الهادئ، ولا صراخي الحاد على الرب يسمعتني. لا أحد استمع إليّ. أكثر من ذلك، في لحظات اليأس، كنتُ أشعر بأنّ الرب نفسه كان متواطئا مع ظلم العصفورية.

نظر إليّ البروفيسور ميلر، ثم أحنى عينيه نحو أوراق الملف الذي كان بين يديه.

- لسنا أعداءك يا ماري، بعد كلّ الذي حدث لك، وما تعانينه حتى اليوم، نحن هنا فقط لسماحك يا مّي، ورفع تقرير للجهات المسؤولة المخولة بتقييم الوضعية، هم يريدون أن يعرفوا الحقيقة.

لا أدري من أين نزلت عليّ حالة الهدوء الكبير فجأة، وكأني كنتُ في إحدى جلسات صالوني!

- يا بروفيسور، أتمنى أن يتّسع قلبك وصدرك لي.

- آنسة مّي، نحن هنا لذلك.

- لا تظن أنني أهذي بروفيسور؟ أنا هنا عن طريق الصدفة، وربما الغلط، متأكدة من ذلك. قصّتي لا تتعلّق بالجنون، ولكن بمجموعة من

الأخطاء، انتهت بي إلى السقوط في شرك لعبة قاسية، أكبر مني. لقد استولى بعض أقاربي على مالي وبيتي العائلي وأراضينا، وحجروا عليّ، ثم رموني هنا من خلال سلسلة من التواطؤات السرية، صفقة لا أملك كلّ خيوطها، من داخل هذه العصفورية نفسها، وآلا كيف استمعوا إلى جوزيف ساعات طويلة، ولم يسألني أحد عن الجرح الذي يصعب أن يندمل، عن رأيي فيما رواه ابن عمي الذي أعماه الطمع، هو وعائلته؟

- هل أجبرك ابن عمك على شيء؟

- لم يجبرني، لكنّه استغل سذاجتي، وثقتي فيه، تعلقت به.

- ألم تعطهم حقّ تسيير أملاكك أمام باشكاتب القاهرة؟ فلماذا تخجنين عن شيء كنتِ أول من وقع عليه؟ أنت من منحهم حقاً لم يكن لهم. بحسب الوثائق، لم يكن هناك أيُّ إكراه.

- بروفيشور، هل هناك إنسان عاقل يوقّع على موته بيده؟

- لا أعرف جيّداً، لكنني مستغرب مع ذلك اطيّب، لماذا وقعتِ؟

- كنتُ غبية، كنت في حالة انهيار كليّ. أقرّ بانهيار العنصر بعد وفاة أمي، آخر حيطاني، لكنني لستُ مجنونة. أحاول الهرب من المكان لأنّ يذكّرني بوالديّ اللذين فقدتهما تباعاً في ظرفٍ مأساوي. جاءني شخص من أنسابي المرافقين له، كانوا يقيمون في بيتي، تخيل؟ كتب النصّ وجعلني أوقع عليه. رويت كلّ شيء منذ اليوم الأول في هذا المكان، بلا جدوى، لهذا

أضربت وما زلت. أقسى شيء في هذه الدنيا أن تشعر بنفسك خارج المدار، تنام وحيدًا وتموت وحيدًا. أشعر باليأس يا بروفيسور ميلر، والرغبة في الموت السريع، لتفادي أي احتضار أو عذاب.

يبدو أن هناك قانونًا طبيعيًا يجري على الكّل، أصبح قاعدة، من كثرة محاولة إقناع الناس بأن عقلك سليم، تفاجأ بأنك تزج بنفسك في الخانة التي وضعتك فيها هم أصلًا، حتى قبل أن يزوروك. لا أحد منهم يحاول فهم ما يجري أمام عينيه، لكنهم يعملون فقط على تثبيت الجنون. في النهاية يسخر الجميع من جنونك، ثم يمضون، ولا يلتفتون وراءهم، بعد أن يرموك في مكان الموت الصامت.

قال أحد الأطباء الشباب، من المرافقين للبروفيسور ميلر:

- يا آنسة ماري، نحن نسمعك بجدية، ولكن ألا ترين أن كلّ ما قلته بقوله جميع المجانين؟

- ومن قال لك إنني مجنونة؟ من أعطاك هذا الحق؟ خلاص أنت أيضًا جئت لتفهم حالتي بحيادية فصنفتني منذ اللحظة الأولى؟ كلّمكم تقتلونني بنفس السلاح الجاهز، ما عليهش، عليّ أن أؤمن بما تفعلونه وإلا سأتعيب كثيرًا، أكثر من كلّ الذين في المستشفى. لأول مرة أشعر بأمل أن يسمعي أحد خارج يقين الجنون؟

شعرت برجفة عميقة في قلبي، في يدي، وفي أصابعي. لا أدري ما الذي
ذكرني بأصابع بلوهارت الناعمة وهي تعطيني الأقراص المهدئة وتنصحيني
بعدم استعمالها إلا عند الضرورة، أو عندما أشعر بأنّي سأفقد أعصابي، في
وضع يدفع على الغضب الشديد؟ أخرجتُ قرصًا مهدئًا وبلعته بسرعة مع
قليل من الماء.

أضاف الطيب الشاب:

- ربّما كانت حساسيتك المفرطة هي السبب، أنا سألت سؤالًا واضحًا
لا أكثر، حتّى تتمكني من الدفاع عن نفسك.

- أنت لم تسأل سؤالًا، أنت أطلقت عليّ رصاصة الرّحمة.

- هو سؤال كغيره من الأسئلة، يا آنسة ماري.

- لا، ليس كذلك.

ثمّ تمالكّت نفسي، عندما شعرت بأنّ ارتخاء خفيفًا كان يمسّ كلّ
أطرافي، فصمتُ.

أصرخ داخليًا بكلّ قواي، ربّما تعرّف أحدّهم من عيني، من ملامحي،
من حركاتي التي لا يحكمها أيّ نظام، على صوتي الداخلي، وصراخي
المكتوم، فينقذني من هذا الخوف. لا أحدًا أبكي بقلبي المنهك والمتهك،
فيتسع فراغ الوحدة في داخلي. لا أحدًا أيضًا ينظر إلى وجهي، ليختبر

صدقني. ليس لدى المجنونة المصرية، كما تقول عني بعض عاملات
المصفورية، ما تخفيه. وكلما مرّوا بجانبي، بالخصوص الممرضة الثقيلة،
مدام شوكي، الحاضرة دومًا في محافل الخوف واعتقال أرواح المتفضين،
وقفوا قليلًا، صمتوا، ثم مرّوا منكمسين رؤوسهم.

- لا أدري ماذا أقول لك! لا، كلّ المجانين لا يقولون عن أنفسهم أنهم
ليسوا مجانين، لأنهم أصلًا يركضون خارج مدارات الأرض في عالم
وحدهم من يراه. تمنيت أن أكون كذلك لأرتاح من بشر لا يرونني أصلًا،
ولكنهم يرون الصورة التي صنعوها عني. ما قيمة لقاء يا سيدي تراني فيه
كما صنعتني أو كما سمعت عني، وتتوقف هناك؟

- كلامك يصل كاملًا يا آنسة ماري، ونحن لا نحمل إلا الاحترام
والرغبة في الاستماع إليك.

قال طبيب آخر من مرافقي البروفيسور ميلر.

- شكرًا، لستُ مجنونة لسبب بسيط، هو قدرتي أمامكم اليوم، على
الدفاع عن نفسي، وما زلت أشعر أنّ هناك ظلّمًا سلط عليّ، ولا بدّ من
مقاومته بكلّ الوسائل حتّى يظهر الحق.

لا أدري كم دام اللقاء؟ كان يصعد وينزل بسرعة غريبة، لكنني ظللتُ
هادئة، ربّما بفضل القرص المهدئ، لكنني كنت مصمّمة أن لا أصمت. لا
يوجد على هذه الأرض المحروقة بالخيبات واليقين المشين، إلا صوت

الرجل، وأي رجل؟ هناك صوت خافت صحيح، لكنه يستطيع أن يقول الكثير.

نظر البروفيسور ميلر إلى وجهي مليًا وأنا أحاول أن أقاوم الرغبة في النوم.

كان الأطباء يستجلون ملاحظاتهم مثل التلاميذ المتربصين، بينما قام البروفيسور ميلر من مكانه وتقدّم نحوي بلطف، بينما بقي باقي الفريق الطبي جالسًا في مكانه.

- نحن نعرف بعضنا قليلًا، اسمعيني جيدًا يا آنسة ماري، انزعي من رأسك فكرة الكراهية، لا أحد هنا يكرهك أو يريد قتلك، نعرف جيدًا أنك متعبة لأسباب أصبحنا نعرفها جميعًا. أنا أتمن أحبتك حتى وأنا أحاورك عن الشعر الإنجليزي، كنت أريد أن أعرفك عن قرب قبل اتخاذ أي قرار لنقلك إلى العصفورية، كنت داخليًا منهكة، على الرغم من لحظات الصفر التي كانت تتابك، لكن نقاشك كان جيدًا وصحيحًا. ربما تسرعت في تشخيص حالتك بسبب يقين جوزيف بأنك على حافة الجنون ويريد إنقاذك قبل فوات الأوان، قلتُ هذا لفريقي الطبي. يزعجني أن أسمع أنك ترفضين الأكل وتصرخين، هذا لن يوصلك إلى أي مسلك، أنا أريد أن أسمع كل شيء منك. في حالتك شيثان، واحد ناتج عن الظلم، وهذا أفهمه، ومن الطبيعي أن ترفضيه، أنا معك فيه، عرفت كيف أخذوك والطريقة التي اقتادوك بها نحو العصفورية، وعلمتُ أيضًا كيف يجبرونك

على الأكل، لأنه لا خيار أمامهم إن أرادوا إنقاذك من موت أكيد، إما الأكل أو الموت. أما بالنسبة للحالة الثانية، اسمحي لي أن أقول لك، إنها حقيقة وليست افتراء، أنتِ في حالة انهيار عصبي خطير، وهذا ليس جنوناً، لكنه يمكن أن يقود إلى الجنون إذا لم تأخذي الأدوية، ولم تأكلي، وقتها تصبح مساعدتك صعبة جداً، بل مستحيلة. اطلعت على ملفك كاملاً، وقرأته كلمة كلمة، وتابعت الصحافة التي تقف ضدك أو معك، وجلست طويلاً مع الدكتور جوزيف وعرفت الأسباب كلها، على الأقل من منظوره.

- لن يقول جوزيف في خيرًا.

- كيفما كانت نواياه وأطماعه، لكنه دافع عنك، وقال إن همه هو إنقاذك منك.

- يا بروفيسور ميلر، أنت تضيّع وقتك الثمين معي، لقد قلت كل ما لدي، وتعبتُ من تكرار الشيء نفسه، لم أعد أملك أية قوة للمقاومة، أقف بصعوبة كبيرة، وزني انهار كلياً، أمامك امرأة وزنتها الآن، كم كيلو؟ ٢٨ لا أكثر. ماذا أقول؟ ستخرجون من هذه القاعة وأنتم على يقين أنكم كتم برفقة مجنونة. أرجوك، لا تركهم يقتلونني فقط، أنا متعبة، متعبة جداً. تقول إنه دافع عني! لماذا إذن استولى على كل أملاكي؟ تعرف يا دكتور، لو أخرج من هنا، سأموت جوعاً.



- لا أريد أن أرهقك، أرجوكِ يا آنسة ماري، احمِ نفسك بنفسك، أوقفني هذا الإضراب، وامنحيني وفريقي الطبي فرصة الدفاع عنك، على الأقل من فكرة الجنون. لنا وجهة نظر إيجابية في حالتك، سنحسمها قريباً، ونرفع تقريرنا إلى الإدارة العليا للعصفورية، لهذا جئت بالفريق لتدارس حالتك التي وضعتنا في حالة لا تُحسد عليها، وبدأت الصحافة تتحدث عنها، ولا نريد للعصفورية أن تحسر كل تاريخها، فهي ليست سجنًا، أو مكانًا لقتل الناس.

- لستُ مسؤولة عن أيّ شيء يا بروفيسور، الصحافة ذبحتني، ولم ترحم حتى والدي الذي كان من مؤسسيها، كلّها سارت في ما خطّطه الدكتور جوزيف.

- نشكركِ على تعاونك.

ثم قام الجميع، وقفوا وراء البروفيسور في خطٍ مستقيم، مشوا بخطوات ثقيلة نحو الباب الخارجية، متخلصين من صراخ المجنونة المصرية التي تلتصق بأيّ شيء يؤذيها، ولا تتركه يمرّ أبدًا بسهولة.

المجنونة المصرية، أسمع مدام شوكي وزميلاتها يكررنها. تتابني رغبة في الضحك لدرجة البكاء أو الزعيق، هو نعت آخر يضاف إلى النعوت القاسية الأخرى التي ترافقني منذ أن تحطّيت عتبات العصفورية: حارة

المكتبات، وآكلة الحديد، وقاتلة الأطفال. وما خفي كان أعظم. ليس مهماً،
الأهم أن أسمع.

لو كنتُ مجنونة حقيقة، لرضيت حقيقة بقدري. كان يمكن أيضاً أن
أمثل المجنونة وأرتاح، فيعاملني الآخرون كمجنونة مسالمة. أنظر للزمن
الذي يمرّ أمامي، وأحدّث العصافير، واستجدي الغيم أن يتوقف قليلاً
ربّما أرسمه، لكنني للأسف لا أستطيع، لا أقبل أن تُسرق منّي شعلة القلب
والعقل.

لا أحد في هذا المكان المغلق، ولا حتّى الفريق الطبي، يُدرك، أنك عندما
تواجه الظلم وحيداً، تمنّى فقط أن تصرخ مثل ذئب البراري والأدغال
المعزولة، حتّى تسمعك بقية الحيوانات الهائمة في الطبيعة، كنت أسمع
بعضها في الأيام الأولى التي جيء بي فيها إلى العصفورية. المحزن هو أنك،
في العصفورية، عندما يتسع صراخك، يرتدّ صوتك نحوك ويتراكم
المرضون والطيب أحياناً نحو سريرك، لا لمساعدتك، ولكن للجمك،
لأنك أصبحت حيواناً مفترساً يمكن أن يضرّ بالنظام والناس، حيواناً يجب
أن يوقف عند حدّه. يتراكمون مثل البقر الوحشي المرعوب من صوت
الطائرات المروحية الجامد، تمنّى فقط أن يخرج أحدهم عن المجموعة،
وسألك عمّا تعانیه. أول ما يصلون، يُسقطونك أرضاً، ويدؤون في
نكتيفك مثل الأضحية التي تحضّر للعيد بجاكيت تقييد المجانين، لا فائدة

من صراخك وبكائك، ثم تأتي حقنة المورفين حاملة فيها حلًا ساحرًا، فتؤخذ بعدها كجثة هامدة نحو سريرك، ويتم تقييدك حتى الصباح.
قسوة جوزيف قتلتي أكثر من خيانته لي.

ترجيته أن يفعل شيئًا وينقذني منهم، فهو يملك القوة والعلاقات، ليخرجني من العصفورية في غضون نصف يوم، أو حتى في ساعات. كنتُ أعرف أنه - منذ أن جاء بي إلى هذا المكان - لم يسمعني أحدًا. مَدَّ يده إلى رأسي يومها وهم يرمونني في سيارة الإسعاف الحديدية، وقبل أن أغيب بسبب المورفين:

- جوزي، أرجوك حبيبي، امنعهم من قتلي.

- ولو يا روحي، هذا طبيبك، وكلّ اللي هوني ما بيعجبوا لك إلا الخير والشفاء.

- ألا ترى يا قلبي أنهم يكتفونني أمام نظرك؟

الضربة على جبهته كانت واضحة.

- أزمة وتفوت. شوفي اللي عملتيه في، كان ممكن تقتليني؟ لازم المستشفى لترتاحي أيامًا، يصبح بعدها الأمر سهلًا، ويمكنني أن أخرجك من هناك بسهولة، لا مشكلة يا روحي.

أغمضت عيني واستسلمت لقدر لم يكن لي أي سلطان عليه.

مع الزمن تعودت على شراستهم. كلما رأيتهم يتجارون نحوي، في بهو
 بناية الأقواس، في العصفورية، أستسلم لهم وأسلمهم جسداً منهكاً
 ومتهكاً؛ جسدي لم يعد لي. أتركهم، بلا مقاومة، يُدخلون إبرة المورفين
 القاسية، فترتخي كل العضلات مستسلمة لروائح المستشفى وأيدي
 المرضات، وتضيع بعدها كل رغبة لي في الحياة، وأتمنى الموت السريع،
 وتتحوّل كل آلامي إلى أنين قبل أن أغرق في كوابيس المورفين، أو في حلم
 لذيد، بحسب الحالة التي أكون فيها قبل النوم بشوان.

مع الوقت وتكرار الفعل، أصبحتُ أتحمّم تقريباً في الكابوس أو الحلم.
 قبل نومي؛ أرى ما أشتهي.

(٦)

شيء يشبه طاحونة الأيام، يسحب الشمس بسرعة نحو القاع.

مشيت قليلاً في حديقة العصفورية، قبل أن أجلس على الكرسي
الحديدي بمحاذاة بناية الأقواس الممتدة طولاً، شعرتُ بإنهاكٍ جعل من
جسدي كتلة صعبة التحمل، لا شيء.

انتابني التفكير في وضعي الذي لم أعد أفهمه جيداً.

هل أوقف هذا الألم القاسي، أم أواصل في جحيمي؟ فمي كله ملتهب
بسبب الآلات التي يستعملونها معي للأكل الإجماري. يقول الأطباء بعد
انتهاء كل عملية من هذه العمليات، أنهم لو لم يفعلوا هذا معي، سأموت.
المصل يغذي، لكنه في حالتي، لا يكفي، وزني منهار كلياً، ولو استمر في
التدهور، سيرفض ما تبقى من جسدي كل إطعام أو مصل.

الغريب، إنني لم أر في الانتحار، ولا في مواصلة هذا الموت المجزأ بشكلٍ
مؤلم جداً، حلاً. الموت راحة لكنها مستعصية. في أعماقي شيء غريب
يلتصق بجنونٍ بالحياة، يصعب أن يسلم نفسه بسهولة إلى الموت.

لن أسهل للموت مهمته، عليه أن يكره نفسه قبل أن يجزئ من خن
الحياة والاستمرار.

قلتها وأنا غير مؤمنة بها كثيراً.

غابت الشمس مبكرًا، واتسع الليل. أرى بعض العابرين الذين يأتون من كل الزوايا، وكأهم مكلفون بحراستي كلهم، بعضهم يخرج من تحت الأقواس، آخرون يأتون عبر الطريق الطويل المؤدي إلى الخلدجان والأشجار الكثيفة.

الظلال تغطي كل الملامح. رأيتها من ظلها ومن شكلها العام: المجنونة كما يسمونها أو إزميرالدا، وأمير الحديقة. كانت تنام في حصنه وتحتس كل ملامحه التي تماهت في الظلال. كلما هدأت من الصراخ، ركضت إلى نفس المكان تبحث عنه. رأيتها بالصدفة، في مرة من المرات، تستسلم له كليًا، وهما تحت شجرة الصنوبر الحلبي العملاقة، ملفوفين في أعماقها، لا أعتقد أن أحدًا غيري كان يراها. أعجبني المشهد، أحسست بشهوة غامرة. لا أدري لماذا تذكرت هيلينا وهي تمص أصابعي، ثم وهي تقبلني شيئًا فشيئًا وأنا مستسلمة لها قبل أن تأخذني بعنف لتسكنني فيها؟ عرفته؛ عامل وحارس الحديقة الشرقية في العصفورية، رأته يفتح أزرار لباسها عند صدره، ويقبلها ثم يضع يدها في فمه وهي تتأوه، تحملت - أو سمعت - حوارها وشوشتها: شوي شوي حبيبي، لنا كل الوقت، أنت حبيبي الكبير. لا أدري لماذا كنت سعيدة في أعماقي! ربما لأن شيئًا ما عميقًا يخرق كل حدود الأحقاد، قادني نحو جوزيف. كم كنت سعيدة. قلت في

أعماقي، لابد أن يكون سرها كبيراً! تمنيت أن أنصحه أن يحذر أكثر من أجله
ومن أجلها، لأنه سيُطرد إذا عرفوا بقصته، لكنني لم أعطِ لنفسي هذا الحق.
لم يكن مشرفاً وحارساً غيبياً، كان يعرف أشياء كثيرة عن كل ما يحيط به.
سمعته يقول لحارسٍ آخر، رأني من بعيد، فسأله:

- من تلك المرأة الغريبة الجالسة تحت شجرة السنديان وهي تقرأ؟

- الكاتبة الكبيرة مَيّ زيادة، قصتها مسكينة مرعبة، فقد جنّتها ابن
عمّها.

- مَيّ زيادة! أنت تمزح؟ لا يمكن أن أصدقك، هي في مصر، أنا أعرف
كتابتها ووجهها، لا تشبهها في شيء. ربّما كانت مجنونة، تتحلل شخصيتها؟
ضحكتُ في أعماقي.

تذكرت المجنونة التي يسحبها حينها نحو الأشجار العملاقة، والظلال
المظلمة، صوتها لا يتوقف عن التحجب كلما تجاوزت الساعة منتصف الليل.
تألفت معه، مع الوقت. كلما نسيتهما؟ سمعت صراخها الذي يمزق الظلمة.

يا عالم، اسمعوني، لستُ مجنونة، لست مجرمة. قتلني كلياً، أهانني،
فانتقم مني. ماذا فعلت غير هذا؟ أعترف أنني بترته له من الأساس، من
نفس الموقع الذي خانني منه، هو ارتاح وأنا ارتحت. هو دخل إلى المستشفى
في حالة استعجالية أنقذته، وأنا بعد يومين التبس عليّ كل شيء في السجن،

فاتقادوني إلى هذا المكان، لأبقى مع حبيبي، أمير الحديقة. كلما ألمني قلبي،
مشيت عارية فقط وليرى العابرون الجريمة، ويتحسسون الجروح التي
خلفها سكينه الحاد على جسدي.

كنتُ في البداية، الوحيدة التي كانت تعرف من هو أمير الحديقة، أو
كازيمودو؟

أسمع خشخشة تأتي من مكان ظلال الشجر، تشبه الركض للقبض على
حيوان مفترس وثقيل. أسمع مهمة: سمير، كازيمودو، أخرجنا من هنا،
الحراس الجدد يدورون ويفتشون عنها في كل مكان. يظنون أن إيزميرالدا
هربت. دبّر حالك معها بسرعة.

- أحبّها.

- ليس هذا وقته، سَطرِد، وستزج هي في جناح جهنم. هي تحبّك.

- وأنا أحبّها.

- سنمثل بآتنا وجدناها تمشي فقط وتأمل القمر والنجوم. بسرعة.

- سأخذها بنفسِي.

- مجنون، المهم أن لا يلقي القبض عليكما متلبسين.

- سأقول لهم هي هكذا، ليست عنيفة، كلما انتابتها حالة حزن، خرجت بلا وجهة، أعيدها إلى غرفتها، لا داعي لربطها، هي لا تمر الآن بأية أزمة، كانت فقط تتأمل.

- ظنناها هربت من العصفورية.

- كما ترون، أحاول أن أرجعها إلى غرفتها بدون عنف.

- أسرع يا كازيمودو.

كان الجو الخارجي باردًا، دخلتُ تحت الفراش، غطيتُ رأسي كما أفعل عادةً. كان ما يزال في أنفاسي عطر الصنوبر، ونبات مسك الليل المُلتصق بحيطان العصفورية الخشنة، مخلِّفًا عطرًا طيبًا على الكُتل الحائطية الثقيلة، ولمسة إنسانية.

كلما اتسع الليل، زادت مساحة الوحدة والكوابيس، وأصبحت العصفورية تشبه قلعة صحراوية لا حياة فيها.

أغمض عيني. من قال إن المجانين غير إنسانيين؟ المجانين يحبون أيضًا. لقد وضع الله في قلوبهم المحروقة، وأعينهم الخائفة، شيئًا من نور الحياة. أسمع بكاء يشبه النحيب، كان يأتي من الجهة الغربية من العصفورية، أكادُ أجزم أنه لإزمير الدا.



٣- خُصِّنِي بِحُضْنِكَ يَا اللَّهُ، لَكِنِّي أَعْرِفُ أَنَّي
مِنْكَ.

(١)

يكفي يا جوزيف؟ أريد أن أنام، أن أنسى كل شيء جمعني بك: السماء،
الغيم، الرياح، اللّغة.

أشتهي أن أنساك دفعة واحدة، كي لا أجنّ. الدّفعة الواحدة ثقيلة،
وصعبة، لكنّها لا تقسّط الألم.

لا أدري ما الذي قادني نحوه اليوم؟ كلّما تفاديته، حضر غير آبه
بحرائقي الداخلية.

أكتب الآن ولا رفيق لي إلا سقف حان، ووجوه عابسة، ونساء يتعرّين
ويلبسن مثلما يشأن ووقت ما يردن، وصرخات الكثيرات وهن ينادين
الرّب الذي كف عن سماعهن. في الخارج هن مجنونات، وفي مخ
المرضات، أنا أشبههن إن لم يكن مرضي أكثر استعصاءً من جنونهن، لأنّ
حتّى اللحظة لم أقبل بالمسطرة التي فرضوها عليّ. لكن في أمخاخهن يارسن
حياة طبيعية سُرقت منهن.

كم تبدو الأشياء بعيدة وقريبة لدرجة التماهي معها.

كيف كتبتُ له وكيف وثقتُ فيه؟ هل قلبي هو السبب أم يأتي من كل
شيء؟

يبدو أنّ هوسي الأول بدأ منذ تلك اللحظة، أخي الصّغير مات وانتهى، لماذا ظللت أصر على أن يكون لي أخٌ يرافقني يحسنني بالأمان؟ لم أشعر أبدًا بالأمان في حياتي.

كان ميلي تجاه ابن عمي جوزيف في الأول من هذا الباب. أحببت جوزيف، فخطبوا لي أخوه نعموم. كيف أعيش مع رجل أنا أحب أخاه؟ نحن في ١٩٠٣، العلاقة بيني وبين ابن عم والدي إسكندر زيادة كبيرة ودافئة جدًا. وكان له ابنان وبتتان: نعموم وجوزيف وماري ولويز. عُيّن مديرًا لناحية فتوح وكسروان في جبل لبنان. وقعت بين كهاستي جوزيف ونعموم. نعموم كان ثقيلًا وجامدًا مثل حجرة. وجوزيف قريب إلى قلبي، يقاسمني كلّ شيء، حتّى قبلي المدرسية المسروقة. وأكثر ثقافة وأناقة وحبًا للحياة. مولعٌ بالطب الذي كان يدرسه في بيروت.

كلّ شيء تم بسرعة بيني وبين يوسف. اتفقنا أن نسافر معًا إلى باريس. أنذكر جيدًا. في أواخر شهر جوان ١٩٠٥، حضر أهل عمي، وخالي بولص، إلى البيت، وكان الاتفاق أن نقضي العطلة في الناصرة، لأنّها للزواج في نهاية السنة. خيبة الأمل التي أصبت بها لم تكن إلا مطية، كنت متعلّقة جدًا بجوزيف سرّيًا. نعموم كان لطيفًا على الرّغم من ثقله، لكنه لم يكن يناسبني. ثم ماذا أقول للرّب عندما يسألني عن زوجي نعموم، وعن حبيبي وعشيقتي جوزيف؟ لم تكن لدي أيّة إجابة، ولم يكن من حقّي أن أترك نعموم يعيش على وهم خطير. بعد خطبة سريعة، لم يكن بإمكانني ردّها

دون أن أحزن أبي وأمي، بدأت في البحث عن أيّ سبب يجعلني ابتعد عنه. سألت جوزيف، أجباني بعنف: مسرحية تراجيدية ستتهي بفنك وانتحاري. ساعدني في الحلّ بعد أن سرّب لي معلومات خطيرة منها أنّ الرسائل التي كان يكتبها لي، ليس هو محرّرها. بعثت له ببرقية مختزلة ليعرف فقط ما حدث لي: fiançailles rompues وجمعت كلّ رسائله التي لم تكن له، وهديته، السّلسال الذهبي ومحبس الخطبة. وجدنتي في لعبة كانت تتجاوزني، أكبر مني بكثير، لكنني كنت مصمّمة على توقيفها. عرفت من جوزيف، أنّ الفنان جوزيف الحويك هو من كان يكتب له الرّسائل العشقية ليبعثها لي ظلماً منه أنّها ستقربني منه، انتابني فجأة حالة من الاكتئاب القاتل شبيهة بتلك التي لبستني يوم وفاة أخي الأوحد صغيراً. الدكتور جوزيف ظلّ قريباً منّي، ولم يتخلّ عني لحظة واحدة، عوّلت عليه كثيراً. عندما تخلّصت من نعوم بخسارات أقل، فاجأني جوزيف باستعداده للسفر إلى باريس. هل يُعقل؟ صرخت في أعماقي: أأخطأت طريقك إلى هذا الحد يا الله، لتعاقبني؟ لم أجد ما أقوله له، كنت في حرب ضروس لاسترداد جسدي وروحي. الضربة كانت قاسية، وأعتقد أنّها كانت وراء كلّ ما حدث ويحدث لي.

- سأسافر إلى باريس يا ماري.

قاومتُ لكي لا أبكي.

- ألم نتفق حبيبي أن نعمل ذلك معاً؟ انتهينا من مشكلة نعوم، نست غاضبة منه بسبب الرسائل، لكنني حريصة من تحايله. الرسائل كانت جميلة، لكنها مجرد مطية لاكون له.

- ما زلنا صغاراً يا ماري على الزواج، سقتل نفسياً وحرينا في وفي مبكر. ظلمٌ حقيقي.

شعرت بجرح بارد يفتح قلبي كلياً، بلا دم ولا ألم. لا أعرف لماذا؟
ضربة سكين جافة. تقيأت كثيراً، ورأيت الموت لأول مرة بلونه الرمادي.
كيف لم أفهم هذا كله وقتها؟

أغمضتُ عيني لكي لا انفجر.

- حبيبي جوزيف، لا تتسرع، خلقتنا لبعض ولا قوة قادرة على فصلنا،
قاومتُ من أجلك كل شيء. مستعدة أن أهرب معك، ولن نعود من هناك
إلا بأطفالٍ سيمحون غضب أهلنا.

- قلت لك ما زلنا صغاراً على هذا العذاب. على كلٍ اتخذت قراراً.

- وأنا يا روجي؟ هل فكرت في؟

صمت، ثم تركني وعاد إلى بيت أهله.

بقيت طويلاً في مكاني مثل جندي مهزوم لا يدري ماذا يفعل بجسد
مضطرب.

بعدها بيومين وصلني خبر سفره إلى باريس، ثم سمعت لاحقاً من نساء
شحتول الثرثارات، أنه يعيش مع سيدة فرنسية أكبر منه بعشرين سنة.
ساعدته كثيراً، سيتزوج بها قريباً.

أقنعت نفسي بسهولة أن جوزيف لم يكن يحبني، لم يعد لي، وعلى أن
أنساه. قبل أن يوقظ براكيني برسائله الرقيقة، قاومته، لم أرد عليه، بينما
استمر هو في مراسلاته بشكل متواتر.

الشعر وحده يومها أنقذني، أنقذني من جرح تعمق حتى وصل العظم.
حتى عندما حملت ديواني الأول أزهار حلم ٢٨ الذي لم يكن أحد غيره
يركض فيه، لأهديه إلى أمي، نظرت إلى عيني، قالت جملة تركتني مندهشة
ومعلقة في الفراغ: أجمل من الديوان، عودتك إلى نفسك.

- كيف عودتي يا أمي؟ أنا هنا.

لم تُجِبني.

لم أعد إلى نفسي، ربما لآتي كنت بلهاء، لكن بلهاء صادقة.

هناك لحظات نصبح فيها عميائنا كلياً على الرغم من نصائح من بجنا
بصدق.

يوم كتبتُ له الرسالة الأخيرة التي حكمت فيها بالموت على نفسي، في
٢٨ سبتمبر ١٩٣٨، توقعت فيه بقايا أشياء جميلة وحساسيات لم تمت.

كنتُ مخطئة، بل لأول مرة أصيب هديني: قتلي انتحارًا.

(٢)

كنت ميتة عندما دخلت عليّ ليليان، غارقة في شيء بارد يشبه الموت. عندما فتحت عينيّ، والتفتُ نحوها، كانت تقف على رأسي. طوال إقامتي في هذا المكان، لم أر ليليان في أيّ يومٍ من الأيام غاضبة، أو فرحة، مثبتة دومًا في وضعيةٍ وسطى، لكنّها حركية. تسمية غزالة العصفورية، لم يكن كلامًا بلا معنى، فهي من يأتي بالبريد، وهي ما يأخذه للمراقبة قبل إرساله، على فرض أن إدارة العصفورية ترسل ما يصلها منّا.

ليليان هي أيضًا من يخبر بقدم الزيارات لساكنة مستشفى الأمراض النفسية.

- مرحبًا سيّدة ماري.

- مرحبًا ليليان.

- عرفتني؟

- جئتُ أبلغك عن رجلٍ يقول إنّه يعرفك، وجاء لزيارتك.

- ألا ترين أنّ الوقت متأخر؟

- لا، الساعة الرابعة بعد الزوال فقط، ربّما لأننا في مساحات غاية تغيب فيها الشّمس مبكرًا.



- من يا ترى؟ أكيد جوزيف؟ أنا ما بدّي إياه، لا أريد رؤية وجهه، لقد جرحني ومزقني من الداخل بسكينٍ حاد. قلتُ لكم إنّني لا أريد أن أراه، مهما كانت الذرائع. وقّعت على ورقة فيها إشعار واضح: لا أريد زيارة من فتلني. لا أريد الذي يقتل الضحية ويمشي في جنازتها. رأسي يؤلمني من كثرة تكرار نفس الصرخة.

- لا سيدتي أنا لم آت من أجل هذا. عندما سألنا هذا الرجل عنك، قال إنّه لا يعرفك شخصيًا، ولكنك ابنة مدينته، فهو يعيش بين الناصرة وبيروت. يعمل تاجرًا بين لبنان وفلسطين. اطّلع على كلّ أعمالك، هكذا يقول. معجبٌ بك، ويحسّ بالظلم الذي مورس عليك، ولا يريد أن يستمر. قال إنّه يريد أن يساعدك، أن يفعل شيئًا من أجلك.

- من يكون يا ترى؟

- لا أعرف يا سيدتي، لكن يبدو لي صادقًا في كلامه.

- لا أستطيع المشي، رجلي توجعني من سقوطي على الدرج، البارحة.

- أعرف، أنا هنا لمرافقتك يا سيدتي، اسندي ذراعك اليسرى عليّ، وانكني بالذراع اليمنى على عصاك.

هذا الليل ثقيلٌ ومثقل، ليس بالخوف، ولكن بالضباب.

كنت أنوي أن أكتبُ شيئًا لم أعرف من أين أبدأه! بقيتُ كثيرًا أنظر للورقة وقلم الرصاص. استكثرت أن ألغي مشروعِي من أجل شخصٍ؛ يكون نافعًا، لولا أن ليليان أكدت على نُبل الزائر.

لم أكن أعلم بعد موجة اليأس والشك في كل شيء، أنه ما يزال على هذه الأرض بشرٌ يشبهون الملائكة؟

مشيتُ بتأقل حتى وصلنا إلى صالة الاستقبال في الجناح الرئيسي.

رفعتُ رأسي، رأيت نجمة هاربة، تفتحصتها وهي تتحول إلى شعلة هاربة، ثم إلى رماد، كانت تُشبهني.

نبهتني ليليان:

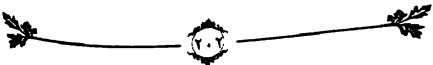
- هو ذاك الرجل الذي يجلس في الزاوية، بالقرب من المدفأة، ويتأمل الغابة من النافذة.

كان الرجل يعطيني ظهره، فيه شيءٌ من والدي.

- شكرًا ليليان، اتركيني الآن أسير نحوه، سأعتمد على عصاي ما عليش.

- طيب أنا هنا، متى ما احتجتني ناديني.

- ماشي حبيبي.



تقدّمتُ خطوتين وأنا أضغط على العصا، محدثة صوتًا جافًا، حتّى
بسمعي.

التفتَ نحوي، ثم قام من مكانه. بقيَ مشدوّهًا يتألمني من شعري حتّى
أخص قدمي، جامدًا في مكانه، كأنه لم يعرفني، أو كأنّي بدوت له قد تغيّرتُ
كثيرًا. تفرّسني للحظات، سبقته إلى الكلام:

- ميّ زيادة؛ أو المجنونة المصرية، إذا أحببت أن تُشبه الآخرين في
توصيفك.

انحنى قليلًا، ثم قبّل يدي.

- تفضلي سيّدة ميّ بالجلوس، حاشا أن تكوني مجنونة! قرأتُ لك كثيرًا،
ولا يمكنني أن أقبل بهذه التهمة المجانية.

جلستُ بهدوء، ساعدني، ثمّ جلس هو بدوره، مقابلًا لي.

- مرحبًا يا آنسة ميّ، أنا مارون غانم، لبناني، تاجر بالتأصّرة. أقسمتُ
أن أتحوّل إلى جندي في صفك وأسخر مالي وكلّ ما أملك، من أجل
إخراجك من هذا المكان المظلم. لن أعود إلى عملي إلّا بعد وضع حدّ لهذا
الظلم. لا تشغلي بالك أنتِ لا تعرفيني، مجرد قارئ من بين الآلاف، وربّما
الملايين، من قرّائك الذين يحبّونك. جنّت نحوك، يقودني حبّي لك والظلم
الذي أصابك. لا تستغربي شيئًا، في هذه الدّنيا الخير والشيطان. كيفك
اليوم؟



- الحمد لله، أرحتني بكلامك. حقيقي، ما يزال في هذه الدّنيا بعض ناس الخير، لم تنغلق السبل. أتشرّف يا سيّدي، حفظك الله. ها أنا ذي كما ترى، بين مدّ وجزر، امرأة موت واسع وحياة قليلة. أحياناً أقف على الحافة متخلّية عن الحياة، أو ما يسمّى كذلك، وفي أحيانٍ أخرى أشدّ على الحياة بأسناني وأرفض أن أستسلم لطاحونة الموت.

- الحمد لله أنّك بخير، هذا المهم في النهاية.

- ها هي المجنونة التي تنافست الجرائد على بهدلتها بدون أيّ حجل أو حياء، أو حتّى رحمة. الكلّ يتنافس على التفصيل في ممارسات هذه المجنونة التي تأكل الحديد، التي قتلت ممرضة في مستشفى، أحرقت مكتبة ابن عمها، بعد أن أحرقت مكتبتها الشخصية .. و.. و...

- لكن جبل الكذب قصير يا آنسة ميّ، ومعينه ينضب، لن يدوم. في النهاية، لا شيء يبقى إلا الحقيقة. اتصلتُ بمحامّي الخاص للتفكير معاً في إخراجك من هذه الضغينة التي سلّطت عليك، وهو مستعدّ للدّفاع عنك شرط قبولك.

كان الأستاذ مارون غانم طيباً، ونيلاً، ومُصرّاً على فعل أيّ شيءٍ بنصف عني ثقل هذه المأساة، شيء لم يفعله حتّى أصدقائي المقربون. لو لم أوقف الحديث معه، بعد أن تعبت قليلاً، كان استمرّ في الكلام حتّى الصباح شيء!

واحد لم أشك فيه، طبيته ومحبته واندفاعه نحوي، شعرتُ بصدق كبير في عينيه.

قبل أن أخرج، ركضتُ ليليان نحوي وفي يدها رسالة، نظرتُ إلى عنوانها.

Camille Claudel, hopital psychiatrique

De Montdevergues

رسالة من كامى كلوديل، أكاد لا أصدق! هل يعقل؟ بعد كل هذا الوقت!

عدتُ إلى غرفتي وأنا أحسّ بأن لي جناحين، وكم بدتُ لي المسافة بلا نهاية.

على الرغم من أنّ الرجل كان طيبًا معي، لا أعرف بالضبط لماذا أحسّ أنّ شيئًا ما يجبس من حين لآخر أنفاسي، يقيدني، يشككني في كلّ مساري. لا أعرف إذا ما كان عليّ أن أحزن أو أزهو؟

يحدث معي أن أخاف من هذا الفراغ الأبيض، كلما رأيتُ طيبًا شعره أبيض قادمًا نحو الجناح، أحسستُ أنّي أنا المعنية بزيارته. أركض نحو المرأة حتّى أرمم صفرة وجهي، أشعر فجأة أنّ المرأة تخونني، أسألني هل التي تقف هنا هي هذه التي هنا؟ أليست الصّورة إلّا تعبيرًا عن داخلٍ منكسر ومتهتك أفرغوه من كلّ حياة؟ هل هذه هي ماري دلّوعة والدها، أم



المجنونة المصرية كما أسمتني الكثيرات من مقيمات العصفورية، وحتى عندما كنتُ عند جوزيف، كلما سمعني أصرخ بأعلى صوتي، صرخن بدورهن: ما فيه حدا يلجم هاي المجنونة المصرية؟

يوم غادرت القاهرة لم آخذ معي الشيء الكثير، ما عدا رسائل جبران التي سرقتها مني، ورسالة من كامبي كلوديل، اعتبرتها أهم ميراث في حياتي. جبران مات وبقي صوتي الحي في، بينما صرخة كامبي كلوديل لم ترح قلبي ولا ذاكرتي. وكان الأقدار كانت تقراء لي ما سيحدث لي بعد زمن وتمي لي في صمتي؛ أسمى المفاجآت. فكثرت في الكتابة عن أكبر سجينه مظلومة في الدنيا، وكيف أن كل معارفها تنكروا لها، حببها رودان، أمها، أخوها بول، أصدقاؤها الكثيرون. سحبتُ رسالتها وبدأتُ أقرأها من جديد. كم كانت قريبة مني، كم كنت أشبهها، أصبححتني أو أصبححتها، في وقتٍ وجيز. ربما كان علي أن أجتهد طويلاً لأتخلص منها نهائياً، وأتحمل هذا الوضع الذي ما زلت تحت سطوته ولا أفهمه إلا قليلاً.

تلقتُ الرسالة، ضممتها إلى صدري، شممتُ عطرها وسرّها، فيها شيء من رائحتي. رفعت رأسي نحو السماء، رأيتُ وجه الله لأول مرة في شكل نجمة ساطعة في عمق السماء. أقرأها بلا توقف.

العزيرة ماري زيادة،

وصلتني رسالتك، وأنا في كامل انهياري، لكنّها أعطتني الإحساس بأنّ كلّ سجناء العالم يتشابهون، ويلتقون في برك العزلة والخوف والدمّ أحياناً. فلتُ في نفسي: ما الذي قاد هذه المرأة الشرقية المشبعة بالقيم الغربية نحو مجنونة مثلي؟ زجوا بها ظلماً في مغاراتٍ أعرف جيّداً سراديبها، وظلامها، حيث نصح لا شيء بجسدٍ مستباح، لا نصير لها إلا الجنون الحقيقي، والموت الذي ينتظرها في زوايا كثيرة. الحبّ ليس حالة سهلة، جنون يتجاوز كلّ ما نملك من قيم وإرادة. على مدار تسع سنواتٍ من الجنون، منحت كلّ الجنون الذي في داخلي، جسدي أصبح ملكه، يرتاده متى يشاء، وفي كلّ الوضعيات، حتّى وأنا مليئة بغبار الرخام والعمل، وعرف كيف يفجر كلّ شيء جميل في. أوغست رودان في ذلك الزمن لم يكن عادياً؛ كان إقاً حقيقياً. التقينا أول مرة في سنة ١٨٨٤، بيني وبينه ٢٣ سنة فرق، لم تكن مهمة، ولم أتركه إلا عندما تخلى هو عني واستولى عليه غروره وأنايته في ١٩٠٠. بعدها بسنوات، كان برفقة عصابته وتواطؤ عائلتي، زجوا بي إلى بيت الجنون. في ١٩١٣، جوعني بعد أن حاصرني ومنع عني كلّ إمكانيّة للعمل. هل الحبّ الكبير يورث الحقد الأكبر؟ لا أفهم. لكن رودان الذي أصبح جزءاً من العلم الفرنسي، كان صغيراً معي.

الفقرة الأخيرة من الرسالة ذبحت قلبي:

^{٢١} وسبق في مستشفى الأمراض العقلية حتّى وفاتها في عزلة كاملة، في ١٩٤٣، بينما كان قد تزوّج رودان قبلها بسنوات.

عذراً يا روحي، تأخرت كثيراً للرد عليك. الجو هنا شديد البرودة، ولا أستطيع حتى الوقوف للكتابة لك، لا أستطيع حتى أن أكون في الصلاة الجماعية حيث نحترق في هدوء ثقيل بعض القطع الخشبية، ولا ضجيج إلا صوت المجانين الذين أخافوا الأرواح الشريرة، فهربت. مجبرة على البقاء في غرفتي الباردة لدرجة أن أصابعي ترتعش، ولا تستطيع القبض على الشوكة. لم أندفأ طوال الشتاء، مثلجة أنا حتى العظام يا عزيزتي، متجمدة بسبب البرد. ماتت الكثيرات بسبب الزكام الحاد ومنهن إحدى صديقاتي، كانت المسكينة أستاذة في ثانوية فينيلون، لا تعرف لماذا زجوا بها في هذا المكان! وجدت متجمدة في سريرها. شيء لا يطاق؟ لا يمكنك أن تعرفي درجة البرد في مونتدوفيرغ؟ موجة البرد والصقيع هنا، تستمر سبعة أشهر.

ماذا أقول لها، وأنا التصق بها هي أيضاً، كي لا أموت؟

مددت يدي نحو حقيبتني التي احتفظ فيها برسالتها الأولى التي أدخلتني في دوار غريب، وكأنها كانت تحكي عني. شعرتُ بالحقد على الناس الذين رموها في أتون مستشفى المرضى عقلياً، بالخصوص رودان الذي كنت أحبه. لا يختلفون في شيء، هنا أو هناك، هم أنفسهم الذين رموني في محرقة العصفورية.

عزيزتي ماري زيادة،

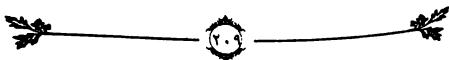
اليوم ٣ مارس، يوم ذكرى اختطافي في فيل-إفرارد. منذ ١٧ سنة رمانى رودان وتجار الفن في سجن مستشفى المجانين، بعد أن استولى على منجزى الحياتي كله، مستعملاً برتولد لتنفيذ جريمته النكراء، وجعلني أعاني حجباً كانوا هم أولى به. لم يكن برتولد إلا منقذاً صغيراً حتى يبقى خارج مشهد الحزبي الذي اشتركت فيه أمتي. لا تنسي أن زوجة برتولد كانت مودياً تعمل عند رودان، يمكنك أن تتصوري الآن خيوط اللعبة التي كنت ضحيتها، جميل! كل هؤلاء المليونيرين الذين ارتعوا على فنانة بلا وسائل دفاع، الذين اشتركوا في هذا الاختطاف، كانوا كلهم مليونيرين. كل هذا خرج من عقل رودان الجهنمي. فكرة واحدة ظلت تسكنه، خوفه من أحلّ عمله، بعد موته، وأتجاوزه. كان لابد أن يحتفظ بي بين مخالبي، بعد موته كما في حياته، ليجعل مني امرأة بائسة، وقد نجح في ذلك، فأنا اليوم امرأة بائسة، أشعر بملل من هذه العبودية. كم أشتهي أن أكون في بيتي، وأغلق الباب جيداً!

مثلك يا كامي كلوديل، أنا أيضاً كنت أحبه.

لم يجد من وسيلة لردّ الجميل، إلا زجني في هذا الفراغ المخيف، وهذه الظلمة الثقيلة.

لا حدّ للكراهية، ما أقبحه!

ما أصفرهم!



(٣)

أيامي متكررة في هذا المنفى الذي لا شيء يستحق الاهتمام إلا غاباته
الواسعة.

في برنامجي اليوم عنصر جديد، اللقاء مع المحامي الذي وضعه لي الرجل
الطيب مارون غانم، لترتيب وسيلة دفاعنا القادم.

سأوكله للقيام بكل الإجراءات القضائية.

منذ أن أوقفت الإضراب، تغير كل شيء فجأة، وأصبحت أحس براحة
نسبية، باستثناء بعض التوبات التي كانت فوق إرادتي عندما يتتابني وجه
جوزيف الذي طلب من الإدارة رؤيتي العديد من المرات، لكنني رفضت
كلياً، ووقعت على وثيقة من أجل ذلك. كلما استشاروني في السماح له
بزيارتي، كان رفضي مضاعفاً، لأنه يريد إرجاعي إلى بيت الأهل. انتفضتُ
وقلتُ بصرخة غير طبيعية خرجت من أعماق الجرح المفتوح، بلا إرادة
مني:

- أرجوووووكم، بيكفي، العصفورية أرحم، اتركوني هنا، أنا مرتاحة
بينكم.

أضطرُّ في النهاية إلى تناول قرصٍ مهدئ، من تلك التي وفرتها لي بلوهارت، وأتنفّس بهدوءٍ حتى يزول الغضب. أفضل هذا العذاب الصغير على العذاب الأكبر الذي مزق فمي وأحشائي.

اعتقد أن كلّ ما قالته بلوهارت كان صحيحًا وناجحًا عن خبرةٍ حقيقية.

أوقفت الإضراب عن الأكل، لكنني استمررتُ في تناول أدوية الرّهاب، والانهيار العصبي، والاكئاب، وهو ما سهّل عليّ توازني وراحتي الداخليّة لأقوم وأتحمل ما ينتظرنني في الأفق.

زاد وزني، لكنني لم أعد مهتمة كثيرًا بمظهري. أحتاج فقط إلى أن أنام، وأستيقظ وأجدني في شحتول بين جبال والدي وعصافير الجليل، وشوارع القاهرة المزدهمة.

دخلت عليّ بلوهارت وهي تحمل العديد من الصّحف اليومية، وضعتها في حجري، ولم تستطع كتم فرحتها:

- شوفي حبيبتي ميّ، ما رأيك في كلّ هذا؟

ثم وضعت الجرائد في حجري.

- شوفي ماذا تقول جريدة المكشوف؟

- المكشوف جريدة محترمة، ومديرها شخص طيب، في الحقيقة لم تغير من موقفها، الوحيدة التي ظلّت معي منذ بداية محتي.

- أشعر كأن الأمر بدأ يتغير جذرياً، خليني أقرأ ماذا قاله عدد اليوم: إن
المأساة التي عاشتها، وتعيشها مَيّ في الحقيقة، كان سببها
ظلم الأمل، بالطعن في عقليتها واضطهادها، بشكلٍ معلن. دون
علم أولي الأمر في الحكومة اللبنانية، حتى علمت الصحافة
الأدبية، وشنت حملة عنيفة غرضها إنصاف مَيّ.

- الحمد لله أن صرختنا وصلت إلى الخارج، المحامي أصبح وسيلتي
لمواجهة المؤسسات الظالمة، حتى صاحب الجريدة ومديرها، المير، فزاد
جيش، تبرّع بالدفاع عني. من غير المعقول أن يُزج بإنسان هكذا في
مستشفى الأمراض العقلية للتخلص منه، بدون عقوبة ولا حتى مقاومة؟

- انظري هذه المانشيت من المكشوف⁴¹، "المكشوف تفضح المؤامرة
التي وقعت للأدبية مَيّ".

- حقيقة وقفة الصحيفة معي لا تُنسى، وهي تتعرض اليوم لهجمات
كثيرة لأنها كشفت عن هذه الدّيسة، ولاقت ما تلاقيه كل
صحيفة حرّة من تهديد ووعيد، وهذا أكبر مكسب للجريدة وللحق.

⁴⁰ Maître

⁴¹ العدد ١٣٥.

- جميل ما يحدث، ما ضاع حق وراءه طالب، لكنّه لن ينسيني هذا العبث والظلم الذي عانته ولا أدري إلى متى سيطول؟! الكثير من الصحف التي تدافع عني اليوم، بعضُها أهانني بقوة، وفي مقدمتها صحيفتا "الحديث" و"صوت الأحرار" اللتان أفرغتا في سمومها وظلمهما، وقبحها العميق. رائحة المال العفن. أنا صحفية وأعرف صعوبات المهنة، لكن ليس بهذا الشكل من البؤس والانبهار.

- لا تخافي، الظلم يشي بنفسه، خارج إرادته، سيُتضح الأمر قريبًا.

- أعرف، أبي في هذا هو قدوتي، كنت الذراع الأيمن له، رأيتَه يلاقي الليل بالنهار، ويذهب إلى عمله بلا نوم. كان كرهني لهم أشد، يوم نشروا خبر جنوني، وأوجدوا عند الناس في الشرق وفي الغرب فكرة، بل اعتقادًا بأنّ "مي" مجذوبة. ولو إنّ إساءتهم لي اقتصرت على ذلك، لهان الأمر، لكن هناك ما هو أمرٌ وأفظع. زرعوا في الإحساس بالغرابة والعزلة. كان على الصحفيين في لبنان تحديدًا ومصر وفلسطين، أن يدافعوا عني، لا لآتي زميلتهم ولكن لآتي مظلومة، إن لم يكن إكرامًا لي، فليكن لوالدي، أن يسألوا عني مثلًا، أن يقوموا بزيارتي عندما سمعوا بخبر جنوني لمعرفة مبلغ ما في هذا الخبر من الضحة. لقد زارني ناس لا أعرفهم إلّا من كتاباتي وتحسروا كثيرًا عليّ وقاسموني، ولو من بعيد، آلامي ولحظات حسرتي، ودافعوا عني بهم. يفترض أنّ معشر الصحفيين يتحسرون الحقيقة في كل

مكان، بدل اهتمامهم بالرجال، وما يقولون، والنساء وما يلبسن،
وغرقهم أحياناً في أتفه المواضيع وإخراجها إلى قرائتهم، أن يهتموا بما
يهم أرضهم، ومستقبل هذه الأمة. ألم يخرج عن المجموعة، واحدٌ يدافع عن
الحق، يسأل عن مي؟ يتحرّري فقط حقيقة جنونها؟ ألم يوجد
أحد بينكم يفكر في زيارة هذه الأديبة، الصحافية الغرية
والمجنونة التي تخنق الأطفال، وتأكل الحديد؟ وقد تقولون إن هذا
الذي أشبع عني كان كحقيقة راهنة عندكم، إنكم لم تشاءوا
زيارتي حتى لا تحزنوا على مصيري البائس؟ قد يكون ذلك
صحيحاً. لكن هذا الاعتقاد وتلك الشفقة لا ينبغي أن تضع
حجاباً من الإهمال والنسيان بين الصحافيين والأدباء،
وبين زميلتهم مي. مي لا أهل لها، أبي وأهلي هم الصحافيون،
هم الأدباء، هم رجال القلم. أفما كان يجدر بكم أن تحيطوني ببعض
العناية عسى أن تخففوا عني وطأة الجنون؟

- أدرك المرارة التي في قلبك، لكن الآن الوضع بدأ يتغير وأنت في أمس
الحاجة إلى الكلّ.

- سعيدة وفخورة بك يا بلوهارت، لقد أصبح لي اليوم محام لقلبي،
ومحام لقضيتي.



(٤)

دخل المحامي وهو يلعن العصفورية ومن بناها:

- هل يعقل أن يخيفهم محامٍ إلى هذا الحد؟ هل العصفورية مستشفى، أم قلعة مفصولة عن كل حياة يموت فيها الناس بصمتٍ قاهر؟ أيُّ خطورة تشكّلونها على الأمن العام؟ امرأة وزنها أقل من ثلاثين كيلو غرام، مصّوها وحولوها إلى قشرة تقاوم الموت ظلماً، أقل من كيس إسمنت أو كيس دقيق! أخطرُ شيءٍ أن تشعر بأنك وحيدٌ في مدارٍ يضيق من حولك ويشدّ على عنقك بعنف، ويزيد تصلّباً، ليمسّ جسدك ولسانك لدرجة أن تتحمّل الموت.

لأول مرّة منذ مدّة طويلة، أشعرُ بأنّي لم أكن وحيدة.

زيارتي للسيدة من آل الجزائري لم تكن عبثية، فقد منحني الكثير من الرّاحة والثّقة في النّفس.

لا أدري لماذا أخرجتُ رسالة جوزيف؟ وأنا أنتظر وصول المحامي الذي كلّفه سيّد الخير الذي لا أنسي جملة رسالته الأخيرة: في ظلّ الصّمت التواطئ أريدُ أن أستعمل بعضَ مالي لتخليصك من هذا الظلم. كان طيباً وكبير النفس.

عندما دخل المحامي كنتُ غارقة فيها، كان قد طلب مني تحضيرها، يريد إعادة قراءتها، ربّما وجد فيها عناصره الدفاعية أمام طاحونة قضائية لم تكن سهلة ولا عادية.

لا أدري ما الذي يقودني نحو من سرق مني الحياة؟ أحياناً أصاب بهستيريا وأصرخ صرخة سيّدنا المسيح الأخيرة: لماذا فعلت هذا يا جوزيف؟ لم تكن في حاجة لأن تلبس قناع الخائف عليّ، منحتك بعض جسدي ولم أسأل عن العواقب، وتخطّيت عيون الرّب ودفء العذراء، الباقي لا قيمة له أبداً، كنتُ حبيبي ولم يكن يهتمني شيء غيرك، لو طلبت مني عيني كنتُ سلّمتهما لك بلا تردّد، روعي، كنت منحتها لك وتركك تعيش عمراً آخر بها.

أحاول وأنا أقرأ أن أفهم ما الذي أعماي للركض نحوك؟ لماذا لم أذهب نحو غيرك؟ القاهرة كانت تجيش بأصدقائي، لو رفعتُ إصبعي، وقلت لللقاد، أنطوان، السيد، سلامة، يكن، الرافي، وغيرهم، لركضوا بلا تردّد، ولاصطحبوني بفرح، نحو أقرب كنيسة. لكنني فكرت فيك، لا يمكن لامرأة عاقلة، أو حتى مجنونة، أن لا تفكر في حبيبها، في اللحظات الأقسى والأصعب.

أتأمل الرسالة الأخيرة التي كتبت لجوزيف، الصرخة الأخيرة قبل الفرق. حقيقي كنتُ منهكة يوم كتبته، وأحتاج لمن يُحسني أن الحياة ما تزال ممكنة. المصيبة ليست دائمًا في الفرق، لكن في أن تفرق وحيدًا ولا شيء من حولك إلا الفراغ والصخور الباردة، والكواسر التي تستعجل، من فوق، موتك.

أتأمل الرسالة وأتساءل كيف بقيت حية، حتى ولو بجنوني!

يا جوزيف، يا صديقي، يا أخي..

لم أهد أكتب منذ زمن طويل، كلما حملت نفسي على ذلك، يظهر شيء فاهر يقضي على انطلاق تفكيري، ويشل حركة يدي. تُرى هل ذكراك في ملأ النهار وعلاهي قادران على منحي بعض القوة لكي أكتب إليك كل ما أريد أن أقوله لك شفويًا؟ إنني محروقة جدًا يا جوزيف، كما إنني أكثر من مريضة وينبغي أن أخترع عبارات جديدة لأشرح ما أشعر به في قرارة نفسي، ومن حولي. لقد حان وقت إعلامك بما سبب لي أشد الألم؛ أعني رسالتك التي تسلمتها مؤخرًا. لم يحدث يا جوزيف أن خاطبتني بكلمة ناسية، أو تلميح حنيف، لأنك كنت رفيقًا بي، متسامحًا، ترعاني بمودتك الطيبة، حتى في الظروف الصعبة التي واجهتها أسرُتنا. كيف ترسل لي كتابًا جانيًا، بل أكاد أقول متحاملاً، وأنت تعلم ما أنا فيه من الكلد؟ كان ينبغي

" كتبت في الأصل باللغة الفرنسية في ٢٨ أيلول ١٩٣٥.

أن تعرف ما أصابني من الأشخاص الذين خادروا مصر إلى لبنان. لقد أبكتني رسالتك طويلاً يوم أمس وأنا أعيد قراءتها، فتبلمت كل متاديلي، ثم تذكرت عبارة وردت في إحدى رسالتك السابقة، ربما أكون قد أتلفتها مع ما أتلفت من أوراق كثيرة خلال هذه الفترة، ورحت أرددتها بتأثر بالغ: "أنا طيب يا ابنة العم الصغيرة، فإذا تألمت يوماً ما، وإذا ما شعرت بحاجة إليّ، فاخبريني لأركض نحوك فأداويك وأشفيك". هذا ما كنت تقوله لي، وهذا ما يجعلني أبكي بحسرة عميقة للمرة الأولى في حياتي على هذا النحو. ألم تعد راغباً في أن تكون شقيق روعي؟ شقيقي على الرحم من البعد ومن ندرة المراسلة بيتنا. ألم ترد أن تكون المداوي والمحبوب؟ تعال وأتقطني بقتل رويداً، إني أسمع لك بللك وأباركك بكل روعي الممزقة الصارخة، تعال بسرعة يا جوزيف لتعلمني بلنبي وتقتلني وتصفح عني أخوياً.

- أنا أستغرب من بلاهتي، كيف لم أنفطن له؟ أين كنت شاردة أمام شخص كان يريد مالي فقط؟
قلتُ بصوت يكاد يُسمع.

استطرد المحامي الذي دخل لتوه، قبل أن يغرق في ترتيب أوراقه.

- الدائرة بدأت تضيق عليهم يا مي، وسيدفعون الثمن غالباً، أتمنى أن لا ترحمهم. سيأتيك من العائلة من يطلب منك أن تصفحي عليه حفاظاً على سمعة عائلة زيادة، لست مجبرة على ذلك.

- المشكلة ليست هنا يا ميتر، أكثر. كيف لرجلٍ برقة جوزيف وخوفه عليّ لدرجة أن حوّله أحمًا لم تلده أمي، وحبیبًا أمشي وراءه مغمضة العينين، أن يقتلني بعينين مفتوحتين دون شعورٍ بالندم؟ أدرك اليوم أنّي كنتُ عمياء، وأتمنى عبثًا أن تُبتر أصابعي قبل كتابة تلك الرسالة التي منحتني فيها له على طبق من ذهب. أين كان رأسي يا ربّي؟

- ما فات فات، نحتاج إلى إستراتيجية جيدة لإخراجك من هذا المأزق الصعب. على أيّ، الناس في هذه المرحلة، عرفوا أنّك مظلومة، وأنّ المسألة مسألة طمع لا أكثر. الصحافة التي فجرت القنبلة، وتحدّث يومياً عن العمل الظالم الذي قام به ابن عمك، وتشهد في أغليتها أنّك تتمتعين بصحة جيدة. أمّا الجنون المنسوب إليك، فزعم باطل ومؤامرة خيثة، فقد تقدّمت، بوصفي وكيلك، بعريضة إلى وزارة الداخلية أؤكد فيها أنّك صحيحة العقل، وأنّ اتهامك بالجنون، يُخفي وراءه عملية مركّبة وخطيرة، وطلبتُ، على مستوى النيابة، بتشكيل لجنة طبية لفحصك، والتأكد من سلامة عقلك، ومنحك الحرية التامة التي يتمتع بها جميع المواطنين، وطلبت أن يؤتى على الأقل بطبيب كبير، خارج اسطاف، ليكون العدل والشفافية هما السيدان.



- أدرك وأعرف جيدًا، أنّ يد جوزيف طويلة، طويلة وبإمكانها ان تشتري البشر وعصابات الشر، وأفترض أنّه أن يكون قد اشترى الكثير من الضمائر، لكن هذا يحتاج إلى إثبات حقيقي، لا أملكه. المشكلة كبيرة.

- قلت لك هذا في المرّة الماضية، يجب أن تتحوّل القضية، من القانون المدني العام إلى الدولة، عليها أن تتحمّل تبعات وضع لا مسؤولية لك فيه. المسألة لا تتعلق بخلافات عائلية، أكبر من ذلك، اختراق القانون بالحيلة لسيدة في حالة هشاشة بعد فقدانها والديها. ثمّ أنتِ شخصية اعتبارية ورمزية، وأنتِ مسّ بك، هو مسّ بهيبة الدولة نفسها، أو بأحد رموزها. توقيفك الإضراب عن الأكل، سهّل علينا مهمتنا، أصبحنا في مركز قوّة.

لم أتمالك نفسي من الضحك.

- ما ينقص العمياء إلا الكحل! يا أستاذ أنت تذهب بعيدًا أمام ناس لا أعني لهم الشيء الكثير، وربّما أيّ شيء، بل لا أعني لهم حتّى كوني مواطنة لي كلّ الحق في الحماية والوجود.

هزّ المحامي رأسه قليلًا، يمينًا وشمالًا، في زاويته نصف المضاء، وكرسيه الصّغير الذي كان يحاول أن يللملم فيه جسّدًا فاض عليه قليلًا. لم يرد عليّ، لكنّه صمت قليلًا، ربّما ليركّز أكثر. فتح ملفًا كبيرًا، قبل أن يواصل حديثه:

- سعيدٌ أنّ وضعك الصحيّ تحسّن قليلاً، على الرّغم من الصّعوبات التي يضعها المستشفى في طريقنا، لا أعرف حقيقة لماذا، مع أنّ كلّ ما نقوم به قانوني؟ على كلّ، لن تمنعنا أيّة قوّة لتفجير الحقيقة علناً. اتصلتُ بابن عمك جوزيف وتحدّثت معه طويلاً، وأبلغته طلبك بحديّة، بعدم محاولة زيارتك مهما كانت الأسباب، وضرورة إرجاع المسروقات، أكّدت له أنّ عدم إعادتها للآنسة ماري، سيؤدّي بنا إلى رفع قضية ضدّه شخصياً، وضدّ عائلته في هذا الموضوع تحديداً. أفهمته أنّ أمراً مثل هذا غير مقبول، واستجابته، يمكن أن تخفّف من الأحكام المحتملّة الصّادرة من الهيئة القضائيّة ضدّه.

- أعرف جيّداً، هناك إرادة عمياء تريد أن تضع جوزيف خارج التّهمة، تسترّ عليه بكلّ الوسائل، استولوا حتّى على بيت أهلي ومجوهراتي الخفيفة، ورسائل جبران، قالوا ضاعت، كانت في حقيبتني، لا، لم تضع. ليعيدوا لي فقط عقد أمي، لو يبقى في حياتي نبض واحد لن أصمت، سأطالب به حتّى النّهاية، هو عقد جدتها، قبل أن تموت وضعت على صدري. ذات صباح، أردت أن أضعه في عنقي، كان قد طار.

- هو يقول إنّ كلّ ما فعله كان في صالحك، حتّى التّكبير بك. يستند طبعا على عنصرين قويين في حوزته: الرّسالة التي دعوته فيها ليأتي ويساعدك، وطلب المساعدة واضح، وقد اطّلت عليها كسندٍ قضائي من طرفه، وسأعيد قراءتها، وتوقيع التوكيل، يقول إنك أنت من طلب منه أن

يكون وكيلك لأن وضعك الصحي لا يسمح بإدارة ممتلكك وهايتها من الضياع، توقيعك الشخصي، تم ذلك بدون إكراه. أكثر من هذا، يتهمك بحرق البيت.

- على هذا البؤس أن يتوقف نهائيًا، أنا لا أطلب منه شيئًا، أريد فقط أن أعود إلى بيت أهلي في شحتول، لقد دمرني كليًا، ولا أفهم مطلقًا كيف يخرج سالمًا من هذه الجريمة؟!

- مسألة الحجر، قضية ثانية، خلينا نثبت الاعتداء عليك أولاً ونسقط قوة سنده، وعندما تصبح قضية الاعتداء عليك مؤكدة، البقية سهلة وستأتي تقريبًا أوتوماتيكياً. على كل؛ الدولة نفسها تنوي رفع قضية ضد ابن عمك، وضد كل من تورط في إدخالك إلى العصفورية. حققنا أشياء كثيرة في وقت وجيز، أمر جيد، سيعطي للقضية بُعدًا وطنيًا كبيرًا. أنت إنقونة وطنية ولست فقط امرأة عادية.

- أنا أعرف عناده، لن يستسلم.

- القانون فوق الجميع.

- هو رفع ضدي حَجْرًا في مصر، ولن يتوقف عند هذا الحد، سببنا برفع دعوى حَجْر علي في بيروت^{١١}. لقد رفعه في مصر ضدي كما تعرف

^{١١} هو ما سيحدث في ١٨-٢-١٩٣٧.

حضرتك، لكوني حاملة الجنسية المصرية، لا شيء يُستغرب يا سيدي،
الحجر الذي أقسم عليّ لحرمانني من مالي وحررتي، قد نُفذ قبل أن يبت
القضاء في الدعوى.

- القانون لا يُطبَّق مثل هذا الحجر إلّا على الذين فقدوا عقولهم أو
كانوا قاصرين أو معوقين ذهنيًا، فكيف سري حكمه عليك، ولم تكوني
لا مجنونة ولا معوقة، ولا خرفانة؟

- ما الذي يمنعه يا سيدي في مجتمع يسير بالمال الوسخ والأهواء السرية
والأقاويل التي جعلت مني امرأة شاذة؟ لو كان فيه قانون ما قال عني ما
قاله!

- على كلّ، وصلنا إلى مرحلة لا يمكن فيها أن نتراجع، بقي فقط أن
ننظّم هجومنا، لا نطلب منك شيئًا سوى الثقة، أعرف أنّك فقدت الأمان
في كلّ شيء ولهذا ما يبرّره، لكننا نحتاجك.

- لم يعد لديّ ما أخسره يا سيدي.

- على الجاني أن يعلم أن ما قام به، لن يظلّ بلا عقاب.

لا أدري بماذا كنت أردّ على المحامي، لكنّ شعوسًا كثيرة انكسرت
أشعتها في!

كان عليّ أن أبذل جهودًا كبيرة لكي لا أموت اختناقًا.

كنتُ متأكدة أن وجود محامٍ يدافع عني باستماتة، يكفي لي جعل وضعهم غير مريح. بدأتُ أتنفّس الصعداء، الكثيرُ من الأشياء تغيّرت، لم يعد الأمر مظلماً، لكن من حينٍ لآخر، أخاف من أن يكون ذلك مجرد مسرحية كبيرة ضدي سادفَع ثمنها غالياً، هذه المرّة، بشكل أكثر قسوة. أجد صعوبةً كبيرة في التوقيع على الوثائق الإدارية، أقرأها، وأعيد قراءتها، وأحاول أن أتأكد من أن النصّ الموقَّع عليه لا يحتمل أيّ تأويلٍ آخر. لكن عندما أقرأ التعاطف معي من ناسٍ بسطاء، من أصدقاء قليلين، من معجبين، أحسّ بأنّ الأمر لم يعد على ما كان عليه.

أشعر بالملانكة التي نستني، أو نفرتني، تُحيط بقلبي من جديد.

(٥)

كُلُّ الغيومِ التي كانت تملأ السَّماء انسحبت فجأةً لتحتلَّ مكانها رياحٌ عاصفة، بأثني حتى أذني المتعبتين هسيها. لا أدري لماذا أشعُرني عارية ويزداد خوفي فأتحفني داخل الغرفة؟ كنت أنتظر عودة نجوم الفصل الربيعي الذي يملأ قلبي. عبثًا أحاول أن أنام. بدون دراية مني وجدتني أعص على أطراف أصابعي؛ العادة التي أقلعتُ عنها بفضل والدي الذي كان ينهري، وعُدتُ لها منذ غيابه السريع والفجائي، كلما رأني على تلك الوضعية، اقترب مني وهمس في أذني.

أسمع هسيه الخفي الآن:

- أنت ككل المبدعين العشاق، لغتك فضيحتك، لا يمكنك أن تخفيها، وكلما حاولت سبقتك. من يتأملها عميقًا سيجد كل خفاياك وأسرارك، لهذا أنهم انشغالك.

- عادي يا با.

- معناه أنت مو منيحة، فيه شي عم يشغل قلبك؟

- لا يا با، ولا شيء، عادة سيئة سأقلع عنها يومًا ما.

- الله، انزعي لي هالأصابع من بقلك، تفرحينني إذا فعلت وما أكلت أظافرك.

- حاضر يا با.

انزعها، لكنّها عادت بعد موته. كلّما أصبتُ بحرقَةٍ في القلب، وجدني
أكل أظافري.

ما سمته المكشوفُ بالجريمةِ الموصوفة، لا يُفرحهم أبدًا.

أشتم رائحة حربٍ منظّمة، الكثيرُ من موظفي العصفورية، توقفوا عن
تحيتي، حتّى بعض المرضات يقمن بالحدّ الأدنى فقط، باستثناء بلوهارت،
ربّما أصبح وجودي يضايقهم، الأقنعة سقطت ولم يعودوا قادرين حتّى على
قتلي. يباطلون في كلّ شيء، حتّى في فتح تحقيقي في ظروف إدخالني إلى
العصفورية الذي تورّط فيه بعض العمّال والأطباء هنا، يجيبون بتقارير
أطبائهم أنّ كلّ شيء تمّ بطريقة قانونية اعتمادًا على ما يملكون من وثائق.
بلوهارت المسكينة منحوها إنذارًا شديد اللهجة لأنّها تغيب من حين لآخر
من أجلي، وفي أوقات راحتها، تُهَرّب رسائلي إلى الخارج، إلى البريد أو إلى
أيادٍ حيةٍ وحقيقية في جريدة المكشوف، وتأتيني بأخبار المدينة التي كانت
تعيش حياتها كما تريد، وتُهرّب مقالاتي القصيرة التي قال الكثيرون عنها
إنّها كانت من أشخاصٍ آخرين، أو أنّي كتبتها قبل دخولي إلى العصفورية.

وأيّ قدر صاغوه لي كما اشتهووه، عليّ أن أقف ضدّ رياحه العاصفة؟

الحرقَةُ بدأت من تلك اللَّحظة.

كيف سلّمت نفسي كلياً لجوزيف؟ كان سندي المتبقي، وحائطي، ظننته كبيراً ومتنوّراً وحساساً، وعاشقاً للحياة في صفاتها، تعلّم كل العادات اللطيفة في باريس، لكنه فجأة تخلّى عنها، وأصبح يشبه الآخرين. شككتني في كل يقينياتي، لا أدري إذا كنت قد أحببته، أم تُراه لم يكن أكثر مما تبقى لي من الرجال القريبين الذين كبرت في حمايتهم وحبهم؟

كلّما تذكّرت رسالتي تلك، أدركت كم كنت غبية، ضحية رومانسياتي المتأخرة.

خارج صحيفة المكشوف، يعيدون النظر في كل شيء، لم يكتفوا بجنوني، أصبحت في نظرهم غير موجودة بعد حملة التعاطف العامة التي جاءتني من كل مكان، ووجدت، فأنا مجنونة أمشي عارية، متسخة، هاربة وخائفة من ظلي مثل هيديفر، اعتدي على الناس، وهناك من يتخفى ورائي ويكتب لي، في البداية قالوا والدي، واليوم يؤكدون أنه عشيقتي الذي لم يحصل شرف اللقاء به.

لا شيء في هذا الشرق، الذي أخفق في كل شيء، حتى في أن يكون هو، خسر شريكته، وأخفق في أن يكون غرباً.

أن تكون رجلاً يكتب، فهذا تحصيل حاصل، أن تكتب امرأة لا بد أن يكون لها ظل.

كم يبدو الزمن السعيد بعيدًا، كم هو مصابٌ حتى الأعماق.

القُبْح يصل أحيانًا إلى درجة أن يصبح هو الحقيقة العليا، لا مقاومة له إلا بعدم اعتباره وإهماله كأنه غير موجود مطلقًا، لا سلاح يقتله مثل الإنكار. على المرأة كلما نجحت داخل هذا الوضع الغث، أن لا تلتفت وراءها. في اللحظة التي تلتفت وراءها، هناك من يحفر لها، في الثانية نفسها، حفرة قاتلة تهوي فيها.

لا أدري ما الذي يدفع الناس إلى إهانة المرأة بسبيل من التهم القاسية، كلما خرجت من دائرة العادي؟ كيف لمراقبة أن تفهم عالمًا بكل هذا التعقيد؟ لدرجة أن أبي الروحي يعقوب صروف، طلب مني سيرة خاصة، ليتمكن من الدفاع عني من الهجمات الشرسة. في مصر، أصبحوا يبحثون عن هذا الذي يضحي بنفسه لأجلي، فوجدوا لأبي اتهامات لا تمنني كثيرًا، وعلموا أن لا إخوة لي، فأنا وحيدة أبوي. كيف لامرأة لغتها الأولى الفرنسية أن تذهب نحو عربية لا تتقنها؟ نعم ذهبت نحو العربية متأخرة جدًا ولكن بحب كبير، لم أكن أعرف إلا المبادئ البسيطة التي كانت تعلمها المدارس الأجنبية لغير الناطقين بها، الكتابة التي لم تكن في البدء سوى ميل وسلوى، صارت اليوم احتياجًا عميقًا، صارت جوعًا وعطشًا، صارت شعلة، أصبحت سلطانًا قاهرًا يدفعني إلى الإفصاح عما يشغلني، مسترة غير مخيرة.

منذ البداية أدركتُ أنّ صراعي سيكون كبيرًا مع رجال شاخوا قبل أن يكتبوا، ولدوا مخربي الأدمغة في غمار حداثة أكبر منهم، لأنهم رفضوا كسر كل معوقاتهم الداخلية. كلهم بلا استثناء، صنّاع الحدائث، كلّمها تعلق الأمر بامرأة مزّقت الشرنقة مقابل ثمنٍ غالٍ دفعته من أعصابها وراحتها، أخرجوا سكاكينهم. أزمت الحدائث العربية امرأة، هزيمة الخروج من التخلف، امرأة أيضًا. حتّى أسائني المستعارة لم تنفعني للتخفي منهم. كانت رغبتني لأُحدّد، في نقد المجتمع الشرقي الذي يرى في الغربي كلّ شيء، فاستعرت من ماري البداية والنهاية، ميّ تصغير ماري عند الإنجليز، إيزيس كوبيا يكاد يكون الترجمة الحرفية لماري زيادة، إيزيس أخت الإله وعروسه، ماري أم الابن وعروس البحر، كوبيا اللاتينية مرادفة لزيادة، أيّ الشيء الفائض، هذا التخفي زاد من هياجهم.

بعثت ليعقوب صروف كلّ ما كتبتّه، ونشرته، تحت أسماءٍ مستعارة ذكورية، كثيرة، وأنا أعرف أنّهم لن يصمتوا أبدًا إلّا بإسكاتي أو نزع لساني وكسر قلبي، وجاء من منحهم ما اشتهووه دائمًا، أقرب الناس إلى قلبي، أهل شهادة، هدية منحتها لهم سماء رمليّة جافة.

فجأة وجدّنتني في عالم أكبر من طفولتي التي لم تمّت.

المجنونة؛ كما يسمون كلّ من يدخل إلى هذا المكان، التي أوقفتني عند الأفراس، في أيامي الأولى في العصفورية، حينما خرجت لأمشي قليلًا، بعد

أن سمحوا لي بالخروج، وتأكدت لأول مرة أنني كنتُ داخل كابوسٍ حقيقي عليّ أن أتحمّله لكي لا أنتحر، قالت:

- هل تعرفين أنّ الحمار عندما تأتينه بوردة، يأكلها بشكل أعمى، وما راح يعرف يشتمها؟ هو ما يفرق بين الورد والحشيش لأنه حمار حقيقي.

قلتُ بشيء من الخوف بدا واضحًا على وجهي:

- كيف؟ شو القصد يا سيّدتى؟

- ماجدة، اسمي ماجدة. كانت عندي صديقة مصرية، تُشبهك، بس نخينة شوي، علّمتني كيف أغوي زوجي ليلة عرسِي حتّى ما يكون همازًا فقط، رحت أغويه بالطريقة التي وصفتها لي الصديقة المصرية.

وبدأت تنزع البستها في الحديقة، القطعة وراء القطعة، كنتُ أنتظر أن توقف ذلك عند حدٍّ معيّن وتكتفي بالإشارة، لكنّها ذهبت بعيدًا حتّى نغرت كليًا من البستها الخارجية، ولولا مديّ يدي لها وإليها وأنا أتمتم في أذنها:

- فهمتك حبييتي، عارفة أنك شلّحت ثيابك كلّها، شو صار بعدها؟

- شايقة هذا الجسد، كان أكثر جمالًا وإثارة. كان موظفًا في أحد البنوك الكبيرة، عندما أغويته، أيقظت فيه الحيوان النائم الذي لم أره يومًا في حياتي. هجم عليّ مثل دابة عمياء، خفتُ، حاولت أن أقنعه أن أمرًا مثل هذا يأتي

بدون عنف، شوي، شوي، هي ليلة فرح، وأن عذرتي لن تكون إلا له في النهاية. حتى جنون الرغبة وحماقات الصغيرة، صرّفتها بشكلٍ آخر، أحياناً بيدي وأخرى بفتحي، بحيث تبقى زاوية الشرف محفوظة. عندما رفع ساقي اليسرى، شعرتُ بسكينٍ يخترق بطني السفلي، ثم بدأ الترف. نادى على أمه، قال لها لا أعرف ماذا وقع لها؟ كأنها ستموت، لا تشبه بقية النساء. قالت له: يا حمار هذه امرأة، وليست كيتسا من الرمل، كائن مجروح، هي تنزف وستموت إن لم نفعل شيئاً. أحضرتُ سيارة الإسعاف، وأخذتني إلى المستشفى القريب ورقعوا جروحي وهم يتساءلون كيف لبشرٍ أن يفعل كل هذا في ليلة عرسه؟ وظلّ مرعوباً مني، كلما اقترب من فراشي، أشعر بالزعب، وشعر هو بذكوره نخونه. وفي مرة من المرات، قال: انتهى كل شيء، يجب أن نفترق، أدركت متأخراً أننا لا نصلح لبعضنا بعض، فقدت رجولتي بسببك. وذات صباح عاود الكرة معي، بنفس العنف ونفس حمرة العيون، فتح كل الجراحات المرقعة، هذه المرة لم أصرخ وقيتُ أعوم في دمي بعد أن غبت نهائياً عن الوجود. قبل ذلك بثوانٍ، رأيتُه يصعد إلى النافذة، ويرمي بنفسه من أعلى البناية، من الطابق الخامس، صرختُ لكن لا شيء من صراخي خرج من فمي، استيقظت في المستشفى، كنت مرعوبة من كل شيء، حتى من نفسي وأنا أرى دمي يسيل بغزارة لدرجة أن لعنت كل شيء، لماذا منحنا الله هذه الجرح الذي يفتح الرجل كلما أحرقت شهراته؟ عندما اقتادوني إلى العصفورية، كنتُ شخصاً آخر. هل أنا مجنونة؟ لا طبعاً.

تذكرت كلمة الطيب: هل رأيت في حياتك مجنونًا يقول عن نفسه إنه
مجنون؟

- أريد أن أرقص لك، حفلة ستربتيز.

- لا داعي، ارتاحي أحسن.

شعرتُ نحو ماجدة بشيءٍ غريب، هو مزيجٌ من الرأفة والخوف.

فجأة رأيتُ أياديَّ مشعرة وخشنة، تهجم عليها، ورموا عليها جاكيت
المجانين وهي تتخبط بعنف، وهم يزأرون ويصرخون:

- مين الطيب الحمار اللي سمح لها بالخروج؟ قادرة تؤذي الآخرين.

- تحتاج لحجزٍ انفرادي، حتى لا تسوي لنا كارثة، مثل مجنونة السنة
الماضية التي ذبحت صديقتها الصائمة لأنها رفضت الحديث معها، في لحظة
غضب.

- تعتقد أنها لم تفعل شيئاً سوى أنها أسفقت عليها؟

- شو عرفني بهذه الزبالة؟ عالم من بؤس.

ثم طارا بها بعيداً، أكيد نحو غرف الحجز الانفرادي، كما فعلوا معي في
يومٍ من الأيام عندما انتابتنى نوبة جنون حقيقية، لأنهم رفضوا الاستماع
لكل ما كان يجرقني.

منذ ذلك اليوم لم أرها، ما تزال في رأسي صرختها اليائسة: يا أولاد
الشموطة اتركوني، ماذا فعلت؟ أنا أظهر جراحي لامرأة تشبهني. هو
مات وارتاح، وأنا أدفع ثمن جريمته في حقي، يا أولاد القحبة بيكفي..

جرجروها ككيسٍ مُهملٍ في زاوية مظلمة.

أحيتُ رأسي، ومشيتُ بصمتٍ وتواضعٍ نحو الفراغ.

- ماذا يساوي جنوني أمام حُرقة ماجدة؟

(٦)

أنا مَيّ؟

أنا سيّدة الجنون والهبل الكبير، صممتُ أن لا أموت كما أرادوني.

لن أموت، سأبقى فقط ليراني هو، ليروني هم، آني لم أمت.

للدخان طعمٌ آخر، مع الحياة.

السحبة الأولى كانت بطعم اللعظة، الثانية كانت بلذّة شفتي هينا

الدافتين، الثالثة كانت بطعم الغياب.

من أين يأتي كلّ هذا الصفاء؟

كانت رسالته في يدي. أتأمل العصافير وهي تبحث عن أعشاشها في

مساءت بيروت النحاسية، أكاد أصرخ في وجهه، ثم أخفي نفسي.

الاعتذارات المتكررة خطوة نحو موت الشيء الذي يحكمنا. جملة الرسالة

الأولى لم ترق لي، بدت لي باردة:

- مَيّ العزيزة، أعتذر عن كلّ ما حصل لك. ليس إهمالاً ولكنّها

صعوبات الحياة. لم أسمع بالجريمة إلا عندما عدت من سفرة أمريكا.

أرتب الآن مع الكثير من الأصدقاء، حملةً حقيقية لإخراجك من جهنم

العصفورية، نخطّط مع مجموعة من المحامين الكبار منهم المحامي حبيب

أبو شهلا، الوزير السابق، وهو جد متحمس للدفاع عنك بلا مقابل،
حكيت له عن وضعك الصعب، صديق المثقفين والحق. الأمر يسير الآن
كما نريده.

شعرتُ بحرقه السيجارة في حلقي، لها طعمٌ آخر مع الحرية.

امين الريحاني؛ أول من انتظرت أن يقف بجانبني، لكنه غاب كما غابوا
جميعًا، صدق القنلة بلا تعب، لا ألومه، لا ألوم أحدًا في النهاية، لا يكفي أن
يرفك من تعرف وتحب، نحو الأعلى، تحتاج إلى من يقف بجانبك
بصمت.

لا ألومه، لا أدري لماذا؟ ماذا فعل الآخرون حتى يشعر هو بالحزن
والندم؟ طه حسين! الذي ظلّ يعتبرني تلميذه لها مستقبل، ورفع الصالون
إلى الأعلى: كان صالونًا ديمقراطيًا، مفتوحًا، وقد ظللت أتردد عليه أيام
الثلاثاء إلى أن سافرت إلى أوروبا لمتابعة الدراسة، أعجبني منه اتساعه
لذاهب القول وأشتات الكلام، وفنون الأدب، وأعجبني منه أنه مكانٌ
للحديث بكلّ لسان، ومنتدى للكلام في كلّ علم. العقادا الذي عشقته
وقاسمتها ما أخفيته عن الآخرين، كان نموذجي في الاستماتة من أجل الحق،
لم يُغفقه السجن أو الغطرسة، كان يجد ضالته في الصالون، يقول إن الصالون
جميل، لكنني أنا أجمل من كلّ شيء، أنا ملكة التوجيه، وإدارة الحديث، بين
مجلس المختلفين في الرأي والمزاج والثقافة واللغة. لطفي السيدا صاحب
مقولة: الاختلاف لا يفسد للوّد قضية. كان وزيرًا في حكومة محمد محمود

للمرة الثانية. أنطون الجميل الذي ظلّ يسميني بيبي، الذي كان زهرة الصّالون. حبيبي إسماعيل صبري، دينامو الصّالون الذي أعطاه من كلّ بلا هوادة، خرج من هذه الدّنيا وأنا بين هذه الحيّطان. أين أحمد شوقي الذي غضب منّي وأنا أحاكبه عن حادثة الدونشواي؟ من يومها لم أراه. حافظ إبراهيم! شاعر الرّقة والمحبة، المحبّ للمرأة. وغيرهم كثير. من لم يعتبرني مجنونة، صمتَ وما يزال، يستمتع بمشهد الجريمة التي مورست ضدّي بشكلٍ معلن، ويتلذذ، ولم يقل حتّى كلمة حقّ في صداقة ظننتها كبيرة.

كيف تجرّأ عباس محمود العقاد أن يرميني بسهولة؟ ألم يكن حبيبي، رغم خلافاتنا الخاصة! كان مأزوماً من جبران وغير جبران، ولم يكن لدي أيّ حلّ له، كان من الصّعب عليه أن يراي امرأة خارج السّيطرة، خارج سربه النّسوي السّري الذي أعرفه، حلال عليه، وحرام عليّ، أن يكون شخصّ في أقاصي الدّنيا، يفصل بيننا محيط بكامله، ومن الصّعب عليه أيضاً أن يقبلني بكلّ جنوني وحرיתי، منحتة يوماً خاصّاً به سبنا- الأحد، لأنّه كان يتضابق من يوم الثلاثاء المخصّص للصّالون، لم أكن مهياًة للنوم معه، وهذا خياريّ، شيء ما في داخلي كان يرجعني في كلّ مرّة إلى تربيتي في الدير. مع الزمن يش منّي، كان يغضب كطفلٍ صغير، يرفع رأسه قليلاً ويضع إصبعه على دماغه، في عادة هي أقرب إلى شوقي، كالمعلّم المفكّر الذي يحمل على ظهره يأس الدّنيا، أحاول أن أقنعه أنّ جسدي ليس ملكي، لدرجة أن يش من بأسّي ومنّي، هو يريد أنثى شهية بعد فيلم جميل نراه معاً في الفانوس السّحري، ويبت معطر مهياً للحظة قد لا تتكرّر أبداً، فيفاجأ بامرأة تفعل

مع كل شيء إلا أن تنام في حضنه، حظّه وضعه في كفيّ مثقفة، لا تنفعه كثيراً في الفراش، تكاد تكون هو، رجل بجسد امرأة تفكر، شبيته في كل شيء، حتى في غيرتها وعنادها. أكاد أصرخ وهو يمدّ كفّه الرجولية نحو جسدي الذي كان يرتعش كلّما منه، يا حبيبي أنا امرأة مسيجة بالمنوعات، من كل الجهات، ما زلت أحمل في داخلي ظلام الأديرة، وأوامر أمي، وخوفي من مبهم لا أعرفه، وابن عم لا أعلم إذا كان يحبني، أو ما يزال مع زوجته الفرنسية.

كل ما وجدته العقاد ليقوله عني: مميّ متديّنة، تؤمن بالبعث، وأنها ستقف بين يدي الله يوماً، ويحاسبها على آثامها، بالرغم من شعورها بالحياة، وإحساسها العميق الصادق، وذكائها الرضاء.

اختلفنا بعمق، لم أكن سارة التي اشتهاها، فحشرني في هذا

لا أدري إذا كان حباً؟

العقاد الذي تحوّل مثل عاصفة دخان، كان يحبني. عندما سافرت في صيف ٣٠ أغسطس ١٩٢٥ إلى إيطاليا، ومنها إلى ألمانيا، كتبت له رسالة، لا أدري إذا كان ما يزال يحتفظ بها: حسبي أن أقول لكأنّ ما تشعر به نحوي مؤنّس ما شعرتُ به نحوك، منذ أول رسالة كتبها إليك وأنت في بلدتك التاريخية أسوان، بل خشيتُ أن أفتحك بشعوري نحوك منذ زمن بعيد، منذ أول مرّة رأيتك فيها بدار جريدة المحروسة، الحياء منعمي، وقد ظننت أنّ

اختلاطي بالزُملاء يشير حمية الغضب عندك. والآن عرفتُ شعورك، وعرفت لماذا لا تميل إلى جبران خليل جبران. لا تحسب أنني أتهمك بالغيرة من جبران، فإِنَّه في نيويورك أو بوسطن، ولم يرنى أبداً، ولعلّه لن يراني كما أنني لم أره إلا في تلك الصور التي تنشرها الصحف. لكن طبيعة الأُنس يلد لها أن يتفاير فيها الرجال وتشعر بالازدهاء حين تراهم يتناقسون عليها.

أفزع الأشياء هي أن تشعر أنّ لا نصيرَ لك في عالم الخوف والصمت هذا.

اكاد لا أعرفني أبداً، كم من مرّة قلتها في خاطري، دون أن أعلنها.

لا أحب الانتحاره، لكنّه فرضية قائمة في غمي عندما يتابني اليأس الكلي، لا أكرهه، لكنني أعتبره هزيمة كبيرة أمام قدر أقوى، أسوأ ما يتاب الإنسان من قوّة ضعفه، إعلان صريح عن الفشل الكبير، لحظة تسليم حياتنا الثمينة لقدرٍ أعمى، لا نفكر بعدها في شيء سوى في حالة التهاوي والسقوط، وفي درجة الألم. الألم هو المحدّد لكل الخطايا، يمنعنا عن القفزة الأخيرة من شرفة الموت.

أهي كان دائماً يذكرني بهذا، كلّما قرأ ذلك الشيء الغامض في عيني، والذي لم أعرف أنه الكتابة إلا عندما كبرت:

- تعرفين يا مّي، أسوأ ما يتاب الإنسان، هو إنهاء علاقته بحياة هي في حركة دائمة. الحياة ليست لنا، ولكنها لشيء يتخطّانا، للخير والحب،

أرواحنا للرب، احذري من التفكير في هذه اللعبة، فهي ليست تسلية،
يمكنها أن تتحوّل إلى حقيقة.

- لا تخف عليّ يا بابا، ابتك تشبهك بقوة، لا تستسلم. رأيتُ خيانتك
وهزائمك، شممت رائحة عرقك وأنت تكافح، بل سمعت عظامك وهي
تقرع بحثًا عن أماكنها بعد أن تفككت طوال اليوم بحثًا. كوّنت في داخلي،
دون أن تأمرني بذلك، شيئًا في الدّاخل ضدّ العدمية، وريّما هو ما يحميني من
مزاجي الذي يخيفني أحيانًا.

كنتُ داخل الحقيقة ولم أكن أكذب على أبي، كان مثلي الأسمى في
المقاومة. على الرّغم من أنّ الانتحار حالة اختصار للألم ومحاربة اليأس، في
أعمامي شيء ينتصر دومًا للحياة، كيفما كان اتجاهها.

أدخل كابوسًا، وأخرج منه، لأعود له ثانية، فأجدني في عنمةٍ أخرى من
جديد، لكن لم أسدّ أيّ بابٍ ورائي وأنسحب، هذا لا يشبهني أبدًا. كثيرًا ما
سافرتُ، لأقطع حدًا مع الخيالات التي تقهرني، نمّت العديد من المرات
فقط لأنسى ما يأكلني، وأنخطى مسلك الكوابيس. أحارب كأبتي التي أكذ
لي عليها الطّبيب النفسي، يبقيني الوحيد ورغبتني المجنونة في أن يراني الذي
وضعتني داخل هذا الخراب، حرّة كفراشة، وأنه لم يتل منّي في شيء.

حلمي الوحيد في هذه الدّوامة أن يراني على غير ما اشتهانِي.

جُرح القسوة والظلم لا يُنسى، لكنه ليس المنتهى. تلك معركتي، عندما
انتهى، منها سأعود إلى نفسي.

حلّمي أن أرى جوزيف وهو يلمحني بنصف عين، وهو يراني أسترجع
حقّي في الحياة الذي طمسه.

أسحبُ اللقافة الأخيرة بمتعةٍ طويلة، يصعد الدخان عاليًا، يمنحني
دفنًا كبيرًا وشهوةً بالطيران.

شيءٌ فوق الحرية يسحبني نحوه، يتتابني بقوة، ربّما كانت أنفاسُ
العدراء الزكية.

٤- اخفرو لهم يا ربّي، فهم لا يعرفون.

من هنا، أرى أو أتخيل، جبالها، ناسها، عشاقها على حافة البحر، جبالها
المغطاة بالثلج، شوارعها الناعمة.

عندما أفتحُ النافذة، تدخل الرياح الباردة، فتنعشني، أهرت كما الورقة
اليابسة التي تستعيد حياتها من جديد. البرد القاسي، عز الشتاء، لكن
بمجرد غلق النافذة، يعود الدفء من جديد. الرياح التي عصفت طويلاً
البارحة، وهزت الأشجار بعنفٍ شديد، لدرجة أنني كنتُ أحسّ بأمتها
ستغادر جذورها، وستقتلع من الأعماق، توقفت نهائياً.

جسدي لم يعد لي من شدة الإنهاك والبرد، لكنني شديدة السعادة،
تعودت أن لا أثق في الوعود الهاربة، الوعد هذه المرة كان صادقاً. أخيراً
جاءوا بي إلى مستشفى نيقولا رايبير^{١١}، شديدة الإنهاك لكنني حاملة، لم يبق في
الآغمي المخترق، الذي كان ما يزال يفكر قليلاً.

أخذوني في عربة ساعدتني على التنقل، نحو سيارة الإسعاف. كنتُ مثل
ميتة، لكن الحياة بدأت تدب في. أحاول أن أتخلص من صورة جوزيف،
لكنها ماثلة أمامي مثل الكابوس، تمنيت أن أكرمه لكنني لم أتمكن. تمنيت أن
أكرهني، فأحرقتُ في لحظة غضبٍ بعض كتيبي، والمخطوطات التي لم تُرق

^{١١} نقلت مني إلى مستشفى نيقولا رايبير، ومكثت فيه من ١٩٢٨، ١٩٢٨ إلى ١٩٢٨.

لي، وكذلك أحرقت الدار. لم أكن مجنونة لكنني كنتُ خائفة من أن تسقط بين أيديهم.

أحيانًا أقول ماذا لو اعتذر لي جوزيف عن خطئه القاتل، وجثا عند قدمي كما يفعل عند القديسات، واعترف بخطئه القاتل، وطلب مني أن أرى صدقه في عينيه، هل كنتُ سأغفر له؟ لا أعتقد، لا أدري؟ بي شيء من الضغينة نحوه، نبث عميقًا في كالجراثومة، واتسعت خرائط الشك في حتى استولت على الجسد الجريح الذي فقد الطعم والسمع، وأصبح يصني لخوفه وأنيبه، مع آتي لست كذلك. كلما تذكرتُ آلامي أغمضت عيني طويلاً وضغطتُ بكل قواي، لكي لا أرى نار حقدتي المشتعلة في.

شعرتُ بأسى تجاه الذين غادرتهم، بالخصوص العاشقة وحببها خادم الحديقة، كانا يعيشان قصة حب حقيقية في غابة مثل البدائين، على الأقل من طرفها. من الصعب على المرأة أن تُخادع في عواطفها دون أن يظهر ذلك عليها.

في مرة من المرات سألتني بخجل. كانت في صفاء أذهلني، لم يكن بها أي جنون، بالخصوص بعد خروجها من نوبات حادة تصرخ فيها بأعلى صوتها، منذ مدة وهي تعيش هدوءًا خاصًا:

- مش حلوة، بس بدني أسالك.

- تفضلي حبيتي إيزيس الدا.

- السؤال شوي محرج، أنا بنام مع أميرى خادم الحديقة، مرتين في الأسبوع، بس بخاف أهل منه، هو يقول إنه يعرف تفاصيل هذه الأمور، يعني...

- فهمتك يا قلبي.

ضحكتُ طويلًا، قلتُ لها:

- مثلك حبيبتى، ويمكن أكثر، أمية، مع ذلك، عرفتُ تفاصيل كثيرة عن هذا الشيء.

- قصدك ما جربتِ؟

- بهذا الشكل، لا.

- يووووه لو تجرّبي، ما راح تعرفي توقفي.

ضحكتُ طويلًا لدرجة أني لم أستطع أن أوقف ضحكتي المتفجرة. نجعلت في مكانها، لكنّها كانت تحكي براحة.

وشرحتُ لها عن الحلّ الطبيعي الخاص بالحساب، بدءًا من نهاية العادة الشهرية، والحذر كثيرًا. لا أعرف إذا كانت إيزميرالدا حقيقة مجنونة! فهي مقبلة على الحياة كصبيّة.

قالت:

- ساجزب واحكي لك.

ضحكت مرة أخرى في أعماقي، كدت أقول لها: جئت عند أسوأ خيرة،
هههه.

إيزميرالدا متحوّلة كما الريح، يوم ناعمة كنسمّة بحرية، ويوم عاصفة.
في الحاليتين أعطفُ عليها.

عندما جاءت لتودّعني، يوم مغادرتي العصفورية، كانت مُشرقة، بعينين
جميلتين مكحلتين، وشعرٍ غجري أشعث. همست في أذني كأنها خائفةٌ من
أن يسمعها شخصٌ ما:

- افرحي لي يا ست ميّ، أنا حامل. فحصني طيبب العصفورية عندما
رآني أتقيًا كثيرًا، أكّد لي على الحمل، استدعوني بعدها للمكتب، وقلتُ لهم
الحقيقة كلّها، سألوني إذا اغتصبني أميرى كازيمودو، قلت: لا، حبيبي
مستحيل يغتصب حبيبتة لأنه يحبّها، وليس في حاجةٍ إلى ذلك، فأنا له بكلي.
وأميري كان رجلًا مستقيمًا، اعترف هو بنفسه أمام الطيبب، وقال بوفاء:
هذه حبيبتى وهذا ابني أو ابنتي. وعدونا أن يأخذونا للكنيسة، ويزوّجوننا
دينيا، ولم يُطرد من عمله، كما كان يظن. بس أرتاح شوي، نتزوّج، نرحل
ونخرج من هذا البؤس. قال الطيبب إن شفائي قريبٌ جدًا، وإنّ حالتي
تتطوّر بسرعة إيجابيًا.

- بس كيف حملت؟

- ما يعرف ا طبقت طريقتك وما نفعت، أو أنا خربطت في الحساب،
يمكن العادي أحلى. أنا كثير مبسوطة، سنغادر معًا المكان، ونذهب لنعيش
في الجبل، العذراء تفهم جيدًا قلبينا.

- ألف مبروك حبيبة قلبي إيزميرالدا.

- لازم تحضري لعرسنا.

- بمشيئة الله.

حبيها كان في الخلفية، اكتفى برفع يده والتأشير لي من بعيد، حيته من
حيث المكان الذي كنتُ أقف عليه.

لا أدري ماذا أقول؟ هل التي كانت تحدّثني، كانت جادة؟ هل ما زالت
مجنونة؟ فقد تغيّرت بسرعة، في كلامها المهذب، في لباسها الفاتن والمورّد
الجميل. لم يفتها أن تنبّهني له:

- شفّت لباسي ما أحلاه، حبيبي اشتراه لي.

- حلو، يلبق لك يا روجي.

- أول ما أخرج، أزورك في رابيز، خلص، وعد.

ثم عانقتني، شممتُ عطرها الرخيص، أخرجتُ قنينة عطرٍ إيطالي
ووضعتها في يدها:

- أنتِ امرأة رائعة، أرى أنك سُفيتِ بفضل الحب، استمتعي بالحياة
إيزمبرالدا، تستحق منك ذلك، لقد سرقوا منك الكثير، ليحفظك الله يا
روحي.

البرد قارص، ولكن المكان هنا أرحم. الأسرة حديدية، لكنّها ليست
مثلجة، كما في العصفورية. يتتابني الإحساس العميق أنّ المحنة الأولى
انتهت ليبدأ شيء آخر قد يكون أقلّ عنفاً لأنّ جسدي لم يعد قادراً على
التحمل، ولو أنّ إحساسي بمحنةٍ أخرى يرتسم في الأفق المنعّب.

لن يتوقفوا عند هذا الحدّ، من بيني مشروعه على الشر، لن يتوقف عند
هذا الحدّ.

يوم دخلتُ إلى رابيز، وجدت كلّ الناس الذين تضامنوا معي، في
انتظاري. آل الجزائري الذين فرحوا جداً بخروحي من العصفورية،
ساندونني بقوة لحظة ما سمعوا بالجريمة الموصوفة، شعروا بالظلم المسلّط
عليّ. كانوا من عليّة أهل الشام، كنت أعرف عميد العائلة، الأمير سعيد
الجزائري، حفيد عبد القادر الجزائري، يوم زرتُ الشام بدعوة من نساء
سوريا، كتبَ تقريراً عنيّ. لقد ركض آل الجزائري طويلاً بين الإدارات
لإتقاضي من جنونٍ حقيقي. جهنم التي عشتها أنقلت حياتي، وأعمت
الكثير من حواسي إلا حاسة الاستماع لآلام الآخرين ونشيجهم، فقد
علمني الكثير من الصبر. أشعرُ كلّما غفوت قليلاً، أنّ تجربتي في الألم كلّها،

كانت كأنها من طعم سيدنا المسيح ودمه، وهو يقطع درب الآلام حاملاً على ظهره صليبه ومساميره.

آل الأيوبي والخورري، والسيد فارس الخوري تحديداً، رئيس المجلس النيابي السوري، وزوجته الطيبة، السيدة أسماء عيد، لم يقصروا معي، ظلوا يصفون إلى حرقه الظلم التي ألبسها لي أهلي وأنسابي بالقوة، جعلوا من قضيتي مسألة إعلامية، صححت ما قالت الصحف المأجورة. كلمات فارس الخوري وزنت كثيراً، في وقتٍ تخلّى عني من أحببتهم في مصر، لا أفهم لماذا؟

قلبي يؤلني كلما تذكرت أحبابي في مصر، لا أنسى جهودهم، سأظل أقول هذا الكلام وأكرره بلا توقّف. ماذا لو أثار طه حسين زوبعة، وهو سيدها وقادرٌ عليها؟ ألم أقف بجانب قضيته ضدّ الظلم الذي تعرّض له، يوم حوكم بسبب كتابه في الشعر الجاهلي؟ ويوم طُرد من الجامعة؟ ماذا لو ركض نحوي محمود عباس العقاد من القاهرة، إلى بيروت؟ ألم أكن حبيته التي أهتمه بكتاب^{١١}، ومنحته ما لم تمنحه لأحدٍ غيره، وضمتني إليه، كما تعود أن يفعل معي كلما عدت من سفرة، أو جاءني من قريته، حيث يهرب دائماً؟

^{١١} رولية سرية.

لا يمكنني أن أتخطى هذا الرجل أبدًا، لا نعترف بالحقيقة، لكن بعض الحروب كاذبة بالخصوص التي عرفتها، معركة على السفود بين عباس محمود العقاد، ومصطفى صادق الرافعي، لم تكن ثقافية، وأدبية بالمعنى الدقيق للكلمة، في عمقها كانت نار الغيرة تشتعل بينهما بسببي. هل رأيتم رجلاً يحبّ غريمه في امرأة الأقدار المجنونة، أو تلك التي يتخيلها حبيته؟ الرافعي كان يراني آتي أعاشر شخصًا يكره المرأة، وأنّ كل ما فيها هو غير صحيح، وآته لا يحترمني، وآته يحكي في المجالس آتي نعتجه الشبهة، وعشيقته. وكان العقاد، حتى بدون أن أبدي رأيي فيما يفعله، ينتفض بقوة. أعرف غيرته الكبيرة من كل المنافسين له أدبيًا، بالخصوص جبران. لكنني كنتُ أقول له دائمًا الإجابة التي لا يحبها ويكرهها:

- آتي حبّ هذا؟ جبران هناك، وأنا هنا، لا أصلح له، ولا أعتقد أنه يصلح لي، أنا امرأة تربيتي دينية، لبقّة جدًّا، رجلي يجب أن يكون لي كلبًا، وإلا لماذا اخترته من بين عديد الرجال؟

كان يسخر كثيرًا من الرافعي مثل طفل حقود: ماذا عشقت في رجلٍ أصمّ وأبكم، ومعتوه، وربّما مجنون أيضًا؟ لم أكن أملك وسيلة الدفاع عنه إلا الصمت، كل ما كان يكتبه الرافعي، كان العقاد يأتيني به ناقمًا: ما هو معتوهك بينك مرة أخرى، أمام الجميع، وأنت تجدين له كلّ سبيل التسامح؟ وكانت علاقتي على كفّ عفريت، فوق بركانٍ حقيقي، انفجر البركان، وخرجت من كفي، كلّ العفاريات المتخفية: أنا امرأة حرة، ولست

أمة أتي رجل، إذا ما عجبك أمامك النيل واشربه. كلما تطرقت في مزاجي صار العقاد عاقلاً فجأة. أنا امرأة معشوقة، ليس لأني أجهلن، ولكني فقط أشبههم، المرأة المكروهة المحبوبة، السهلة الخطيرة، العاشقة المكروهة.

أنا امرأة حية، لم تمت بعد كما شاء لها الآخرون، وتعرف ماذا تريد. أتذكر دوماً كلمة هدى شعراوي رائدة صالوني: مَيّ تعرف قدر نفسها في تواضع جميل.

ثم ماذا لو سأل عتي سلامة موسى؟ ألم يعلن لي عن حبه عشرات المرات، ورفضته لأن أنانيته كانت كبيرة، ونفسه الداخلية كانت صغيرة؟ مع أنني كنت معجبة بما كان يكتبه أيما إعجاب. كم هي المسافة كبيرة بين الإيمان بفكرة الخير، والقدرة على الدفاع عنها وتنفيذها؟ كلمات فارس خوري كانت مهمة، وفرت لي بعض السكينة:

- يمكنني أن أقول بكل صراحة إنني تحدثت إلى أناس كثيرين في بيروت فلم أر فيهم من هو أعقل من الأنسة مَيّ، وأزيد على ذلك أنني سمعت من بعضهم أخطاء لم تفه مَيّ بواحدة منها. هي بحالة عقلية تامة، لكن صحتها الجسدية ضعيفة.

تشدد زوجته السيدة أسماء عيد على يدي:

- عمتك ستوقف، فارس سيقوم بكل شيء، متأكدة من ذلك.

- هذا ما كنت أنتظره يا سيدتي، أتساءل أحيانًا في خلوتي: أهذه هي المكافأة التي أعدتها لي المرأة الشرقية بعد جهاد طويل من أجلها؟ أهذا ما تلقاه الأديبة في الشرق؟

- فارس كلف الوزير السابق المحامي حبيب أبو شهلا للدفاع عنك، وتطوع لفعل ذلك أمام المحاكم اللبنانية للتأكيد على سلامة عقلك واسترداد حقوقك المغتصبة، وربما العمل على تشكيل هيئة طبية لاختبار وضعك والانتهاه من هذه المحنة التي يعلم الله كم أذتك.

- بحاجة إلى قليلٍ من الراحة فقط لكي أسترجع نفسي التي ضاعت داخل الخييات واليأس. أنام قليلًا وأقول شكرًا أيها الرب، واعتذر من عندما صرخت لماذا تخلّيت عني يا الله؟

- أنت الآن في مكان آمن، لا خوف عليك، وفارس عمل كل شيء من أجل راحتك.

في الأخير، عندما التفتت السيدة أسماء نحوي، شعرتُ بألم عميق في قلبي، وعيني، وأنا أرى خطين مستقيمين يرتسمان على خديها، قبل الخروج. كانت صادقة.

وعمل الكثير، بل والمستحيل، لأكون هنا.

رافع من أجلي أمام أعضاء المجلس ١٧: ما حدث لمتي، هو أكبر جريمة ضد المرأة وضد العقل. كيف لا تهتمون بهذه النابغة اللبنانية؟ كيف تسجن متي بين جدران مستشفى المجانين، ولا يثور الرأي العام اللبناني ويظن هذا الخبر سراً مكتوماً؟ لقد كان حديثها لي حلواً لا إبهام فيه ولا تعقيد. لقد وجدت فيها متي الكاتبة، الشاعرة التي عرفناها في الماضي، فكيف دُبرت هذه المؤامرة اللدنية على نابغة النابغات؟ أنقذوا متي، وابدلوا جهدكم. حرام أن تعامل الأنوثة التامة والنبوغ والعبقرية هذه المعاملة التي عولمت بها متي.

قد تأتي الأشياء متأخرة، لكنّها تحمل فرحها أيضاً، لإزاحة الظلم.

امتلا قلبي بالنور، يمكنكني الليلة أن أكل.

تصريحات فارس الخوري كانت مهمة، أعادت لي الأمل في الحياة.

البشر الحثيرون هم من يعيدون لنا الأمل ونحن في مدار الهاوية. لا يأس.

لا أدري لماذا تذكّرت كلمة سيدي وحيبي وأستاذي الكبير لطفي السيد؟ قلبي مروع من غيابه، لكن حركته في مصر من أجلي منحتني بعض الثقة فيه. تعجبني مواقفه الكبيرة، اعتزل السياسة بعد الحرب العالمية

^{١٧} نشرت المراجعة في جريدة بيروت في ١٢ شباط ١٩٣٨.

الأولى فعاد إلى قريته بالدقهلية قبل عزل الخديوي عباس، وإعلان الحماية على مصر، وتنصيب الأمير حسين كامل سلطاناً عليها. قبل لطفى السيد منصب مدير دار الكتب المصرية الذي عرضه عليه الخديوي حتى لا يقبض عليه الإنجليز، لكنه سرعان ما استقال، ليعود ثانية إلى دار الكتب، بعد الاحتفال بتأسيس الجامعة المصرية التي ترأسها. ثم دخل لطفى السيد ضمن تشكيل حكومة محمد محمود باشا كوزير للمعارف، ثم ترك المنصب، ليعود ثانية إلى رئاسة الجامعة في ١٩٣٠، ليستقيل منها في ٩ مارس ١٩٣٢ احتجاجاً على نقل طه حسين من الجامعة إلى ديوان الوزارة، دون موافقة، وهو ما اعتبره تعدياً على مؤسسات الدولة.

لو فتحتُ باب هذا الرجل العظيم لن أتوقف أبداً، من الناس الذين عرفتهم في وقت مبكر في بيروت.

^{١٨} في ١٩٤١ غادر لطفى لطفى السيد الجامعة محتجاً على اتصال الأمن بالطلبة. وتنتهى الأمر في مجلس الشيوخ، ثم ربيعاً للمجمع النخوي قبل وفاته في ٥ مارس ١٩٦٣. هو صاحب مقولة: الاختلاف في الرأي لا يفسد للود قضية.

(٢)

تمنحنا الطبيعة أحياناً ما يعجز عنه البشر.

هذا الصّباح بلونٍ آخر، بلون الخضرة والنحاس.

تبدو الأشجار والمدينة كأنّها طلّيت بالذهب في أعاليها وقمم جبالها.

فقد بدت الشّمس الشّتوية من نافذة غرفتي الجديدة، جميلة، والغابة هادئة ومستكينة، والمرّات، والطّرقات الصّغيرة من أعالي البناية كرسومٍ متقنة الصّنع، البناية ساحرة جدّاً وكأنّنا في بيتٍ أندلسي قديم يستحمّ في الشّمس صباحاً، وينامُ على عطر الياسمين، ومسك اللّيل.

تذوب السّيجارة بهدوءٍ ويقين بين أصابعي المستسلمة. كلّما ارتعشتُ، أحسستُ بأنّ شيئاً ما فيّ يشتعل مثل البركان، فأحاول أن أهدئ من روحي حتّى ولو كان مصدره وهماً.

كلّ يومٍ أحسبُ الدّقاقق لأرى الشّمس وهي تخرج من وراء الصّفصافة العالية، مسلّطة أشعتها على قلبي، كمّ احتاج أن أكبر في ظلّها بلا أسئلة، أغمض عينيّ ثمّ أفتحها لأجد نفسي وراء البيانو القديم أعزف آخر أداجيلو لموزارت، أو سنديانة شحتول، أكتب فرحي الطفولي الذي اغتصبه جوزيف، مع أنّي بنيتّه معه.

أفعلُ هذا كلّما شعرتُ بحزنٍ، لأستعيد الرّغبة في الحياة، احتاج لها باستماتة المجنون.

هذا المشهد رافقني منذ صغري. وأنا في الناصرة، كنتُ أصعد باكراً إلى السطح، أفنح عيني عن آخرهما، أشاهد الشمس وهي تخترق كل الحواجز، أراها تُشرق من وراء كنيسة البشارة الضخمة والعظيمة، والجامع الأبيض المواجه لبيتنا، في الحَيِّ القديم، ولا أنزل أشرب قهوتي رغم نداءات أمي المتكررة، حتى أستحم بالأشعة الصبّاحية الأولى، قبل أن يعلوها الغبار وتلتصق بها الأتربة. أستيقظ أحياناً على صوت المؤذن يُرسل في السحر نشيده الزائِق المشجي: "الله أكبر، الله أكبر". فلا تلبث أن تتعالى من ناحية أخرى في البلدة، رنات أجراس النواقيس في انسجامٍ وحسن إيقاع، فتُشدُّ بلغتها الفضيّة ما مفاده "الله أكبر". ويندغم النشيدان في اصطحابٍ متفردٍ، يتشَرُّ مرفوقاً كالجنّاح، ثمَّ يحملني ويخلِّق بي في مجاهل الأثير، شأن من يقصد إلى قلب العوالم والأكوان، إلى حضن باري البرايا، الرحمن الذي لا إله للجميع إلاه.

كنتُ أتمنياً لاستقبال يومٍ جديد، عندما سمعت دقاً خفيفاً على باب غرفتي الجديدة. هنا في رايبز، لا شيءٌ غير السكينة والدواء والمراقبة الصّحية، كلّ لمسوة من الطّبيب أو الممرضات تعيد لك إنسانيتك، لا تحتاج لا إلى حجز ولا إلى جاكيت مجانيين. هذا الإحساس وحده يكفي للارتقاء بك. يحتاجون إلى قليل من الرّاحة فقط.

في العصفورية فقدتُ كلَّ شعورٍ بالأمان.

أخبرتني المرضة يواكيم إستر عن أن سيدة من آل الجزائري تريد أن تزاني بعد أن أجرت عملية جراحية معقدة، وهي في غرفة ليست بعيدة عن غرفتي.

آل الجزائري سمعت عنهم كل الخير، وصلتني بعض أصداء جهودهم للخروج من العصفورية.

- تعرفين يا إستر، هؤلاء أهلي وأحبابي. آل الجزائري أكرموني يوم عبرت نحو الشام، الأمير سعيد الجزائري، أكرمني بمحبته. نعم أجيء معك، بس دقيقة واحدة، أغير هدومي حتى لا تهرب السيدة الجزائري من رؤيتي، هههه.

- معك دقيقة يا آنسة ميّ، قبل أن يمرّ الطيب في دورته الصباحية، وقبل أن تنام السيدة.

غيرت لباسي وسرت في أعقاب إستر النشيطة، دخلنا الغرفة بهدوء بعد أن سبقتني. اقتربت منها إستر، وشوشت في أذنها، قامت السيدة بكل احترام ووقار من فراشها، كانت الخيوط التي تنزل من حوضها ويطنها كثيرة، بعد العملية الجراحية.

سبقتني ببعض الكلمات:

- ارتاحي يا آنسة ميّ، لا تعمي نفسك، عائلة الجزائري تعرفك ونجيك.

- مرحبا سيدي، قلبي معك، ربنا يشفيك، ساعة ضيق ومغضي.

- مؤمنة بأقدار الله، هو سيد ما يشاؤه. أيام قليلة وأغادر المكان، أنا من اختاره. قلبي معك، كلنا في الشام، نفكر فيك، لقد أصبحت رمزاً لمقاومة الظلم والضعان ضد المرأة. فكّرنا في أن نأتي إلى المستشفى ونضرب عند مدخل العصفورية الرئيسي، لكن سيدي الأمير سعيد، عندما استشرناه، رفض، ووصف عملنا بالانتحار لأنه سيعقد الأمور، وسيقرأ المحتل الإنجليزي، الذي فرض وصايته على البلاد، فعلنا بشكل سلبي، ما ننتزعه منهم، أقل بقليل مما نشاؤه. نحن في حالة تمزق كلي. أنا من عائلة عميد عائلة الجزائري، الأمير سعيد، أحد أحفاد الأمير عبد القادر.

- حصل لي شرف التواصل معه قبل سنوات، يوم زرت الشام، رجل شهيم جداً، نحفظ نحن المسيحيين كل الود والمحبة لدفاعه عن مسيحي الشام بشهامة كبيرة، ونحفظ للأمير سعيد نفس الأحاسيس عندما عمل باستماتة على توقيف الأحداث الدموية بين الدروز والمسيحيين، وحقن الدماء. فقد فكّر آل الجزائري في حماية المسيحيين لأنّ الحكومة المحلية سحبت كل قواتها من حيثهم وتركتهم بلا حماية في أحداث ١٨ تشرين أول ١٩٢٥، مما دفع بالعائلات المسيحية من أمثال آل العجلان، القوتلي، الأيوبي، رجالاً ونساءً وأطفالاً بعد الحريق، وذهب الأمير شخصياً لمقابلة الجنرال غاملان، وطلب منه أن يتوقف عن ضرب المدينة بالقنابل، وسمع الجنرال له، وفعل ذلك أيضاً مع المفوض الفرنسي السامي، ونبهه إلى

^{٩٩} لقد القوات الفرنسية في سوريا من Le Général Maurice Gustave Gamelin،

١٩٢٥-١٩٢٦

كوارث استمرار الحرب بين الذروز والمسيحيين، والعمل على عقد صلح بينهما، لكن المفوض السامي في سوريا، الجنرال سراي، كان غارقاً في أفكاره الاشتراكية ولم يكن يحقّه الشرق وعاداته في شيء، كان مغلفاً.

فجأة رأيتُ قسامات وجهها بشكلٍ أوضح عندما أشعلتُ الممرضة إستر يواكيم الكهرياء.

- أنت يا مميّ تمنّين بحفظون الود والخير والحب لكلّ الناس، لو كان الزمن زمنًا صادقًا لوضعوك في رتبة وزيره ليعود عملك بالعدل على أرضك وناسك الذين لم ينسوك أبدًا!

- يا سيّدي ما أجمل قلبك الكبير، لكنني لا أريد شيئًا آخر سوى إخراجه من هذا العفن.

- لقد اتصل سيّدي بمن لهم قدرة على فرض الحق، وسيظهر الحق قريبًا، منذ أن عرف سيّدي بقصّتك وهو لا ينام، ويجمع كبار القوم للذهاب نحوك وإخراجك بالقوّة.

- ممكن يستعملون الرصاص الحيّ! الكثير من الأطباء مسلّحون.

بقيت معها حوالي النصف ساعة قبل أن تقصّ علينا حبل التفكير المرأة التي مع حبيبها أمير الحديقة، عرفتها من صوتها.

⁵⁰ Général Maurice Sarrail.

في اللّحظة التي كنت أهمّ فيها بالخروج، حاولت ممرضة السيّدة جزائري طردها، لكن هذه الأخيرة رفضت، قالت بصوتٍ خافت:

- ميين عليها مسألة، اتركها، ليست عدوانية، تريد قليلاً من الأمان لا أكثر.

- يا ستي هذه مجنونة تتخيل نفسها من سلالة الأمراء، سمّت نفسها إيزميرالدا.

نظرتُ إليّ كأنها كانت تنتظر منّي دفاعاً:

- إيزميرالدا، امرأة طيبة، تعيش مع نفسها، أراها في كلّ مرّة في الحديقة، تحلم، تفرح، تحب، لكنّها لا تؤذي أحداً، جاءت لتراني لأنّي غادرت المكان، وهي حامل من زوجها أمير الحديقة.

انفرجتُ عيناها عن ابتسامة عريضة:

- أنا وعدتكم، تزوّجنا خلاص، ونقيم في الجبل. أمير ي براء، في قاعة الانتظار.

- هذه اللي أمامك أميرة من آل الجزائري.

وركضتُ متحدية الجميع، نحو فراش الأميرة، وقبّلت يديها ورجليها، وهي تتمتم:

- أنا إيزميرالدا، وأسمع بك، وأقدر أعمالك الخيرية في بلاد الشام.

سألتها الأميرة الجزائري عني:

- هل تعرفين السيدة التي أمامك؟

قالت بلا تردد وبصفاء كبير:

- نعم، أعرفها جيدًا، الست مي، المرأة الطيبة والنييلة، الكاتبة الكبيرة
الأميرة مي زيادة.

ضحكتُ بالرغم مني:

- أميرة! ياريت، لم يعاملوني حتى كأنسانة فقط!

التفت الأميرة آل الجزائري نحوي، بينما وضعت إيزمير الدا رأسها على
حجرها.

- ادعي لي يا مولاتي، أن يكبر ابني في الخير.

- إن شاء الله يا إيزمير الدا، عطرك كثير حلو.

- إيطالي.

فتحت حقيبتها الصغيرة ووضعت في كفها.

- خذيه يا سيدتي، أعرف أنه لا عطر ينقصك، لكنه هدية من مجنونتي على
فعل الخير.

التفتت الأميرة الجزائري نحوي:

- محتك خرجت من العصفورية وكلّ الناس يعرفونها، تهون، سمو الأمير سعيد، مصرّ على أن يوقف هذه المهزلة، اتصل بشخصيات نافذة في الشام، منهم عائلة الأيوبي، ورفعوا عريضة للدولة اللبنانية، وللحاكم الفرنسي، ضد حجزك وحجرك.

- الدّنيا ظالمة، شوفي هذه المسكينة، عائلتها جنتها، وهي من الجبل، عشقت عاملاً في حديقة المدينة، وهي هنا مرتبطة به بطريقتها الخاصة، كلّ واحد فينا يحمل قصّته المعاندة.

إيزميرالدا، هي تعيش خارج دائرة البشر كلياً.

فكرتُ أن أسألها بالتفصيل عن صحتها، لكنّي قلت في نفسي إنّ المكان غير مناسب. وكأثما سمعتني، أخذت يدي في حضن يدها.

- سأحكّي لك قصتي مع هذا المرض المتعب، ربّما كانت العملية أكثر من ضرورة، أقدار الله تطلّ الجميع، كيفما كانوا، وأينما وجدوا. حتّى تلك التي تعيش في خدر جميل، الإنسان جزء من هذه الطّبيعة القاسية والجميلة أيضاً، مع أن أعماق بعضهم كثيراً ما تكون طيبة.

- نعم يا أميرتي، في عمقه أيضاً موروثات متوحشة تعيده إلى جذره الحيواني، وإلا ما حدث الذي حدث. ما الذي يدفع بشخص يملك كلّ سبل العيش الرغد، والهناء، والحياة الطّيبة، إلى أن يتحوّل إلى وحشٍ حقيقي، فقط ليؤذيك، ويستولي على كلّ ما أعطتك الحياة؟ جيّد أننا لا نملك إيمان الفراغنة، فنترك كلّ شيء وراءنا، ذهبنا وممتلكاتنا وقصورنا،

رأى لزيد طمع الناس واقتالهم. جردوني من كل شيء، حتى من حقي أن
أكون إنسانة عادية.

قبل أن أخرج، سمعت صوت الطبيب في البهو وهو يسأل مرضته:

- هل هذه غرفة الأميرة الشامية.

- لا، الثانية، على اليمين.

سحبْتُ إيزميرالدا من ذراعها بسرعة، وخرجنا. قبل أن تطلاوعني،
قبّلت يد الأميرة، ولم تنس أن تعنّفني بغضبٍ في البهو:

- أوعي يا مميّ، شوي، شوي على البيبي، الطبيب ما راح يموت إذا
انتظر دقيقة؟ الجنين، ما بيتحمل لا الصراخ ولا العنف، لما يجي على الدنيا،
راح أقول له: شوف حبيبين وحياة العذراء مو أنا، اللي زرّقت ذراعك هي
خالترميّ.

- والله بيبي طالع لأمه، دلح في دلح. يا الله بسرعة، نترك الحكيم يدخل.



(٣)

عندما وقفت عند العتبة، عرفته من ظلّهن وعطره، وأناقته الكبيرة.

لم أتحكّم في حركاتي، فمئتُ بسرعة من مكاني وعانقته طويلاً، لم يتغيّر كثيراً، أمين الريحاني، هو هو، الرجل الجميل، ربّما جسمه امتلاً أكثر.

ظللتُ صامته أتاقله، أحتى رأسه قليلاً ولم يقل شيئاً.

خانتني كلّ الكلمات، خانني تجلّدي وصبري، فبكيّتُ طويلاً، ويداي في كفيّه.

قال وهو يبحث عن كلماته بخجل:

- كأنك مُجمّعة عن الكلام؟

- ليس لديّ ما أقوله.

- يا ممي، اعتذارٌ صادقٌ خيرٌ من حقيقةٍ مزيفة. تعرفين أنّي كنتُ في أمريكا الشمالية لمدة ثمانية أشهر، وأنا حزين لأنه كان يمكن أن أسأل عنك على الأقل، أو أفعل أيّ شيء من أجلك.

جد لساني، ولم أجد أية رغبة في الكلام، بل انتابني رغبة كبيرة للتقيؤ، حتّى عندما خرج لم أنفعلن له، ندمت في أعماقي لأنه بدا لي كأنّي حملته بأكثر مما يطيق، لكنّ شيئاً ما تجاهه كان يحرقني في القلب، لأنه الأقرب إلى قلبي

وروحى، لم يكن إنسانًا عاديًا أو نكرة، بالنسبة لي. ليته فعل مثل الآخرين ولم يعد، كنت نسيتُه بلا ألمٍ أو حنين.
مرًا كالغيمة، وكالظلّ انسحب.

بعد ثلاثة أيام عاد ثانية، هو هو، بابتسامته الطيبة، كما في زيارته الأولى. لم أمنع نفسي من الفرح به، ضممته إلى صدرى كأنى منذ زمن بعيد لم أضمّ رجلاً. كنت أفعل الشيء نفسه مع والدي، قبل انسحابه من هذه الدنيا، منكسرًا ومريضًا وفي قلبه خيبةٌ كبيرة. عانقته كما في المرّة الأولى، ورتبًا بشكلٍ أكثر حرارة. أحسّ بذلك، قرأتُ عينيه الصافيتين.

جلس على الكرسي المحاذي للسرير، ابتسم وهو يقول بكلماتٍ منتظمة كأنه حفظها عن ظهر قلب:

- أنا لا أتكلم اليوم، لقد قلتُ كل ما أريد قوله في الزيارة الماضية، ولم بسمعي أحد. إذن سأسكت، وعلبك أنت أن تتكلمي حتى آذن لك بالتوقف، ههههه.

صمتُ كثيرًا قبل أن أتفطن إلى أنني لم أكن أرغب في خسارته، كما في المرّة الماضية. كنت عاتبة عليه، ناقمة، بل حتى حاقدة أحيانًا. الذين نحبهم نغفر لهم في آخر الوقت. رمادي الذي سكتني كان أقوى مني.

- لقد كنتَ هنا عندما جيء بي من مصر يا أمين، وكنتَ هنا، عندما نُقلتُ إكراهًا إلى العصفورية، وقد كنتَ هنا أثناء وجودي في ذلك الجحيم.

كم من مرة فكرت فيك، وأنا ناقمة حانقة؟ أيعقل أن يصدق الأستاذ الريحاني، بكلّ جلاله وقدره وإنسانيته، ما يصدقه الناس؟ قلتُ في خاطري يومها: والله لو صدقت أمة أجمعها، ما شتعه الناس بخصوص ميّ، يجب أن لا يصدقه الأستاذ الريحاني! بل أن يجيء بنفسه، ويرى بعينه. هذا هو سبب نعمتي عليك.

- اعترف ولن أدافع عن نفسي.

- أخيراً يا أمين، اقتنعت بغير ما أقنعوك، وجئت؟

- قصّة طويلة يا ميّ. كنتُ دائماً أقول لنفسي، كيف رضيتُ ميّ بالذهاب إلى العصفورية؟

- لم اختر شيئاً يا عزيزي. جاؤوا بي إلى ذلك المكان لغرضٍ واضح كان في نفوسهم. سأحكى لك كلّ شيء بالتفاصيل عندما يحين وقته. تعبتُ وكدتُ أموت.

- خلاص، الوجد الكبير انتهى يا روحي، أمامك حياة أجمل.

- أخاف أن تخفي لي الأقدار الصعبة فصلاً جديداً في جناح جهنم.

- لن يكون إلا الخير. في قلبي رماد هو خليط من اللوم الذاتي والخيبة، عليّ أولاً أن اعترف بذنبي، فقد كنتُ مقصراً في واجب الرّمالة والحبّ، بل عن واجب الصداقة المقدّس، صدقت ما صدقه جميع الناس، صدقت

الإشاعات المحزنة عندما جيء بك من القاهرة إلى بيروت قبل مدة طويلة، فاستكثت عن زيارتك، وأنا أبرر عملي بما تطوّر من مزاجي، فإنني في مواصلة العاقلين قليل الرغبة، فكيف هي في مواصلة غير العاقلين؟ إنّ الرّوح مصدر الصداقة، وإنّ العقل مختلط اختلاطاً قاهرًا بالرّوح، فمتى ذهب العقل، ذهب خير ما في الرّوح كذلك.

- فلسفة أستصعبها، الزيارة لا تكلف كلّ هذا.

- لكن يا ممي لا أفهم! ضمني نفسك في مكاني، كيف قبلت الدخول إلى العصفورية؟ كيف وقّعت لهم صكًا، بشرّعت سرقتك، وأنت في كامل قواك العقلية؟

- نسألني كيف قبلتُ بالعصفورية؟ هل هناك عاقل يقبل بهذا؟ هههه، تمخّل امرأة فقدت أعزّ ما بقي لها، فقدت أمها وأباها وسيّد روحها جبران؟ تمخّل أيضًا، إذا استطعت، امرأة تقاوم من أجل الحصول على طاولة بانسة فقط لتكتب حتى لا تموت قهرًا بالحروف التي تظّل عالقة في حلقتها؟ لقد جردوني من كلّ شيء بما في ذلك عقلي. ضحكوا من المستشفى وقالوا: ماذا فعل امرأة مثلك غير متوازنة، بطاولة؟ كان عليّ أن اعتبرهم كلّهم مجانين وأنا العاقلة الوحيدة، وأجيبهم وفق ما افترضوه في. فقلت لهم ساخرة، كما أشتهي أن أفعل أحيانًا عندما تتجاوز الغباوة حدّها الأقصى: الطاولة، طبعا لأرقص عليها مثل عادة المصريات العاشقات، والمجنونات. الطيب

فهمني جيداً، أدرك مغزى ما كنت أقوله، أوقف المحاور وأمرهم بتوفير طاولة: وقرؤا لها طاولة.

لم يستطع أمين الريحاني كتم ضحكته.

- والله هذا جزء صغير من الحقيقة، أتوني في النهاية بطاولة، منذ ذلك اليوم وأنا أكتب ذاكرتي والمي.

- لكن، كيف انطلت عليك الحيلة؟

' - ربّما لأنّي كنتُ في الأصل على حافة الانهيار، كان جوزيف يعرف جيداً ضعفني نحوه وثقتي فيه. منذ الأسبوع الأول، أحضروا مدير العصفورية الدكتور ميلر، وطبيبها الأساسي، زاعمين أنّه جورج؛ مستشرق إنجليزي. وظلّ جورج المزعوم يعود المرّة بعد الأخرى، نتكلّم في الشعر والأدب الإنجليزي، غالباً طيلة الفترة التي استبقوني فيها عندهم، لا لتحيطني العائلة بمحبتها كما يقولون، بل لغايات كانوا يعرفونها هم وحدهم.

وحكيّت له عن الجريمة بالتفصيل المملّ، لم يقل ولا كلمة، كان فقط يهزّ رأسه وينظر عميقاً في وجهي، ثم يثبت عينيه على الأرض كأنه يرفض أن يرى وجهي.

- كنتُ أحسّ بوجع غير مسبوق وهم يستيبحون جسدي، لم يكن معي أحد، بل لم يدافع عنيّ أحد، كان الجبن سيد كلّ شيء. لماذا؟ هل فعلت شيئاً

مُثَبِّتًا لِيقتلني هذا الشرقي الأليم الذي دافعت عنه بكلِّ حواسي؟ لا أحد قال كلمة واحدة.

- عذراً يا ممي، يُفترض أن لا أثقل عليك بأسئلتني، في النهاية بعد كلِّ عذابات الإضراب عن الأكل، هل جنيت من ورائه شيئاً؟ كان يمكن أن تموتى وتقدمي لأعدائك خدمة جليلة.

- تعرف لماذا؟ المسألة بسيطة حبيبي. أغلب الناس الذين زاروني عند وصولي إلى بيروت، كانوا يحدّثونني بأحاديثٍ تدل على اعتقادهم التام بجنونِي، فكنْتُ أشفق أن تصل السذاجة بابن الإنسان إلى هذا الحدِّ، وأن يسيطر اللؤم على النفس البشرية، وسيطر عليها بمذلة، فأمقت أن يقع نظري على قومٍ أشبه بقطيع، يفكِّرون بمقول الآخرين. طبعاً هؤلاء الناس معنورون إلى حدِّ ما، فقد زعموا أنني أحرقت مكتبتي، وهي أعزُّ ما أملك في الحياة، بما فيها من مؤلفاتٍ تحمل توابع أصحابها وعبارات إهدائها. ذهبوا إلى أبعد من هذا، زعموا أنني حاولت إحراق الأطفال، فكان من السهل عليهم بعد هذه المزاعم الباطلة أن يصدّقوا ما يقولونه عني.

- أحزن لآتي لم أنفطن من البداية باللعبة المدبّرة، أحبي الناس الطيبين الذين أحسوا منذ البداية باللعبة المدبّرة. كان الشيخ فؤاد حبيش أكثرنا نبصراً، لهذا كانت جريدته المكشوف، هي الوحيدة التي وقفت في صفِّك. على الرّغم من التهديدات، لم يتوقّف أبداً عن العمل لصالحك، جنّد الكثير

من الصحفيين لصالح قضيتك، في طليعتهم سعيد فريجة، الذي اقتنع بأن وراء جنون مي، المزعوم، مؤامرة قذرة غايتها الاستئثار بأموالها.

- بينا الذين أحبهم، تحوّلوا فجأة إلى بخار، سرعان ما ابتلعتهم الفضاءات. يااه كم الناس قساة بلا سبب!

تلعثمتُ، هربتُ الكلماتُ مني، انتابني رغبة في البكاء قاومتُها بصعوبة.

أشعرُ بالأرض تميد تحت قدمي وأنا ورقة في مهب الريح، لا أستطيع أن أستقرّ في مكان.

لا أحدَ يسمعي إلا قلبي المتعب.

حتى بيروت التي أحببتها، خدعتني، أغلقت حواسها وصمتت آذانها لكي لا تسمعني وأنا أصرخ عاليًا، بينما ظلّت واقفة عند الأبواب الموصدة تنظر إليّ بعينين فارغتين مثل عيني ميت، واستجديها وأقصّ عليها قصتي. اسمعيني يا بيروت، لا أحد غيرك يسمعي، هذه هي الحقيقة، أنا لا أتخيل يا بيروت، أنتِ لستِ البشر، أنتِ كلّ شيء، اسمعيني، لن تخسري شيئًا: **فقد أبقاني عنده شهرين ونصف شهر، على مضض مني وأنا أطالبه بالعودة، حتى استكمل برنامجي في أمري، فأرسلني إلى المصفورية؟** أنا لم أرسل نفسي إلى الموت، هو من فعل ذلك. هل يعقل أن يصبح الإنسان رخيصًا إلى هذا الحدّ؟ أعرف أنهم كانوا يريدون موتي. أخي الأوحدمات في وقت مبكر، الوحيدة التي تحرك أظلمهم هي أنا، وأنا العائق أيضًا.



عائلتي انتهت. أنا امرأة وحيدة، وغريبة، ومنبوذة. لا ناس لي ولا وطن. أصبحتُ بين يومٍ وليلة أتكى على الفراغ. لهذا استباحوا جسدي كما شاهوا، بحجة التغذية، وباسم الحياة القاني أولئك الأقارب في دار المجانين أحضر على مهل وأموت شيئًا فشيئًا، لست أدري إذا ما كان الموت السريع هينًا؟ أما الموت البطيء طيلة عشرة شهور وأسبوع من التغذية القهرية، كان قاتلاً.

- يا أستاذ الريحاني، تمنيت أن تكون أنت أول من يسمع وجعي، لكنك لم تفعل. لستُ في موقع محاسبة من ظلمني، ولا من صمّ أذنيه وأخذ صفّ القنلة. لم أعد أريدُ شيئًا سوى الراحة قليلًا، والاستماع إلى داخلي المنهك لترقيع كلّ التهتكات التي خلفتها سكاكينهم، والعودة إلى القاهرة. ساعدني يا سيدي على العودة إلى مصر، إذا استطعت، تلك أرضي أيضًا، أريد أن أموت هناك، لم يعد لي ظلّ هنا، ولا شمس، ولا قبر.

- ماذا أقول يا ممي؟ أشعر بحزنك، متأخرًا، نعم، لكنني أشعر به بصدق، وليس مجارة.

عندما أصفو قليلًا، وأعود لنفسي الجريحة، أنسى مستشفى رايز، فيبدو لي حائط العصفورية الذي لم أنسه أبدًا، مثل حائط قلعة قديمة، طويلًا ومتآكلًا في بعض زواياه، ارتسمت عليه خرائط لا تؤدي لأيّ مكان، لكنها خرائط الإهمال والرياح والأمطار. أتبعه وهو يزحف كتعبانٍ خرافي. معهم حق أن يرفعوه. في اللحظة التي أدخلوني فيها إلى هذا المكان، أول شيء

فكرت فيه البحث عن منفذ للهروب. الآن أصبحتُ على يقين أن في الدنيا
مَسْعًا لشمسٍ لا تراها ولكنها موجودة.

كنتُ أغمض عيني لتفادي الموت السريع، مما ضيَّب ما كنتُ أراه،
أغمض عيني قليلًا وأنسى كلَّ شيءٍ وأفنع نفسي بأنه مجرد كابوس،
سأستيقظ بعد قليل، ويتهي كلُّ شيءٍ، وينقشع هذا الخوف مع أول شعاع
شمسٍ يخرج من وراء البحر والظلال الكثيفة للأشجار، التي تفرُّقُ
العصفورية بسرعة في ظلمتها.

- كم أريدُ لهذا الخوف أن يتركني وأتخلَّص منه دفعةً واحدة!

- سيتهي كلُّ شيءٍ وتعودين إلى حياتك الطبيعية.

ميّ أنا؛

ما زلتُ هنا كما لم تتخيلني أبدًا، أفتش عن بقاياي النالفة، في كلِّ
وأجزائي وجزئياتي، لا بد أن يكون هناك شيءٌ يتخفى تحت أجنحة الغياب،
لا بد لهذا الظلم أن يتوقف ويمنحني فرصة أن أختار حياتي وموتي، ولا
يفرض عليّ ناموسه.

أسحبُ نفسًا طويلًا من سيجارتي اليتيمة، التي هربت مثلتها، عندما أخذوا مني كل شيء، حتى لباسي الذي اخترته بدقّة في القاهرة، وأنا قادمة إلى بيروت، وبيروت مدينة أنيقة.

تخيّل يا فيلسوفي الجميل، لقد سحبوا مني كل شيء؟ عندما قلتُ للعلّيب أريدُ سيجارةً واحدة، حكّ على رأسي.

- حبيبي ماري ما يصح، نحن في مستشفى يا روح قلبي.

- لن أحرق المستشفى، فقط أريد لمخي الذي يغلي بقوة أن يستريح قليلاً.

- السّجارة ليست حلًا.

- لكنّها تريحني.

- راحتك الوحيدة الآن هي أن ترتاحي قليلاً، أغمضي عينيك وتناولني أدويةك، تعودني على المكان، أعرف أنّ المسألة صعبة لكن يمكنك فعل ذلك بشيء من الصبر.

- لا أحب المستشفى، وفوق هذا العصفورية؟

- ومن يجتبه يا روحي؟ لا أريدك أن تنتقلي إلى الجهة الأخرى.

- ما معنى الجهة الأخرى؟ الجنون! أنا فيها، لست في قصر السلطنة.

- المهم أن تتراحي، متجددين قوتك وطاقتك، وأنا مسؤول أمام أهلك.

- أهلي؟ كلهم ماتوا، أبي، أمي، جبران. ومن بقي منهم أصبح لثماً، أو

قاتلاً. ماذا كان جوزيف وأنسابي في النهاية؟

حكّ الطيب على رأسي مبتسماً، في ابتسامته إشراقٌ ساحر. أحبّ الرجال الذين يتسمون، حركة الابتسامة فاضحة، نرى فيها العاشق والحائد، السعيد والنكدي، المجنون والعاقل. كلٌّ من ابتسمت لهم حولوا الابتسامة إلى إعلان حبّ. تصحّر في عمق الإنسان العربي. وحشته الأساسية امرأة لم يجسم معها حساباته الحياتية. كتمتّ الابتسامة وحوّلتها إلى صرامة لم تكن لي ولا هي تشبهني. هناك عطش ذكوري تحمّله بكلّ ثقله. أشتهي أن أنعمي لرجلٍ واحد أمنحه كلّي ولا أترك لنفسي شيئاً، ولكن لا أحد منهم كان يجبني كما اشتهيت. ساموت وسيفتح كلّ منهم علبته السرية، ليجعل من الحبّة قُبّة، من صباح الخير إعلاناً عن حبّ، ومن اللّمسة حبّاً مجنوناً على سرير اللّذة.

الطيب خرج ولم يلتفت نحوي. لا أدري لماذا غمز المرضة، مفرجاً عن ابتسامته المشرقة وأسنانه البيضاء؟

أنسحبُ نحو داخلي، أرميني في ضجيج مدن الخوف والفرح، تخترق أنفي عطورها وحينها.

أسحبُ طويلًا وأخاف أن تنتهي بسرعة، أتعطرُ بدخانها ورائحتها التي تشبه عطر الخزامى التي طلبتُ من بلوهارت أن تأتيني بها من حينٍ لآخر. أحب الخزامى، لهذا سعدت عندما وجدت صالون الخزامى في غرفتي في رابيز، في الحمام.

كانت نبتة خزامى. أسمع الجملة تأتي من أبي، من عمق المطبخ، كلما حممتي أمتي وعطرتني.

سرقك الموت متي يا با، ومنحني بعض سنوات عمرك لاستمر وأستمر كما قلت لي وأنت تودع هذه الدنيا.

- آيتها الشعلة الزرقاء، استمري بكل ما تملكين من شعلات حية ومتقدة دومًا. على الرغم من أن الحياة ذئب متوحش، فهي شمس، وصباحات مشرقة، ومطر ساحر، وثقافة، وخير، ومحبة. هشاشتك مصدرها الحب وليس الكراهية، ضميتها قدر ما تستطيعين، ولا تتركي الحياة تغلت من يديك. داوي جرحك بجرحك، وخوفك بخوفك، وأملك بالملك. الباقي يأتي من تلقاء نفسه. ما يغلت يسبح في الوديان، ويتبخر في الفضاء، ويموت في النفوس، ولكن يعود أبدًا.

استمر اللقاء مع الأستاذ أمين الريحاني أكثر من ثلاث ساعات مسكونة برماد الخيبة والظلم، كان عليه أن يعرف المظلمة التي كنت فيها، لم تكن المسألة دلعًا فارغًا، فقد تحطيت ذلك العمر.

- لماذا لا ترتدين ثيابك وتغادرين هذا المستشفى؟

- إلى أين وأنا لا مال لي؟ كيف أخرج من المستشفى والحجر علي؟ أنا مقيدة يا أستاذ، قيدوني وحجزوا مالي، نهبوا بيتي، ورشحوا أنفسهم بأنفسهم لإرثي.

أحتى أمين الريحاني رأسه، وضعه بين يديه. عندما دخلت إستر يواكيم، طلبَ منها حبة لوجع الرّأس.

جاءته بحبتين وكأس ماء.

- اشرب الاثنتين مع بعض، سترتاح بسرعة.

قام من مكانه، عانقني كما عادته الطيبة.

- شكراً أنك منحتني ثلاث ساعات من تعبك، وسعيداً أن المكشوف حرّكت النيابة العامة بناء على طلب وكيلك حبيب شهلا وبهيج تقمي الدين. أرافق الأستاذ فؤاد حبيش في مهمته النبيلة.

(٤)

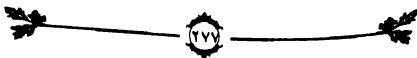
أعرف أنّ الله بدأ في كلّ ما وقع لي، لهذا بقدر الضرّ الذي مسني، هناك فرح ظلّ متخفيًا، لي.

استغربتُ أن يزورني أمين الريحاني في أقلّ من أسبوع مرتين، مع أنّي ساعته من كلّ جوارحي لأنّه حسّسني بصدقه، لم يخف عني شيئًا، حتّى انزلاقه مع الآخرين. حزنْتُ ولكنّي سعدت لصدقه، وفعل أكثر مما في وسعه لأنّه هنا في رابيز، في وضع صحّي أفضل وأجمل.

عندما دقّ عليّ الباب، كنتُ شبه نائمة، وحتّى دائخة بسيجارتي الأخيرة التي دوختني من كثرة تلذذي بها. لولا السجارة والكتابة كنتُ ربّما جُنتت. يكفي أن أتذكّر ما حدث لي لأصاب بالهبل الحقيقي. ووجهي تحت الغطاء ولا تظهر إلّا عيناوي. أتذكّر فصول العصفورية لحظة بلحظة. لكنّي استعدتُ بسرعة وزني في رابيز، بل أصبحت خائفة من البدانة. كنتُ أعرف أنّه حبيبي، أمين الريحاني، الذي عاد من أمريكا فقط ليرعاني بقلبه وكلّ حواسه. هذا الرّجل في هذا العالم الضحل نادر، لكنّه موجود. كآتي فجأة ساعته دفعة واحدة.

- ميّ، أمين الريحاني.

- ادخل، ما فيه حدا غيري.



سمعتُ صوته الشجي الذي ما يزال به شيء من طفولة، لم تعش
بالشكل الكافي.

- معي ضيف، يريد أن يراك، توسّطت له عندك.

- إذا كان يشبه الآخرين، ليعد على أعقابه. لكنني أعرف أن قلبك
طيب، ولن تأتيني إلا بالطيبين.

كنتُ صادقة فيما كنت أقوله.

- رجل من معدن فريد، هو اللي حكائي عن كل مصائبك.

أردتُ أن أقول، سأكون في مستوى استقبال الضيف، لكنني لم أفعل.

دخل وهو ينظر إلى عيني المتعبتين. أزال حيرتي بسرعة. أعرف من
وجهه، لكن الأدوية كثيرًا ما كانت تسرق مني بعض راحتي، ونباهتي،
فتثقل جسدي كله.

- هل عرفتِ هذا الرجل يا ممي؟

قمتُ فجأة من فراشي.

- مستحيل أن أخطئ في هذا الفنان العظيم، أستاذنا الكبير يوسف
الحويك.

- كل هذه الذّاكرة الحية بعد القسوة التي عشتها؟

- نعم، على الرغم من نظري الذي أصبح مرتبكًا، وأخاف أن يعود لي مرض العيون الذي علق عليه جبران كثيرًا.

- الله يرحمه، هذه العيون الذكوية لا تُخفى على أحد، أرى الذكاء الوقاد والألم المكبوت والكبرياء الجريح.

- نترحم على من يموت، جبران حيّ.

تدخل أمين الريحاني، مغيرًا الحديث من جبران. كان يعرف هشاشتي من جبران، هو من أبعدي عنه، أو هكذا يظنّ على الأقل. لا أحد يمكنه أن يعدّ آخر، عن أحد. كان من الصعب عليّ، بتريتي الشرقية، أن أكون واحدة من كل. اشتهيت أن أكون الكل في واحد. مستحيل.

- شفت، ما قلت لك هي بتعرفك منيح؟

- مستغرب كيف ما تذكّرتُ أين التقينا أول مرّة!

- بالنسبة لي لا يمكن أن أنسى، مش حضرتك يا اللي كنت تتخفى وراء مسائل خطيبي، ابن عمي، نعوم، الموجهة لكنار شهاب، اللي هي أنا؟

- بالضبط، يا فضيحتك يا يوسف، يا يوسف، هههههه.

- كيف ما مرّ بذهنك أنّ اللي كنت عم بتكاتبها هي ميّ؟ الرجال بهاليل حقيقة.

- معك حق يا ميّ، بهاليل وأيّ بهاليل!

لا أدري إذا كان يوسف الخويك يعلم بخراب ما فعله؟ كادت لغته تقتلني، وترميني بين ذراعي نعوم. فقد اكتشفت لاحقاً، بعد أن رُسمت الخطوبة، أن عالم نعوم كان شيئاً آخر، لا علاقة له بي مطلقاً. الخطوبة كادت أن تكون خراباً، كيف أقبل بنعوم، وجوزيف كان حبيبي؟ أمي مصرّة عليّ، وأبي خائف على قطعة الأرض المشتركة مع أخيه، أكثر من خوفه عليّ. العائلة مجتمعة صرعتني، وشلت عقلي بكلامها. نساء العائلة في ضيعة شحتول باركوا الخطوبة، منّا فينا، دمّ واحد. كنّ من حين لآخر يتغامزن عليّ، كلّمنا رأيتني تحت السنديانة يتهامنن:

- يا عيب الشوم، صار لها شهر ونص ما غسلت محرمتها! هيدي مين راح يقدر يتزوجها؟ محظوظة أتها وجدت نعوم، إن شاء الله ما تعصص. منحب نزوجها لابن عمها حتى يظلموا الرزقات شركة وجوات البيت، ما بياخذمن حدا غريب، وما يروحوا لبرّا. أهلك أهلك ولا تهلك. وحدة مثل هيدي لا تترشيل ولا ترقيع بترقع، ولا بتغزل ولا بتنفص الحصيرة ولا عارفة شو السيرة، تقبل نعوم وتسكت.

أضحك في أعماقي.

وقتها كان حب والديّ يكفيني وزيادة. أكثر من هذا، كنتُ في أعماقي لجوزيف، رأيتُه في تلك السنة، عندما عاد من باريس، فلم أستطع تفاديه، كنتُ دائماً أشعر أنه حبيبي، ومستعدة للصفح عن غلظته ضدّي، وجدت له

^{٥١} ١٩١٣، حينما عاد من باريس.

عزّ كونا صغارًا، ورغبته في إتمام تخصّصه الطبي. كان يوسف مثار اهتمام العائلة كلّها، بما في ذلك والدي ووالدي. رجل باري بامتياز، بهيته الأنيقة. لم يتبه لي يومها كثيرًا، بل أحسست أنه كان يتفاداني، أما أنا، فقد كنتُ مشدودة إليه بقوة، حتّى قبل سفره إلى باريس. كانت بيننا قصة حبّ جميلٍ أحتاج إلى إرادة فولاذية لأتخلّص منها.

في مراهقتي؛ كان جوزيف يزورني في مدرسة بيروت، وسحبني معه لأجل أماكن التهر، تعلقت به، وكان ما يزال يدرس الطب في بيروت. كنتُ مصابة به.

تمتّت، اعتقدتُ أنّ صوتي قيّ ولم يخرج:

- يا إلهي كم إنّ مصائر البشر تشدّ على خيطٍ رقيق، ينتهي في أغلب الأوقات إلى التمزّق!

- تلك هي الحياة يا ممي.

أردف أمين الريحاني قائلاً، وهو يتتبع كلّ حرّكاتي.

- أنا أعتذر عن كلّ ما صدر عني، في الحقيقة كنتُ أكتبُ لنفسي وليس لك، لأنّي وقتها كنتُ على حافة الانتحار بسبب خسراني للمرأة التي أحييت.

- لا مشكلة يا يوسف، الحبّ الأول، موتٌ بطيء يظلُّ حيًّا؛ للأسف.

لم يكن جوزيف في النهاية إلّا آلة للقتل المنظم.

كان أول حبّ، ولا أعتقد أنّ رجلاً واحداً غيره، استطاع أن يهزني من أعماقي، ويغيّر نمط حياتي. أنساني ضوابط الأديرة التي كنتُ أتهباً لها، كان يضمّني إلى صدره، فأستسلم له. تقبيله لي أمام زميلاتي كان يُسعدني. الرجل الوحيد الذي أزال عني ألبستي السوداء الثقيلة التي ما يزال بها عطر الكنائس والأديرة، وأيقظ ارتجاف جسدي الغضّ كلّما مرر عليه أصابعه. كان كلّما مدّ أصابعه الأنيقة، شعرتُ باشتعال يحتلّ كلّ داخلي. كان جوزي وقتها يصنع لي سجن الحبّ الأول، الذي لم أخرج منه حتّى اليوم. الحبّ الأول لا يُنسى، يستمرّ فينا حتّى يحرّقنا ويحولنا إلى رمادٍ، لا أحد يستطيع للمته، حبّ الحيرة الذي يحولنا إلى عبيد حقيقيين، لا نحن قادرون على التخلّص منه، ولا هو قادرٌ على أن يتركنا نمضي في سبيلنا.

- ما راح نثقل عليك يا مّي، حبّيت أخبرك فقط أنّي وجدت لك سكناً على رأس الجبل في انتظار بيت في الفريكا، قرية مّي ومن عائلتي، هكذا نلتقي بسهولة، وإذا احتجتِ أيّ شيءٍ نحن في الخدمة.

- لا أدري كيف أشكرك؟

- المهم تكونين مرتاحة قليلاً، وتنسين كلّ الزّمن المرّ الذي عشّته.

(٥)

البيت جميل.

كان عليّ أن أفعل ذلك على الرّغم من قصر اليد، رافقتني الممرضة إستر
يواكيم.

يقع في مرتفعات بيروت، نزلة أبو طالب، متواضع لكنّه أفضل بكثير
من المستشفى، أشمّ هنا على الأقلّ عطر الجبل وغبابته، وهواءه الذي يفتح
الرّتين المتصلّبتين.

هل كانت طفلة الأديرة وعاشقة سطوح مدينتها تعلم أنّ زمنًا سيأتي
سيمسح كليًا طفولتها ويضع مكانها سيدة بعمر الخوف، منهكة، تبحث ليل
نهار كيف تخفي آلامها وجراحاتها المفتوحة دومًا؟

كلّ شيءٍ تغير. أتساءل أحيانًا وأنا أحضر غرفتي لاستقبال ضيفي: ثم
ماذا لو لم يحدث هذا كليًا؟

أشعرُ بتيّ غريب يملأني، يسكن قلبي ويصري، ولا أرى آلامي إلّا من
خلاله، مع أنّ أوضاعي تحسّنت كثيرًا في الشهر الأخير. ربّما لا شيء، سوى
نلك الكأبة التي نركض نحوها، وتدفع بنا نحو هوة لا قرار لها إلّا الفراغ.

مع ذلك؛ لم أصدق أنّ ما حدث هو خرابٌ كليّ.

أحياناً تتتابني عدمية ثققتني كلياً، تكبتني، فأحاول مثل الفأر المحصور في مكانٍ ضيقٍ أن أبحث عن مخرج، ولو صغير، أفلص جسمي إلى أقصى حد، فقط لأتمكّن من مغادرة الدائرة التي وضعوني فيها.

أصدق أنّي ما زلت على قيد الحياة، وأنّي ما زلت قادرة على الفرح؟

الثلاثة أسابيع التي قضيتها في مستشفى نيقولا رابيز علمتني أنّ الإنسان قوة خلاقية دوّماً حتى في أصعب الظروف. السؤال الوحيد: هل يملك طاقة على توليف الأشياء وفق مقتضيات الحال؟ العصفورية كانت جنوناً، فأصبحت عقلاً. ورابيز كان أدوية وحقن، فأصبح راحة.

هل نستطيع أن نفعل بالأمكنة ما نريد؟ تلك هي العضلة الكبرى!

لم يتوقف الثلج منذ البارحة. أمدّ يدي، أقطفُ الغيوم والنّدف البيضاء. يأخذني الدّوار اللّذيذ في سحره. أشتهي أن أركض، أركض بلا توقف، فجأة يضيّق نفسي، أركض بلا توقف، وحدي في الجبل كعصفورة الندى. أفتح عيني عن آخرهما لكي لا يفوتني شيءٌ من المشهد السّاحر، أهو حلم هارب أم حقيقة تملّاني؟

- هل أنا أحلم؟

يتكى على حائط البيت ويتأملني كعاشقٍ، رجلاه غارقتان في الثلج.

- قُلْ يا أمين: هل أنا هنا، أم ودعت هذه الدنيا وأصبحت في عالم آخر؟
سبحان الله كم يتغير الإنسان بسرعة!

- أنتِ لا تحلمين، أنتِ هنا، أشعرُ الآن بسعادةٍ كبيرة.

- وأنا كأتني طفلة!

- ما راح أكسر لك فرح، حبيبت بس أذكرك بكبير أطباء لبنان، الدكتور
الجنرال مارتن، بيجي يشوفك اليوم، إذا ما غير رأيه في آخر لحظة بسبب
الثلوج الكثيفة.

- ما نسيته طبعًا، أنتظره، لازم يسمعني ليرفع عني هذا الضيم نهائيًا.

- أكيد، هو هنا لأجل هذا.

انسحب أمين، بينما واصلتُ جنوني الصباحي في بحرٍ من البياض الذي
يجبس الأنفاس.

يا الله ماذا سرقوا مني؟

لقد وقى أمين الريحاني بما وعد به، بيت الفريكا الذي اختاره لي كان
جميلًا. أنتفس هواء الجبل ملء رتتي، أخرجُ لأنغمس في ضبابه العالي في
هذا الفصل تمديدًا، شباط قاسي، لكنّه ساحرٌ، فأشعرُ فجأةً بأنّي ما زلت
بكل الخير الذي يملأني، كنتُ سعيدة، البيت كان صغيرًا وناعمًا.

أصبحتُ أتَنفَسُ الأرضَ والسَّمَاءَ، بلا حواجز.

لم تكن لديّ آيةٌ قدرة، لا على شكر كلِّ الناس الذين تضامنوا معي
ومنحوني لحظة استراحة جميلة، ولا على البيت الذي أجروه لي، فامتلا بهم،
ولا على توقيف الدموع التي انفجرت كسيلٍ بركاني، كانت تحرقني، لا على
وجهي فقط، لكن أيضًا في قلبي. مع ذلك؛ كنت أسعد مخلوقة في الدُّنيا.

ها قد عاد الذين أحبوني، وبعضُ الذين أحببتهم.

المنقصات لا تنتهي طبعًا، وكأنتها أصبحت جزءًا من حياتي.

عندما نقلني أمين الريحاني، والعائلات التي تبنت قضيتي، والتاجر
الطيب السيد مارون غانم، والمحامي الرفيع القدر مِتر فؤاد حيش
صاحب جريدة الكشاف التي أزرتني روحياً ومادياً، إلى أعالي بيروت، في
نزلة بو طالب، كان كلُّ شيء قد انتهى، أو هكذا بدا لي الأمرُ في البداية، إذ
شعرتُني أكثر نساء الدُّنيا حظًّا، لكنّ فصلًا آخر كان ينخري من الدّاخل في
خفايا الجسد المنهك.

الفقر الذي كان يتهدّدي، ولم أكن قادرة على تصديق ذلك، لقد حجروا
على كلِّ ممتلكاتي ومالي.

بسرعةٍ أدركتُ الحقيقةَ المرّة، وكان عليّ التعامل معها بقليل من الصبر
والكثير من الذكاء والثقة في المحامين الذين تبنا قضيتي. لو لم أجد الخير في
أمين وعائلته وبعض العوائل البيروتية الطيبة، كنتُ ميتٌ جوعًا وبردًا. لم

أكن أعرف جيّدًا ما كان يحدث من حولي، وفي محيطي؟ متخفية دومًا بجسدي الهزيل وأنفاسي التي رفضت أن تتوقّف. لكن علي أن أرفع هذا الحجر الذي سلّط عليّ ليحوّلني إلى امرأة متسولة.

معركة أخرى كان عليّ خوضها ولا أعرف إذا كنت قادرة عليها؟
خرجت بلوهارت برفقة إستر يواكيم من المطبخ بابتسامتيهما المشرقتين.
- كلّ شيء جاهز آنسة ميّ، الدواء وفطور الصّباح.

بلوهارت؛ هذا الملاك الأزرق الذي جاء، لا أدري من أين، بجناحين من نور؟ تلقّت إنذارها الثالث من إدارة العصفورية للإخلال بالعمل، إذ كانت وسيطي مع الخارج، فُصلت لمدة شهرٍ من عملها كعقوبة على التّهاون.

- وفروا عليّ، هيك أبقى برفقتك الشهر كلّهُ، ولو آتي أعرف أن إستر مش مقصرة.

ضحكتُ، إذا كانت بلوهارت متهاونة في عملها، فمن هي الجادة والمداومة؟ هذا المرأة منحتني الحياة، لهذا؛ فأنا أدين لها بكلّ شيء. يوم نهبتها بضرورة الانتباه إلى عملها، ضحكتُ ووشوشت في أذني، بعد أن مسحت على وجهي طويلًا، وضمتني إلى صدرها، وشعرتُ بكلّ الدّفء الذي فيها.

- لا عليكِ حبيبة قلبي ميّ، بعد سبعة أشهر، بحضرتك، في عمق الموت المبرمج، في العصفورية، وأكثر من عشرين سنة مع أدبك، لا يمكنني إلا أن أحبّك. كبرت في حضن كتبك وأفكارك. أنا أشكرك أنك منحتني فرصة أن أكون معك طوال هذه المدة القاسية، وأن أحمل الآمك، أن أكون المجذبة عند قدميك. لن اتخلّى عنك، لن أشبه أحدًا. أنا لم أخلّ أبدًا بعملِي، أعمل بحبّ كما يأمرني القانون، وقلبي، والرّب الذي يراني من بعيد. لم أغادر المستشفى إلا في لحظات استراحتي. ماذا لو سألوا الرب عن صدقي فيما أعمل؟ سيرفعني نحو مقامه.

- لكننا نحن في الأرض يا بلوهارت، والأطباء في العصفورية، بعضهم قتلة ولصوص، مثل الصحفيين أيضًا. في أغلب الأوقات يقفون مع الأقوى. لن أقتنع أنّ الذي قادني إلى العصفورية ليس لئلا، وفي أحسن الأحوال متواطئًا. لماذا عاملني كمجنونة، مع أنه كان بإمكانه أن يعاملني كإنسانة مصابة بانهايار عصبي، أو هي في طريقها إليه، لا أكثر؟ لا أطلب منه أن يعاملني كحبيبة أمضت معه أجزاء كثيرة من عمرها في انتظاره، سرق طفولتها ومراهقتها. الحبّ حرّية يا بلوهارت، وليس ضغطًا يُمارس على العاشق أو المعشوق.

- أنا أكثر الناس إدراكًا أنك العاقلة، وأتّم المجانين، باعوا ضمائرهم ووضعوكِ على حافة الموت. عندما كنت تصرخين صرخة سيّدنا المسيح، شعرتُ بقلبي يحترق بقوة. ذهبْتُ حتّى لكنيسة العذراء وصليتُ لكِ

طويلاً، وحملتها جزءاً مما حدث لك، وصرخت في وجهها: وينك يا
عذراء؟ ليش نسيتها يا أمنا الحنون؟ ما سمعت صوتها يا سيّدة البرايا؟
ويوم خرجت من العصفورية، عدتُ لها واعتذرت منها، فقد سمعتني،
حيتها أكثر وأكثر.

- لكنني لا أريدك أن تكوني ضحية وضعي.

- أول ما رأيتك وعرفت أنك مَيّ زيادة، انتميتُ لك نهائياً. لا أفعل
شيئاً يخلّ بواجباتي أبداً، أقوم بها على أحسن وجه ثم أغادر، أغادر لوقتٍ
محدود، حتى لباسي لا أنزعه أحياناً، أضغ معطفي عليه وأخرج. الإنذار
الثالث أتى، وأنا لستُ نادمة. قالوا لي أنّي أشتغل ساعي بريد المجنونة
المصرية. صرخت لست مجنونة أنتم من يريد أن يجننها! لكن عرفت أنّ
جوزيف هو من يحرّك كلّ شيء، حتى من خارج المستشفى.

- تميت أن أسالك عنه كيف؟ من أين له سلطة الأذى هذه كلها؟ لكنني
لا أريد.

- المهم، جئتُ أنا وإستر، فقط لنذكرك بموعد الدكتور الجنرال مارتن.
إستر أيضاً تحبّك جدّاً وربّما أكثر مني.

لأول مرّة تتبه إستر وتخرّج من غفوتها التي فرضناها عليها أنا
ولوهارت بكلامنا الثنائي.

- لقد كانت حارستي الطيبة في مستشفى رابيز، لم أشعر بأية غربة. الخير فيكم أكثر من المثقفين الذي دخلوا بيتي، وأكلوا ملحني، ولم يجهدوا أفضل من شتمي والتأكيد على جنوني. القسوة كانت كبيرة وحارقة.

- أحسن ترتاحي لك شوي قبل وصوله حتى تسترجعي كل طاقتك وقوتك في الحديث والإقناع.

قالت بلوهارت، وهي تضع قطعتين من الخشب في عمق المدفأة، التي زادت شعلتها اتقاداً، ولا يُسمع إلا صوت النار في المدفأة، الذي كان يمنح إحساساً غريباً من الدفء والراحة الداخلية.

مددت رأسي على الوسادة، شيئاً فشيئاً بدأتُ أتخذ وضعا جنينياً، تعودت عليه من جديد، منذ خيبة جوزيف.

لا أدري كم نمتُ؟ لكنني نمتُ طويلاً. عندما فتحتُ عيني، وكان الثلج قد خف قليلاً، رأيتُ الدكتور مارتن، بحقيقته الصغيرة، وهو ينفخ الثلج من على ظهره.

(٦)

ان تموت وأنت تعرف لماذا، لا مشكلة ولا ندم، لكن أن يصنع لك الآخرون النهاية التي يشتهون، وقدراً مليئاً بالضغائن، فتلك قسوة ما بعدها قسوة. أسوأ موت يمكن أن يصيب حياة الإنسان.

لم أغادر فراشي، في نفس الرضعية الجنينية.

فمتُ بسرعة، غسلت وجهي، تعطّرت. لا أدري ما الذي جعلني ألبس اغراضي بسرعة، وأجلس على طرف السرير، في انتظاره؟ مرّرتُ على وجهي بعض الميكاب حتى لا أبدو مثل الميت.

فتحت إستر الباب.

- الدكتور وصل.

- حالا إستر.

كان جالساً في الصّالون. علامة خير مضيئة.

عندما رأي، قام بلطف، قبل يدي وجلس:

- الدكتور مارتن.

- أسعد بك جنرال، سمعتُ عنكم كثيراً وعن نبلكم.



كان لطيفًا ومهذبًا.

الدكتور الجنرال مارتين؛ كبير أطباء لبنان، رجل سامق كسنديانة، قامة فارعة، أو هكذا بدا لي، وجه صافٍ لم تعمل فيه السنوات إلّا قليلاً. كنتُ قد كتبت له رسالة طويلة منذ أن كنتُ في العصفورية، شرحت له فيها وضعي بالتفصيل. نسخة سلمتها للمحامي حتى يتمكن من الاتصال به إن أمكن، والثانية، أرسلتها مع بلوهارت بالبريد المسجّل المضمون.

قال، وهو يجلسني بهدوءٍ في مكاني، عندما قمت لتحيّته:

- خليك جالسة آنسة ماري، في مكانك، أنتِ جدّ متعبة. أعرفُ قليلاً ممّا حدث لك، لكن رسالتك أثرت في تأثيرًا بليغًا، وقد أكّدت لي الكثيرون من الذين سألتهم، عن حالتك الصحيّة الهشة، والظلم الذي تعرّضت له.

- الآن أنا في مرحلة ثانية يا دكتور، لقد انتهى الفصل الأول من مسرحية الموت، وأنتظر الآن أن يُرفع عني الضيم والحجر. لقد حكم الأطباء والمحققون والبرلمان آبي ضحية وضعٍ مُصنّع، وهذا وحده كافٍ لأن يعيد لي بعض حقي. لولا بقية متبقية من الأصدقاء كنتُ انتهيت في العصفورية، ولو خرجتُ أموت من الجوع.

- أعرف. من اليوم لن نسمع لأحد أن يؤذيك، كلّ الذين زاروك يؤكّدون على أنّك مظلومة. هل الطّمع وحده هو ما دفع ابن عمك جوزيف إلى هذا الموقف المشين؟

- جمعنا أيام جميلة، لم يمرَّ أبدًا بخلدي أن يكون بهذا الشكل وهذه الصفة! منحتني كل شيء حتى سلطة الإشراف على تسيير شؤوني المادية، لا استبعد أن يكون مجرد منفذ لجريمة عائلية. كانوا يعرفون ضعفني نحوه، وكنْتُ قد طلبتُ منه أن يأتيني إلى القاهرة لمرافقتي إلى بيروت، كنتُ مريضة وضعيفة وأريد أن أغادر مصر لقليلٍ من الراحة في بيروت التي تحوّلت بسرعة إلى سجنٍ الأكبر. وجدتُ نفسي وحيدة بعد أن مات الذين كنتُ أحبهم، أبي، حائطي الكبير، أمي، قلبي الذي أعيش به، وأخي وحبيبي جبران، لغتي السرية. وجدتني بلا أحدٍ، فأصبتُ بصدمةٍ كبيرة جعلتني أخاف من كل شيء. طلبتُ من جوزيف أن ينقذني، لا أن يقتلني. قتلني حقيقة وباعني بالرخصيص يا دكتور.

- وهل ندم على ما فعله ضدك؟

- لا أعرف. رفضتُ أن أراه سرّيًا دون علم الأهل. رأيتُ في ذلك جُبنًا كبيرًا. قيل لي إنه اعترف بأنه كان ضحية، ولم يكن إلا منفذًا للجريمة صُنعت عائليًا مع بقية أنسابي. طلبت منه، عن طريق أهله، أنه إذا أراد أن يراني، أن يخبر العائلة وأن يعلن الحقيقة في الصحافة، لكنه كان أجبن من أن يفعل ذلك. أحاول أن أنساه.

- فهمت. ما موقف الأهل؟ ألم يظهر منهم من يُدافع عنك؟

- كل الذين دافعوا عني هم من محبي أدبي، وبعض العائلات الشامية واللبانية. حتى أصدقائي من المثقفين، أغلبهم انتمى إلى الجريمة ولم يحاول حتى أن يفهم الحقيقة. ما الذي يجمعني بك يا دكتور غير البحث عن الحق والدفاع عنه ومحاولة الحفاظ على مهنة شريفة كالمطب؟

- كلامٌ صائب تمامًا، لكن البشر تقودهم أحيانًا هزائمهم السرية وأهواؤهم السرية. المهم الآن، كما قلت، كل شيء أصبح وراءك، وهذا هو المهم.

لم يغادره لا غليونه الذي عطر البيت، ولا كأس القهوة الساخنة الثالثة.

كان يستمع بانتباه طفلٍ محبٍ للدرس، وأنا أحكي له القصة كاملة، على نفس واحد، للدرجة أن خفتُ في لحظة من اللحظات، أن أكون قد بالغتُ في التوصيف. كنت أتأمل وجهه وأنا أحكي، كان متأثرًا للغاية. كان الدكتور مارتين قشتي الأخيرة.

في الأخير سلّمته بلوهارت كل الوثائق الخاصة بي، التي كان قد طلب تحضيرها له. تأملها طويلًا، غرق في أرقامها التي أدونها يوميًا، وهذه طبيعتي، تعلّمتها من أبي ومعلمي إلياس زخور.

- Rien à dire. Tout est parfait**

** لا كلام. كل شيء تعلم.

قال وهو يللمم معطفه الخشن، وقبعته، ويحيط عنقه بكوفية خشنة:

- هذا ظلم، وعلى الحقيقة أن تظهر، وساقولُ هذا رسميًا. لقد تبين لي أن الأنسة ميّ زيادة تعيش في منزلها حياة طبيعية عادية، تهتمّ بقضايا البيت مثل أيّ إنسانٍ عادي، كشرائه الأغراض التي تدوّن حسابها بدقة، وأنّ مصاريفها تتناسب مع دخلها الضعيف في الوقت الحالي، وتسجل أسماء كلّ من يقرضونها والقيمة المالية المستحقة التي عليها دفعها.

- شكرًا جنرال، سعيدة بدعمك الكبير.

- دكتور أفضل من جنرال.

قالها وهو يركب السيارة برفقة سائقه.

- تعلّمت من الثقافة الفرنسية أنّ الرتبة العسكرية لها أولوية قبل الرتبة الوظيفية العامة.

- هههه، براقو يا ميّ، لكن بحسب المقام، نحن من الآن أصدقاء. سعدت جدًا بلقائك.

- وأنا أيضًا يا...

- دكتور.

تابعت سيارته مسلكها وهي تُجهد نفسها في الطريق الضيق، حتى
غطتها التلة الصغيرة وأشجار المنحدر، وغابات الصنوبر المثقلة بالثلوج
التي تساقطت الليل كله.

٥- يَا أَبَتَاهُ.. بَيْنَ يَدَيْكَ، أَسْتَوْدِعُ رُوحِي. ٥٣.

(١)

بيروت تنام، وتداري شجنها وحروبها السرية.
سكون الليل يغري بالمزيد من الصمت؛ لا شيء في الأفق.
تبدو الأضواء المشتعلة هنا وهناك مثل شلالاتٍ من الفرح.
الأشياء الصلبة والمثبتة كالحجر الأصم، تتحرك الآن بسرعة غير
محسوبة.

عدد المكشوف الذي خُصص لقضيتي كان شديد الأهمية، وعاري
اللهجة، سمى كل شيء باسمه. لأول مرة أرى صحافة صريحة بهذا الشكل
في بلادي، منحني هذا العدد فرصة أن أشعر أنني لم أكن وحدي، في عمق
غابة شديدة الخطورة على كل من لا يعرفها، ووجد نفسه فجأة فيها
بمحض الصدفة. في اللحظة التي تشعر فيها بأن عدوك يريد إغراقك،
تنبئت لك أجنحة المقاومة التي لا يمكن صدّها. صورة العدد الخاص كانت
بريشة صديقي الفنان والنحات، يوسف الحويك، الذي ساعدني من حيث
لا يدري على التخلص من ابن عمّ باهتٍ كالفراغ؛ خطيبي نعم. تحت
الصورة، كُتبت تحت صورة الغلاف: نابغة العرب. لا اعتقد أنني أستأهل
كل تلك الصفات الثقيلة، لكنني قبلتُ بها لأنها ضربة قاصمة للذين روجوا
لجنوني. التأم في العدد كل أصدقائي، والكثير ممن لم أكن أعرفهم، ودافعوا
عني وأنا ما أزال في حفرة المذلة؛ العصفورية.

رايتُ في صفحات الجريدة، نسخةً من رسالة صاحب السمو الملكي
الأمير عبد الله بن الحسين المعظم، أمير الشرق العربي، إلى رئيس الجمهورية
إيميل إده، يطالبه فيها بالتدخل لمساعدتي، نشرتها المكشوف كاملة في
صفحاتها.

ما كنتُ لأتدخل بأمر أحد رهايا لبنان لولا الرجاءات العديدة من كرام
العوائل ورجال العلم والأدب من لبنان، لأكون الملتصق عنهم لدى
فخامتكم لتساعدوا الأنسة الشهيرة مي لخلصها من المأزق الذي قيل إن
البعض من أقاربها وضعوها فيه. وللأمل في أنكم تحلون كتابنا هذا على
قبول.

محرر مع مزلة من الشوق والاحترام لفخامتكم.

أخبرتني عائلة الجزائري عن اتصالها بصاحب السمو الملكي، من خلال
الأمير سعيد الجزائري، لكنني لم أكن أتصور أن قضيتي أصبحت أكبر مما
كنت أتخيل. لم أعد وحيدة كما كنتُ في هذا العالم السفلي.

في مدّة قصيرة تغيّر كل شيء، لا أدري هل كان عليّ أن أفرح أم أحزن؟
لقد أصبحت تحت الأنظار، مع أنني لم أطلب الشيء الكثير. الحدث كبير،
ومع ذلك ظللتُ هادئة كدمية صينية. حتى فرحي باسترداد حريتي لم أفرح
به كما يليق بحدث أعالي وجودي وبعض كرامتي.

لم تكن حربي كبيرة ولكنها كانت صادقة وصحيحة. ليس سهلاً أن تتحول إلى سؤالٍ معقد بين ملكٍ ورئيس، وأن قضيتك تُناقش على مستوى عالٍ جداً، فقد كان ردّ رئيس الجمهورية إيميل إده جميلاً ومرجحاً ليّ نفسياً، ليس لأنه وقف بجانبني، فهو لم يفعل هذا، ولكنه انتصر للقانون، وهذا كلّ ما كنتُ أريده.

حضرة صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن الحسين المعظم، أمير الشرق العربي. تناولت كتاب سموكم الذي كان له أفضل الأثر في نفسي لما تضمنته من الشعور السامي، والعطف على سيّدة لبنانية من كبيرات سيدات العلم والأدب، وأحلت هذه الرعاية المحل الذي تستحقه. ولما كنتُ أتمنى كلّ التمتّع بتزاهة القضاء اللبناني وتلقيه في إحقاق الحق، فلا شكّ في أنه سيتخذ يوم الاثنين ٣ أيار القادم القرار الذي يريده العدل ويحمله عمله في هذه القضية، راجياً أن تتفضلوا بقبول أصلق حوافظ الولاء والاحترام.

رئيس الجمهورية اللبنانية إميل إده.

لم أكن سعيدة كما ارتضيت، ليس سهلاً أن يصمت الناس عن الملك وكأنك روح هائمة في الفراغ بلا جسد يتعذب ويتهاوى كلّ يوم قليلاً

كشجرة ميتة لا تشدّها إلا جذور التصقت بها حتى آخر ثانية من أنفاسها المتقطعة. ولم أكن حزينة لأنّ ما حدث لي لم يكن سهلاً.

ما الذي تغيّر بهذه السّعة المجنونة؟

بيروت؟ بجنونها المعتاد وصمتها المخال.

أنا؟ مي؛ التي لا تعرف أيّ قدرٍ آخر ينتظرها في منتصف الطريق! هل تستمرّ عقاربُ السّاعة في اتّجاهها المعتاد، أم سيأتي من يغيّر كلّ شيء؟ فكّرت في لحظةٍ من اللّحظات وأنا أتأمل النّجمة الهاربة ساحبة وراءها سحباً من الأنوار والأضواء التي تبعثرت في عرض السّماء: ثم ماذا لو صعدتُ على الروشة ورفعت صوتي عاليًا، كمن يعيش في دغلٍ خالٍ من كلّ حياة، وصرختُ ملء قلبي وأحاسيسي، وجنوني أيضًا: يا فوية القبح والفضيحة، ما زلتُ هنا!!!!!!!!!!!!!!، لن أموت كما تشتهرون. لكنّ شيئًا يكبلني، ربّما تربية الأديرة الخانقة، أو ريتما، بسبب خوفٍ مبطن، لم أستطع التخلّص منه، من أن يعيدوني إلى أقواس العصفورية لأنّي صرخت كمجنونة.

(٢)

انتابتي موجةً حزينٍ موجعة، على الرّغم من الخبر السّعيد الذي جاءني به صباحًا أمين الرّيحاني بجاهزية بيت الفريكا لأنّقل إلى هناك، المكان أجمل والمحيط أريح. كان الرّيحاني يشعر بعقدة التّخلي عني، وكنتُ أفهمه جيّدًا، لقد قام بالمستحيل ليسعدني، ولا اعتقد أنّ هناك شخصًا فعل ما فعله هو معي. كان قلبي معطوبًا تجاهه لكنّه كلّ يومٍ كان يستعيده قليلًا، إلى أن حَضُر بيت الفريكا، لأكون قريبة منه ومن عائلته الطّيبة، التي كنت أعرف أنّها لن تَدخِر أيّ جهدٍ من أجل راحتي.

بفضله؛ تغيّرت أشياء كثيرة. منذ زيارته الثّانية لي، وكتابه عني، بدأت الأوساط الأدبية تتبه لتفاصيل جريمة موصوفة. أسند بذلك النّبا الخطير الذي نشرته المكشوف، الذي مفاده: أنّ ميّ المتّهمة بالجنون، تتمتع بالصّحة التامة، وما الجنون المنسوب إليها سوى زعمٍ باطلٍ ومؤامرة خبيثة.

فقد تقدّم المحامون، وكلائي، بعريضة توضيحية، إلى وزارة الدّاخلية بلبنان، يقولون فيها: إنّ ميّ زيادة صحيحة العقل، وإنّ نسبة الجنون إليها، عملٌ يخفي وراءه أشياء وأشياء. وطلب المحامي تاليف لجنة طبيّة لفحص الكاتبة الأدبية لتأكيد سلامة

عقلها، ومنحها الحرية التامة التي يتمتع بها الجميع. ثم هناك تاجر لبناني شهيم، مارون غانم، اعتبر منذ البداية كل الحكاية، فعلاً مُفبركاً، وظلّ يحاميه يزورني من حين لآخر لوضع حدّ للمهزلة؛ كما كان يقول. أبقى على نفسه ألا يعود إلى عمله؛ إلا بعد إنقاضي.

كم كان أهلي صغاراً في هذا! كيف سلّموني لجاكيت الجنون بشكلٍ رخيص؟ بدل أن يستحووا على فعلهم، زادوا في مغالاتهم. نزلوا درجاً آخر نحو الحضيض. عندما رأى أنسابي أنّ الحَجْر على حرثي لا يستقيم لهم، قانونياً، تقدّموا ضدّي بدعوى الحَجْر، أمام محكمة بداءة بيروت، التي كان يرأسها يومها بشارة طباع. وكان شاباً، في مقتبل العمر، معروفاً بضيق صدره، واعتداده برأيه وتبحّره في القانون. عصبيته في إدارة كلّ المحاكمات وتسرعها، وانفراده في الكثير من القرارات، أعطى انطباعاً عامّاً سيئاً عنه. يحيط به قاضيان مساعدان، يشبهانه في كلّ شيء، الأستاذ إحسان بيضون، مدير الاقتصاد الوطني السابق، والشيخ أكرم العازار. لا يرفعان أصبعاً واحداً لمخالفته. هذا ما أخبرني به وكيلاي حبيب أبو شهلا وبهيج تقني الدين.

هذا الوضع الغريب، لا يسهل أمري أمام النيابة العامة، التي فكرت، تحت ضغط الدولة، بتعيين أطباء، كشفوا لاحقاً على حالتي، ليتتهوا إلى قرار بلا طعم: لا يجوز بأيّ شيء. لم يقطع بصحة عقلي، ولا بجنوني!

كان قلبي موجودًا، لكنّه كان عليّ أن أقاوم حتّى النهاية، وأن لا أسلم في أمري كيفما كان الحال.

- لا أدري الآن ماذا يريدون؟ لا أريدهم أن يتعاملوا معي كأديبة، لكن على الأقلّ كإنسان.

- كلّ شيء مرتبط مع بعض ولا يمكن الفصل أبدًا.

قال الأستاذ فؤاد حبيش، مدير المكشوف، وهو يحكّ في رأسه، كأنّ فكرته التي جاء بها ضاعت منه، فهو من ساندني بقوة عندما قرر الأطباء بأنّي لا عاقلة ولا مجنونة، وكان ينتظر بصبر كبير، تحريري نهائيًا من هذا الضّغط النفسي.

- اصطدنا بالقاضي بشارة طباع العديد من المرّات، بسبب عصبيته التي لم يُخفها أبدًا. وبدأت أفكر مع زميلي بهيج تقي الدين، بتغيير الإستراتيجية للتقليل من سيطرة المحكمة.

أضاف حبيب أبو شهلا:

- شعرنا بسرعة بأنّ جو الدعوة كان ملبّدًا بالغيوم التي تحجب الحقيقة عن بصر القضاء، إذ كانت أقرب إلى تقارير القضاء الغامضة في شكوكها، والقريبة من تصريحات الأنسباء الذين فعلوا المستحيل لتدمير ميّ. حتّى اللحظة لم يتوقفوا عن زرع الشكوك عند اللبنانيين والفرنسيين. لهذا، ارتأينا، بعد سلسلة مشاورات عديدة، مع ميّ وأصدقائها المقربين،

والأستاذ فؤاد حبيش الذي جعل من المكشوف وسيلته ووسيلتنا لمحاربة الظلم، أنه لا سبيل في النهاية إلا السير في طريق أفضل وأذكى، يتناسب مع وضعية ميّ الصحية حتى لا نرهقها. وتفادينا طلب الادعاء بإحضار ميّ واستجوابها علنًا، في دار القضاء. اعترضنا، وكانت وجهة نظرنا أخرى، ربّما أفضل. وأرجئت الدعوى إلى مطالعة النيابة العامة.

- يمكنكني أن أحضر شخصيًا، وأدافع عن عقلي. وسأدينهم واحدًا واحدًا، أولاً على تواطئهم.

- القضاء عدواني، ويمكن أن يتعبوك أكثر.

في لحظة من اللحظات رأيتني أقف على منبر وأخطب أمام الناس، عن تجربة الظلم التي تعرّضت لها.

- لدينا إستراتيجية أخرى، أعتقد أنها أفضل، وهي تتجارب بشكل واضح مع قناعاتك، وتدخل سياق اهتماماتك الدائمة، ولا تكلفك شيئًا ولا تتعبك ولا تجعلك طعمًا سائغًا للقتلة المتربّصين.

- تفضّل، أسمع المقترح.

فلئها وأنا أتمنى أن لا يدفعني إلى عقد صلح مع قاتلي، هذا المقترح كان قد مرّ عليّ من قبل ولم أقبل به، الصلح معهم قبولٌ ضمنى بجرائمهم، وهذا يعذبني. أتمنى لكل واحد منهم أن يعيش يومًا واحدًا في العصفورية، محرومًا من كلّ شيء، حتى من حقّه في التنفّس.

اعتدلّ عامي الأول في الأيام الصعبة، الأستاذ فؤاد حبيش، ونظر
طويلاً إلى وجهي. كان على اطلاع بكلّ شيء، ويتابع هذه المظلمة عن
قرب. لقد سخر نفسه، هو وأقاربه، للدفاع عن الحقّ.

- شوفي يا ميّ، أن تذهبي إلى القضاء، هذا أمرٌ متعب لك، ولا أعتقد أنّ
صحتك تتحمّل ذلك. لقد أتعبوك كثيراً، على الرّغم من تحسّنك والحمد
لله. عندما تريد أن تدافع عن شيءٍ عليك أن ترى أولاً من هو القاضي، ومن
يسنده، ولا أخفيك أنّ البشر الذين أمامنا، من القاضي الشابّ بشارة
الطّباع، والقاضيان المساعدان معه الشّيخ أكرم العازار والأستاذ إحسان
بيضون، ليسوا في صالح قضيتنا، فهم لا يعرفون أيّ شيءٍ عنك. فكّرنا مع
جمعية العروة الوثقى، التي تحترمك وتقدر جهودك، وتساند قضيتك، بالقاء
محاضرة من معدن جهودك وخطبك العظيمة، خطب الحقّ، وتُدعى لها هيئة
المحكمة، الطّباع ورفيقاه، ومثل النيابة، وجمع غفير من كبار مثقفي
ومسؤولي هذا البلد. وتلقى في ويست هول، في الجامعة الأمريكية، وهي
مكان رفيع المستوى، وتعرفينه جيّداً.

- لا أدري إذا كنت سأستطيع! أشعر كأنّ هناك مسرحية غبية، وعلى أن
أمثل دور المثقفة فيها.

- لا، سيكون جهدك العلمي وعقلك هو دليلك، وستكون محاضرة
موجّهة للنّاس في موضوع تختارينه أنتِ بالاتفاق مع العروة الوثقى، ولا
أحد غيركما. الهدف هو أن يرى النّاس قدرتك على التضكير، وهدوءك

وامكاناتك في التحليل. نعم في القضاء شيء من المسرح لأنها قضيتك. نودتي أدواراً نحس أنها مؤثرة في الآخرين.

- ذهني يا أستاذ فؤاد مفرغ من كل شيء، فهل سأستطيع؟

- تستطيعين طبعاً، مجالك وقضيتك في النهاية، هذه الفكرة ستضعك من جديد في مدار الثقافة.

أول مرة أخاف من مواجهة الناس. لكنني في أعماقي لم يكن لدي ما أخسره. فكرة المحاضرة وفي قاعة الويست هول الضخمة ستضعني في مواجهة الناس، خميرة المجتمع، ونفسي. لآتي إذا خرجت من امتحاني ناجحة سيتغير الأمر.

التفتُ نحو الجميع.

- الأمر ليس بسيطاً في قاعة ضخمة ومربكة، أعرف القاعة جيداً، حضرت فيها العديد من المرات منها المحاضرة الموجهة للطلبة في منتدى ويست هول التي كانت تحمل عنوان: هو ذا الرجل. بعد ظهر الثلاثاء ٣١ تشرين الأول أكتوبر من سنة ١٩٢٢. بل أحفظ حتى فقرتها الثانية: هو شاذ فقير اليد، ينظر له بالريبة والتحذر، لأنه غريب في قومه وعشيرته. هو شاذ مجنون، لا يشبه الآخرين. ما ذكر إلآ. ارتسمت على الشفاه ابتسامة التأفف والاستخفاف، فرجه السافلون بأقدر سفالتهم، ولوث اسمه الخاملون بأوحال خمولهم. الأشياء المهمة في حياة الإنسان لا تُنسى. يا الله كم يمضي

الزمن بسرعة! كنت سعيدة بشبابنا وبنهضة رأيتها ترتسم في الأفق، قبل أن يأتي من يُطفئ كل شيء في قلبي. القاعة لا تخيفني.

- لهذا اختارتها العروة الوثقى، المكانُ جزءٌ من الانتصار على الخوف. ولكن سبحان الله كأنك تحكين عن اللحظة الحالية. بعد خمس وثلاثين سنة، الذين توصفينهم، هم من أوجعوك اليوم.

- يا أستاذ فؤاد، كل ما ينبع من القلب، يستمر في الزمن والمكان. أنا أخاف أن يُفسدوا علينا المحاضرة؟!

- فشر، ما يحق لهم، راح نقلبها على رؤوسهم.

أجاب الأستاذ حيش بعنف لدرجة أن احمرّ وجهه.

- عندما يأتيك الناس مجتدين لكسرك، لن يكون الأمر بسيطاً ولا سهلاً، لن يعدم الذين باعوا ضمائرهم من أهلي، ومن اتباعهم، في إيجاد من يأتي وينفصّ علينا.

- على كل نتجتد لذلك، لكني صدقاً، لا أتحيلهم يفعلون ذلك، ليس محبة واحتراماً، ولكن خوفاً من تشويه صورتهم أكثر. من الصّعب عليهم الإقدام على ذلك في الجامعة الأمريكية. ثم إن المدعويين ليسوا عاديين، سيكونون من أهم نخب المجتمع اللبناني.

- على كلِّ الفكرة تبدو لي جيّدة، على الأقلِّ الواحد يقول اللي في قلبه، في عالمٍ يبعثُ بالأدخنة، والظلم، والخوف، والموت. سأفكر في الموضوع، امنحوني يومًا أو يومين أكون قد استقررت على الفكرة جيّدًا وأتواصل معكم. أكون على الأقلِّ اختبرت مواهب التمثيلية على منصّة الويست هول.

ضحك جميع الحاضرين، ربّما كنّا في حاجةٍ ماسّةٍ إلى ذلك بعد ضغوطات الأسابيع الماضية.

رأيت ارتسام علامات الرضا على وجوه كلِّ من كان عندي بالبيت، فقد رأوا في ذلك موافقة مبدئية، كنتُ بحاجةٍ لأن أشعر بذلك، وأتي عمية من أوفى الأصدقاء، الذين تعرّضوا للتهديدات بسببي، وناصروني حتى النهاية.

عليّ أن أثبت أنّي أهلٌّ لذلك، وأنّ حمايتهم لي بكلِّ هذا العنفوان، منحشتي الأمان الذي كان ينقصني.

رأيتهم يشربون أخيرًا قهوتهم التي برّدت بين أيديهم.



(٣)

قمتُ باكراً في ذلك اليوم، الربيعي الجميل. مشيتُ قليلاً.

تنفستُ طويلاً حتى امتلأت رتائي بالهواء الجلي الناعم. الفريكا ضيقة ساحرة، لأتفا قريبة من السماء.

لكن عليّ أن لا أنسى أبداً أنه مكتوب عليّ أن أحمل صليبي على ظهري وأمشي إلى أن تحفّ الألام نائياً.

أمضيت الأسبوع كله أهيئ نفسي لهذه اللحظة التي إما أن تعيدني إلى بيتي في القاهرة، أو ترميني نائياً في العصفورية من جديد. على الرغم من إرادتي، لم أعد قادرة على تحمّل نكسة جديدة. تقرير الأطباء الذين وضعوني في الخانة الوسطى، بين العقل والجنون، لم يسهلوا من مهمتي أبداً، بل عقّدوها، لولا الأصدقاء الذين اعتبروا ذلك مرحلة متقدمة لاسترجاع حقي في العقل، بالخصوص عندما عقدوا المقارنة بين العصفورية والحكم الصادر عليّ، الذي بدا لهم خطوة إيجابية. ربّما ثقّتي الزائدة في نفسي هي السبب.

المحاضرة كانت جاهزة، وقد استجيتُ بسرعة لما طلبته منّي العروة الوثقى، للحديث عن رسالة الأديب في الحياة العربية. وافقتُ بسهولة لأنّي

كنت مقتنعة أنه من الأفضل لي أن لا أتحدث عن أي شيء يخصني وليس عن محنتي، حتى لا يُنظر لها على أساس أنها مجرد تبرير لوضع خاص وعام.
عن هذا المثقف الحدائي الغريب الأطوار، الذي دخل في حسابات البقالين ونسي دوره العظيم.

كان عليّ أن لا أخطئ في أي تفصيل وأن أجمع كل طاقتي الإيجابية لتخطي هذا الألم وهذا الترف، وأنزع كل المسامير التي صلّبت جسدي على خشبة الموت. على كل الحاضرين أن يدركوا أنني لستُ مجنونة بل وعاقلة، وتفكر في ماك أمتها.

كان اليوم الذي ينتظرنى لا يشبه بقية الأيام التي مضت بالأمها وحرانها.

لبستُ معطفي الرمادي، لم أغير شيئاً في هندامي، بقيتُ تقريباً كما أنا.

لم أفض الليلة في صبح شعري الذي ابيضّ بسرعة. بياض شعري كان وحده شتيمة لمن كان السبب في هذا الموت البطيء الذي سلط عليّ، إذا كان ما يزال يملك نتفة ضمير.

أخذت موقفاً شبيهاً بما نصحني به كل من كان قريباً مني، حتى بلوهارت، أن لا أتحدث عن الكراهية، والضعف، أو ما ألتني طوال فترة المصفورية وما تلاها، ولكن عن الحب الذي نبت فيه كالشجرة في برّ مصر، وفي ماء الشام وسباحة كنائس ومساجد مدينة سيدنا المسيح

الناصرة، وهو يجز وراه، جرحه القاسي ودمعه الذي ارتسم كالخيط رابطاً بين كل مدن الوجد والالام في العالم. أعب شوارعها وأقسم أن أبانا الذي في السماوات، كان يتحدث معي بقوة عن صمته وآلامه التي لا تنتهي، ويأمرني بعينه المتعبين أن أقتفي كل خطواته وأسير في إثر دمه، في درب الآلام. حدثني الليلة الماضية وطلب مني أن أفجر الحب الذي في، وأن لا أترك مساحة، ولو صغيرة، للضعفة. وهو يدلني على المسلك، مشيت وراه. رأيت يسلم على حائط الجامع الأبيض، ثم يمضي نحو كنيسة البشارة، محاولاً أن ينسى كل الذين أدموه، أن يمسخهم من نظره ويجعل من البياض رؤاه الأخيرة.

أشعر وأنا أتيت للخروج من بيتي، في أعالي الفريكا، كآتي كنت في عالم آخر، كآتي قادمة من عالم الأموات نحو حياة كانت تبدو لي جميلة، على الرغم من غموضها الكبير.

لم أكن خائفة من المحاضرة التي هيأت لها نفسي جيداً، وساعدني أصدقاء من العروة الوثقى. كل كلمة كان لها مكانها المناسب، وسلمتها لأمين الريحاني، والميتر فؤاد حبيش، لكي يقرأها، فقط لأطمئن أكثر. كانا سعيدين بما فعلته. لم أكن خائفة من عقلي، فهو لا يخذعني حتى في حالات كآبتي المزمته، كنت مذعورة من لساني الذي يحدث أن ينعقد، ولا ينطق بكلمة، في درجات الألم القصوى.

طلب مني طبيبي النفساني، الذي يفحصني مرّة في الأسبوع، أن أشرب ماء كثيرًا، وأن لا أعطي أية قيمة للآخرين، وكأنتهم غير موجودين، أو أتعامل معهم كطلبة، كما عادتني في الوريست هول، في الجامعة الأمريكية. اعرف أن الكثير من الناس سيأتون حبًا، والكثيرين سيأتون فضولًا، وسيأتي بعضهم لتدميري نهائيًا وبهدلتي أمام الآخرين.

أخاف من الأشياء التي لا أستعد لها.

ارتحمتُ عندما وصلتني دعوة اللقاء، وتأكدتُ من أن الأمر وصل إلى نقطة اللا رجوع.

تدهوكم الجامعة الأمريكية والعروة الوثقى إلى الاستماع إلى محاضرة تحت عنوان: رسالة الكاتب في الوطن العربي. تلقبها الأنسة متي زياد، في نادي "العروة الوثقى" في "وست هول" من على منبر الجامعة الأمريكية. وذلك يوم ٢٢ مارس آذار ١٩٣٨ على الساعة الثامنة مساءً.

كلُّ من سبقوا الدّعوة سيتساءل: هل ستقوى متي على إلقاء محاضرة؟ هل هي من سيكتب كلمتها، أم سيعاونها آخرون أكثر تعقلًا؟ هي إذن تقرأ وتكتب، فكيف قال عنها بعض الأطباء في

تقاريرهم إنَّها لا تكتب ولا تقرأ؟ قيل إنَّها فقدت صوتها من شدَّة صراخها في العصفورية، فكيف ستقرأ نص محاضرتها؟ هي إذن شبيهة بطائر الفينيق الذي يقوم من رماده.

كلُّ هذا افترضته في الآخرين من ثقل ما سمعوه عني.

في النهاية، لا خيار أمامي إلاَّ النجاح، في مهمَّة انتحارية، لإثبات عقلي أمام عالم من المجانين. جماعة العروى الوثقى لم يدخروا أيَّ جهد لإنجاح هذه اللَّحظة الفاصلة بين العقل والجنون. أبلغوني أنَّ اللَّقاء ليس عانا، ولكن بدعوات بأسماء أصحابها، وهم يفترضون أنَّ جزءًا كبيرًا سيأتون بالسَّماع، من فمٍ لفسم. ربَّما حتَّى من باب الفضول. لكن هذا سيتم حلَّه بحسب الكراسي المتوفرة. وستعطى الأولوية لرجال القضاء والصحافة.

لم أنتظر كثيرًا حتَّى جاء أمين الريحاني وزوجته الطَّيبة وابنته، ورافقوني إلى الجامعة الأمريكية.

كانت السَّيارة وهي تنحدر من أعالي الجبل، كأنَّها كانت تفرق في بحر أخضر، وأشعة منعكسة على الأعشاب في ألوان مستحيلٍ تخيلها، كأنَّها ألوان الجنَّة.

لم نتحدَّث كثيرًا. نَبَّهني فقط إلى عدم الرَّدِّ على الاستفزازات. الباقي قضيناه نتحدَّث عن دهشة الطَّبيعة وجمالها، قبل أن نصمت جميعًا ونُصت إلى دواخلنا ودهشة المشهد الذي كان يكبر أمامنا.

(٤)

الناس الذين رأيتهم في الخارج ونحن ندخل إلى مدرج الويست هول،
كانوا بلا عدّ ولا حصر.

حظك الكبير يا مي.

فضل العروة الوثقى والمكشوف كان كبيرًا. بفضل الجامعة الأمريكية،
تمّ هذا كله.

عندما دخلت إلى القاعة الكبيرة، وقفتُ لِلْمَحْظَات. كانت ممتلئة وجزء
من الجمهور كان واقفًا. لم أتفرّس في الوجوه، لكن تداخل الوجوه
والأجسام بدلي كأنها ظلال، لا شكّل محدّ لها، إذ تحوّلت إلى كتلة سوداء
واحدة.

سمعت رنين التصفيق الذي علا في عمق القاعة. تذكّرت لها تاريخًا
مضى، عندما وجدتني وجهًا لوجه مع الذين حضروا لتكريم الشاعر الكبير
خليل مطران وكان عليّ قراءة رسالة جبران التي بعثها بالمناسبة.

فجأة تحوّل التصفيق إلى شكّلٍ يشبه مقطوعة مسيرة رادانسكي
لشترامس الأب، التي ألّفها على شرف المارشال النمساوي جوزيف
رادانسكي، في سنة ١٨٤٨. استقرّ التصفيق الكبير في عمق رأسي.

أغمضت عيني عندما زادت حدته، وارتفع عاليًا ولم يتوقف إلا بعد زمنٍ
طال كثيرًا.

أغمضتُ عيني، تقدّمت نحو منصّة الخطابة، كنت خائفة من شيءٍ
واحد، أن يجمد لساني.

وقفتُ للحظات حتى توقف التصفيق نهائيًا وبدا كأنّ الصمت
سيُسكت هذه اللحظة نهائيًا.

كنتُ أعرف أنّ كلّ أصدقائي كانوا يشدّون على قلوبهم خوفًا من أيّ
طارئ.

انتميت للحظة بكليّ. حقيقة لم يكن لديّ ما أخسره، لحظات فرح
صغير، كانت كافية لتعطيني الإحساس بأنّي في مكانٍ آمن. تنفّست بعمق،
استرجعت الأفراح الصغيرة التي سُرقت منّي.

وضعت أوراقِي على منصّة الخطابة. فتحتُ عينيّ شيئًا فشيئًا، فجأة
انمحى كلّ شيءٍ من أمامي، ولم تبقِ إلّا الأوراقُ والإنارة المسلطة عليها،
وأنا بكلّ راحتِي الداخليّة.

كنتُ في مكانٍ آخر، في دوارٍ جميل.

رَبّبتُ نظارتي. اخترقتني ابتسامته، رأيتُ جبران وهو يلح عليّ بالحفاظ
على عينيّ.

أغمضتُها ثانية ثم فتحتها من جديد، وبدأت في قراءة ما كتبه. كنتُ متأكدة من أن الكثير من الصحفيين سيصابون بخيبة أمل، لأنني لم أتحدث عن مأساتي، وهم أتوا يقودهم فضولهم فقط، وليس الحقيقة.

كنت منبهرة بالويست هول، وبجمالها، وبأناقته في ذلك اليوم. بالخصوص بناسه الذين قطعوا المسافات الطويلة، فقط ليشاركوا معنا في الأسية.

لا أدري كيف سبقتني الكلمات الأولى:

(سلامًا يا ويست هول، يا موطن الفكر والحياة المنظمة في كرامة وحرية، كم من مرّة جلستُ بالخيال، بين جدوانك، أتبادل والجمع الحاشد قوة الحيوية، وأخذ قسطنطيني مما يعجب من فضائلك، من فائدة علمية واجتماعية. كم من مرة عدت بالذكري إليك، أصغني بخشوع إلى رسالات الفضل والعلم والتهديب، يتلوها هنا العلماء والمفكرون والمصلحون. سلامًا آيتها العروة الوثقى، الساهرة على وظيفتك في تنوير الأفهام، المحريصة على غايتك في إحكام الرابطة العلمية والأدبية بين أقطار الشرق العربي. كم من صحيفَةٍ أرسلها أقطابك وأتباعك وأنصارك من على هذا النبر المضيايف، فمضت كالطير تسبح في القريب البعيد من الأجواء. ولكن أنا شكرت لك تشريني بدعوتك واقتراح الموضوع، فأني كذلك شاكرة لأنك أفسحت لي مكانًا كريمًا بين كرام ضيوفك، عاملة بيدك القوية الوفية لي إحكام الرابطة بيني، وبين بني قومي. وأشكر لكم، أيها السادة

والسيدات تفضلنكم بالحضور. إنَّ اسم العروة الوثقى يُلبهم الفرد، إنّه ينقلب أمة عندما يخاطب الأمة. ما أجمله موعداً...).

كنتُ قد بدأتُ أطير خارج المكان، في عمق دواري الخاص، ولم ينغص عليّ أحدٌ، فقد ظلّ الحضور مشدوهين فيما كنت أقوله، وكان يقيني بالانتصار على الأوغاد، يولد ويكبر في كلِّ ثانية، مثل الخلايا الحية.

عندما استعدتُ ثقتي في نفسي، فتحتُ عيني قليلاً.

كانت القاعة ممتلئة بالحاضرين، لم أصدّق ما كنت أراه، رأيتُ وجوهاً أعرفها، مجموعة المحامين، ومدراء الجرائد ممّن نسوني ثمّ تذكروني، الأطباء، الكثير من الوزراء والمسؤولين، كبار العائلات، الشامية واللبنانية. رأيتُ حبيبة قلبي بلوهارت التي كانت تتخفى في زاوية صغيرة برفقة إستر يواكيم. في الصفوف الأولى رأيتُ أيضاً النائب العام، راجي الرّاعي، والدكتور مارتن بغليونيه، رأيت الميتر فؤاد حبيش الذي كان على رأس الحاضرين السعيدين، والمصفقين مثل طفلٍ لم يكن يصدّق أنّ الشخص الذي أمامه انتصر على من هم أقوى منه. واوووووا رأيتُ أيضاً حبيبتي إيزميرالدا التي بعثت لي قبلة من عمق الصّالة وأنا أتحدّث، هي وأمير الحدائق، كازيمودو. على الرّغم من شعرها المقصوص، فقد عرفتها، كانت علامات الفرحة تملأ وجهها العطفولي.

قلبي يتفضّ هنا وهناك كلّما رأيت وجهها أعرفه.

انرا وأسبح عميقًا في الملامح والوجوه.

فجأة اهتز شيء عميق في.

أخذت المنديل وفتحت عيني من جديد. لا ليس هو. تمتت. لا يُعقل؟

هو! ماذا يفعل هنا؟ لماذا قال إنه لن يأتي. يا إلهي ما الذي جاء به إلى هنا؟

ربما جاء ليسمعي للمرة الأخيرة؟ أو ربّما ليقتلني ويسجّل في مكتب

الشرطة جريمة شرف لآتي بهدلت العائلة؟ وله أن يفعل ذلك، وسيكون

القانون رحيماً معه؟ شو اللي خسره المجتمع؟ لا شيء، سوى امرأة تخمها

مش راكب على بعضه؟

في أقل من سنةٍ تغير كثيرًا، هو أيضًا، وجهه نحف. كان برفقة صديقين

له. لا أدري من دعاه، ومن سلّمه الدعوة؟ كيف وصل إلى هذا المكان وهو

المنشغل يوميًا بأعماله الخاصة؟

على العكس مما تصوّرت في غفوتي وعزلتي، بدا لي ذابلًا كنبؤ موحشة،

في مكانٍ جاف، حتّى كاد أن يضمُر على كرسيه.

لأول مرّة أنساه دفعة واحدة.

كدت أصرخ: من هذا الرّجل الذي يعطيني الانطباع كآتي أعرفه؟ أين

رأيت يا تُرى؟ متى التقيتُ به، وفي أية مدينة؟ أين؟ لا بدّ أنّ صادفته في

مكان ما.

كانَ ذاكرتي حدث فيها فجأةً ثقبٌ عميق، فسالت كلَّها في الفراغ
كالحتم.

واصلتُ حديثي وأنا مرتاحة داخليًا، على الرّغم من أسئلة الحيرة التي
كانت تتابني من حينٍ لآخر. رسالة الأديب مؤمنة بها. لا أرى شخصًا
خارج هذه النيران التي تحيط بنا.

رسالة الأديب تعلمنا كيف نخلق حضارة أديبة، إذ بها لا
بغيرها، تكفاس مواهبنا، وتُسبر ضور طبيعتنا، وهي التي تثبت
وجودنا وتنطق بلساننا مترجمة عن مبلغ الإنسانية فينا. رسالة
الأديب العربي تعلمنا حبَّ العزلة والسكوت وتُرجعنا عن
الفخخة وهوس الظهور، فنعتكف على أنفسنا نعالج
مكنوناتنا بالظفر بجمود التسامح، فالتسبلة المتمايلة على
صفحة المروج، حاملة بشائر الحياة، لا تولد حبتها ولا تنضج
إلا في أحشاء الأرض، في جو الوحدة والهلوو والكتمان.

رأيتُه، لكنّي لم أرتكز بصري عليه جيّدًا، ربّما لأنّي لم أكن أريد فعل ذلك.
كان جوزيف، غير الذي أعرفه وتعودت على وجهه، وهو يحاول أن يرفع
رأسه لكي يراني، يزداد ضمورًا واضمحلالًا. كان يبس في قلبي، ويتحوّل

للحطبة محروقة أمامي. لا أدري ما إذا كان علي أن أعفو عن قُبحة القاتل،
أم أعطف على حالة بؤسه؟

بدل الحقد عليه، حزنْتُ للوضع الذي كان فيه.

وعلى الرغم من أنه حاول أن يُخفي حيرته بحديثه مع الشخصين اللذين
كان يتوسطهما، قرأتُ غموضًا يشبه الخوف، في عينيهِ المتعبتين. ظهره كان
مقوسًا قليلًا. متخف مثل جوزيف كان يفترض أن يكون أكثر إنسانية. من
أين يأتون بكلّ هذه الازدواجية القاتلة لهم ولغيرهم؟ لقد ترمى المثقف في
شرقنا الجريح، على كلّ وسائل التفاق التي تضمن استمراره. استطاع أن
يوثم بين تقاليد الرعب الآتية من جوف الزمن الأسود، وقشور الدين
الثقيلة بشكلياتٍ مرهقة، وحادثة ولدت معطوبة من الأساس.

رسالة الأديب تعلمنا ألا نخشى كارته، ولا تنهيب مغامرة، كل زمن
خطير في التاريخ كان زمن اضطراب وكوارث، وأعظم
فوائد الإنسانية نجمت عن عبور العذاب والخطر، ولا يُعرف
شأن ذي الشأن إلا يوم الكريمة، والمعاصفة لا تقتلع إلا ضعيف
الأفراس، أما الأشجار ذات الحيوية العصبية، فالأحاصير عمزها
مزاحمتها، فلا تنيلها إلا قوّة ومناحة.

أواصل ولا أسمع إلا صوتي، والصمت الذي اختلط بالبياض الذي
كان يملأ المدرج لدرجة أنه أخفى الكثيرين من أمام وجهي. كنت في

أعماقي متشعبة بها كان يحصل لي. اعتقدُ أن هذه الشهور علمتني ما لم أكن أعلمه طوال حياتي الماضية. لقد صرختُ، وحاولت أن أنقل غربًا حيويًا ومفيدًا وعقلانيًا، نحو بيوتنا ونسائنا، لكنني أدركت أن المسافات الضوئية لا تُسدّ بقرارٍ أو برغبة. المرأة التي فتحت عينيها على الاستعباد، ستبدو لها الحرية جريمة في حقها، والرجل الذي رضع القوة والجبروت وسلطان الذكورة، في نديي أمه، لا يمكنه أن يكون حرًا إلا بكسر قيد قرون الظلام التي يميزها وراهه، دون أن يراها.

الشرقي يريد كل شيء جميل، بلا ثمن ولا تعب.

رسالة الأديب تعلمنا كيف نفهم كل شيء، ونستفيد من كل شيء
باحثين عن الصواب والكمال خلال كل نقص وكل زلل، نازحين إلى
الجمال الحسي والأدبي حيال كل دعامة خلقية وخلقية، مساجلين
الثقوس والعناصر، مناجين المنظور وغير المنظور لنجعل من حياة
متأثرة متلاحمة، حياة متناسقة متماسكة. أتني شيء لا تعلمنا
رسالة الأديب؟ إنها قوة تستغز قوتنا وموهبة تحفز مواهبنا،
وصرامة ترقنا عن الحسارة، ورسالة تلغتنا إلى البسالة، وعلوية
تواسي أحزاننا، وأغرودة تطرب أشجاننا، وهي كل ما يسوقنا إلى
تكوين عالمنا المتكاف المستقل.

أرفع رأسي قليلاً، وأعودُ إلى الورقة. تتراب الحروف قليلاً فوق بعضها. كنتُ مسحورة باهتمام الناس ومتابعتهم. مضت الساعة كالبرق لم

احسبها مطلقاً على الرّغم من أنّي كنتُ متنبّهة لكلّ شيءٍ، وكان عليّ أن لا
انغطّأها حتّى لا يعمل الحاضرون. الحاضرون، كنتُ أقرأ فرحهم في عيونهم
المنفتحة عن آخرها.

أخيراً وليس آخراً.

نحتاجُ إلى الأديب يأخذ منا ويعطينا، فيرسل صوته أريياً، رصيناً،
مسيطرًا أخافك، حصاناً. ونحتاجُ إلى رسالة الأديب قويمه، غنيّة، عنيّة،
تلهمه لتوقف قوميتنا في مكانها المشروع، في معرض القوميات بميلان
ال عمران العظيم.

والسلام عليكم جميعاً.

فجأة انسحب البياض بعد التصفيق الحاد الذي اهتزت له الجدران
من شدّة قوّته واستمراره، وأتضحّت الوجوه أمامي من جديد. عندما
فتحتُ عينيّ، رأيتُ أناًساً آخرين كنتُ أعرف بعضهم، على وجوههم
ابتسامات عريضة.

رأيتُ باقات الورد مع العشرات من شباب الجامعة، كلّها كانت تتزاحم
نحوي. والأيدي تتدافع لتحتّني، بينما كانت الزغاريد تشقّ فضاء الويست
هول الواسع.

سمعتُ أحدهم يقول، ولم يكن بعيداً عنيّ، موجّهاً كلامه نحو
الإعلاميين الذين تراكضوا نحوي:

- إنَّ الحَجْرَ على هذه النابغة هو حَجْرٌ على الأدب العربي وعلى الأمة العربية، وعلى العبقرية العربية، فلا تعدموها بسطرين من قلمكم. وهي عاقلة فلا تجعلوها بحكمكم مجنونة. إنَّ في عنقها قيِّدًا، وهي السَّيدة الفريدة المجلَّة، فاخلعوه عنها، ودعوها تنشقَّ الهواء الطلق، فوراها الملايين من الخلق يتظرونها.

كلامه أعطاني المزيد من الأمان.

لأول مرَّة أخرج من الويست هول الذي أعرفه جيِّدًا، وسبق أن ألقيت فيه محاضرات عديدة، وحيدة، بلا يوسف، وبلا الكثير من الأصدقاء القريبين الذين لم يكلفوا أنفسهم زيارتي، في خضم معركة خطيرة حاذيت فيها الموت.

بعضهم راهنت عليهم، والبعض الآخر زكوا جنوني بالدخول في اللعبة الظالمة.

كدتُ أجهش بالبكاء، لكني كبرت، وتماسكت. كم تمنيت، لكن كان عليَّ أن أظل كصنم، بلا حراك ولا كلام. أحسستُ نفسي خرجتُ من اختبارٍ قاسٍ أمام المئات بأقل الخسارات. تمنيت في أعماقي أن أرمي بكل الأوراق، أطرح بها في الفضاءات الواسعة، وأركض في حديقة الجامعة الأمريكية، وأنزل من هناك ركضًا، إلى أسفل المرتفع، حتى أصل إلى ملعب التنس ومخرج البحر، ثم أصعد بنفس الدرجة من الفرع، وليقل الناس إثمًا

مَهْ قد جُنْتُ، لكنِّي لم أكن قادرة على فعل ذلك. الذين يتظرونني في مختلف المنعرجات كثر، وعزَّ جداً عليَّ أن أمنح فرصة إضافية لتأكيد جنوني. أجل ما يقوم به المظلوم هو أن يعذب قاتله بنجاحاته فقط.

فجأة شعرت بنفسي فارغة من الكثير من الصداقات. أغمضتُ عينيَّ وكانت سعادةً ضامرة تعبر كامل جسدي ودمي. وما تزال أصداء التصفیقات تملأ دماغي. كنتُ كمن يسير على الماء والغيم. قلبي كان مجروحاً بعمق، لكنِّي كنتُ سعيدة في أعماقي.

ترأت لي من وراء ظلال ساحة الجامعة الأمريكية، كامبي كلوديل، وهي تصرخ بأعلى صوتها، وتفكّ قيدها بقوة. تضرب برجليها على الأرض في صراخٍ مريّر مع رودان الذي مات قبلها بسنوات، وأتمها، لتكسر قيدها الذي أدمى معصميهما. لأول مرّة أرى قسماً وجهها الجميلة والريقة، قبل أن تغطّيها الشيوخة بغطاء الموت.

كلُّ شيءٍ انتهى.

أعتقدُ اليوم، وفي اللحظة التي خرج مني جوزيف نهائياً، غادرتُ العصفورية إلى الأبد.

(٥)

كنتُ وراء الزجاج المندى المطل على جزء كبير من المدينة وبعض شوارعها. يتصاعد دخان سيجارتي مثل اللولب الوهمي، أحاول القبض عليه برؤوس أصابعي لكنه سرعان ما ينفرط. أنامل الحياة. أكتشف فجأة جمالها وحبها ونورها. لم تكن بيروت في هذا الصباح مدينة عادية. الربيع غير ملامح الناس، كلامهم وحكاياتهم، وحتى ألبيستهم. أجسادهم أصبحت جدّ خفيفة، وجوههم مالت بسرعة من الكفهرار إلى البشاشة، من القلق إلى الراحة. المقاهي تعج بالوجوه. شيء ما في هذه المدينة لا يموت أبدًا.

هل أنا من يرى، أم الذي يرى ليس أنا؟

وأنا جالسة أقصّ ما جرحني بالتفصيل، في جريدة المكشوف، تبني الأستاذ المحامي فؤاد حبيش مدير الجريدة، إلى ما وصله من جمهور القراء الذين حضروا الأمسية، أو الذين سمعوا عنها، أو قرؤوا عنها في الصحف اليومية التي غطت الحدث: لقد قلتُ كل شيء ولم يعد لديّ ما أقوله، فأنا مستنزفة.

- أنتِ اليوم امرأة حرة مثل النور.

- سعيدة كثيرًا، الفضل كله لكم، لن أتوقف عن قول هذا، أنتم لم تسترجعوا لي حقي، أعدتم لي الحياة المسروقة. لا شيء يساوي لحظة

خروجك متصراً في معركة فُرضت عليك، لست وحدك المعني بها، لكن
أيضاً من ناصرك، ومن أحببك، ومن وثق في عقلك. شكراً لجريدة
المكشوف، التي كشفت الحق بلا خوفٍ ولا تهاونٍ ولا ظلمٍ للناس.

أشعرُ الآن براحةٍ كبيرة، لدرجة أنني لا أعرف ماذا أفعل بحياتي؟ بدأتُ
أكتب كتاباً آخر، بيتي اللبّاني الذي جمع كياني الضائع وأشلاتي، عنكم،
فأنتم بيتي، وعن إقامتي في بيروت. لكنني رأيتُ أنّ جهدي سيستزفني على
مرتين، فأدبته في صلبِ يومياتي وليالي في العصفورية. ما تزال مأساة الظلم
في عمي ومن الصّعب إزالتها بسهولة. سعيدة جداً، لكنني أحتاج إلى عميرٍ
آخر يمنحني فرصة أن أكون بغير الصّورة التي أنا عليها.

- لو التفتُ ورائك قليلاً، نحو تلك الهوة العميقة، التي اسمها
العصفورية، ماذا تفعلين؟

- لا شيء، سأقاوم ولن أستسلم لمن أرادوا قتلي وأنا في عزّ حتمي للحياة
والناس.

- هل ساعيتِ أهلك؟ يعني...

- هل ساعيت جوزيف؟ أم.. ههههه.

- نسيت أنك صحفية أيضاً.

- عفوتُ عن كلِّ شيءٍ في اللَّحظة التي ظهرت فيها الحقيقة. شيءٌ واحد احتاج فيه إلى زمنٍ أطول، لكي أغفر لآل زيادة وما فعلوه في. أفكرُ في شيء واحد لم يعد بعيدًا اليوم، بل أصبحتُ على حوافه، أن أدفن في القاهرة، بجانب قبر أُمِّي.

- لبنان أرضك، وأرض أجدادك.

- هذه الأرض قطعة منِّي، وجرحها جرحي. ليعذرنِي كلُّ من أحببتهم وأحبوني، فانا لا أريد أن أتنفَّس الهواء الذي يتنفسون، ولا أنام على التربة التي ينامون عليها، ولا أرى نفس الشمس التي يرونها. ربِّما احتجت إلى لحظة صفاءٍ غير هذه. فرحة كثيرًا، لكن هذا لا يطمس جرحي. تخيل قليلًا، نفسك تُرمى في مستشفى للأمراض العقلية وأنت في كامل قواك الذهنية، وما زلتَ قادرًا على الاستمرار في الحياة بحبِّ؟

- أنفهم حزنك الكبير، والرَّماذ الذي في داخلك، لكن الحياة أقوى من كلِّ شيء. ألم تقولي هذا في الكثير من مقالاتك وكتبك الكبيرة؟

- بالضبط، لقد تسارعت الأحداث بشكلٍ لم يمنحني فرصة التفكير والاستمتاع بما حدث.

ثم التفت صوب محفظته وأخرج سلسلة من القصاصات الصحفية وبسطها على الطاولة.

- سمعتِ هذا الكلام؟

قرأت قليلاً مما منحه لي: القرار النهائي كان مهماً بالنسبة لي، الأنسة مي لا تشكو إلا من قلة مدخولها الناتج عن دعوي الحجر، لأنها لا تستطيع سحب مالها من المصارف، وتمسّ بالم مبرح، عندما تسمع كلمة تذكرها بالحجر عليها، الذي لا ترى له مبرراً وهذه انعكاسات طبيعية بعد الشفاء. وقد أحدثت قضية الحجر على مي ضجة كبيرة في الأوساط الأدبية والسياسية يومئذ، وانتهت في صالح الأدبية الكبيرة، إذ صدر قراره محكمة بيروت برد دعوى إلقاء الحجر نهائياً. في أول شهر حزيران عام ١٩٣٨. حول شخصها، صحة الأنسة مي الجسدية ممتازة، والنشاط الطبيعي، والأعمال تتم بصورة حسنة. إنني أرى أن الأنسة مي قادرة على حياة اجتماعية مستقرة وأرى أنها جديرة..

- انظري ما قالته صحيفتنا الحميم وصوت الأحرار قبل مدة قصيرة. أعرف أنك لا تتابعين كثيراً وتريدين أن تنمي هذه التراجيدية من بدايتها إلى نهايتها.

- معك حق، المشكلة أنه في كل التفاتة يأتي شيء ما لينفص عليّ. لا عليك، تعودتُ على كل شيء، وعليّ الآن فقط أن أقنع نفسي أنني أصبحتُ كما الهواء والطير والماء والغيم، حرّة. وهذا أيضاً جهادٌ آخر. عندما تكون

مكبلاً من الداخل، فلا شيء يهتك أكثر من كسر القيد الذي فيك، الذي نبت في داخلك. أكثر من خمسين سنة وما زلتُ طفلة تركض وراء العصافير، وتخاف من كل ما يركض وراءها من ظلالٍ لا تغادرها.

خطوط الجريدة رقيقة جداً، وضعت العينات وبدأتُ أقرأ:

(لقد زالت حيرتي وزال ترددي بعد تلك المحاضرة الساحقة، وبانقضاءي آن الأتمة متى بعد تلك المحاضرة لا يُجسر عليها، ويملا الانتعاج القاطع الحاسم الذي كوّنته في عيني التي رأت وأفنتي التي سمعت. ألقتم منكم الآن أيها القضاة، وأطلب أن تقاسموني هذا السّمور الحسي الصادق الذي انتابني ليلة البارحة، فالفتاة التي ألفت تلك المحاضرة لا يُجسر عليها، ولا يُجسر حريتها وهبّرتها، فهي أسمى من أن تطالها يد القصر، من أن تمسها يد الحجر. ليتركها أتسبأها وشأنها، إن أتسبأها الحقيقيين هم أولئك الذين تربطهم بها الترابطة الروحية، أولئك الذين سمعوا محاضرتها فصنّفوا لها، وخرجوا منها معجبين، ملهولين).

(لقد كان على الصحفيين في لبنان، إن لم يكن إكراماً لي، إكراماً لوالدي، أن يُبدوا شيئاً من الاهتمام، أو شيئاً نحو زميلهم وابنة

زميلهم، أن يسألوا عنها، أو يقوموا بزيارتها عندما سمعوا بخبر
 منها لمعرفة مبلغ ما في هذا الخبر من الصحة...).

- نعم، قلتُ هذا الكلام وأكثر في حق الصحفيين، ولا أندم عليه،
 حقيقي. لم أكن أتحدث، لكن كل جوارحي كانت تقول مرارتي. أفهم أن
 يتهمني جوزيف، فقد كنت مجنونة عليه حباً في وقتٍ من الأوقات، لم يترك
 في مساحة واحدة لي، احتلني كلياً، رفضي للكثير من العروض ومنها
 جبران، وحتى العقاد، منبعه حبي له. حتى الذين ووصايا الأديرة، تخنفي
 كلها أمام عاصفة الحب. العقاد حاول كسر يقيناتي السابقة، لكنه لم يفلح
 معي، تعب معي كثيراً. لست امرأة سهلة ولا حتى طبيعية، أحتاج إلى أن
 يفتح عقلي قبل جسدي. ماذا كان عليّ أن أفعل؟ رجل باعني بأخرى وأنا
 في عز التصاقه به وبدأت أراني أمًا، متمنية أن يرزقني الرب ذكرًا استعيد به
 أخي الذي توفي في وقتٍ مبكر. آمنتُ به، كنا نراسل بالفرنسية، لدرجة أن
 ذلك أثر على توازن أسرته، وزوجته تحديداً، كاني أصبحت ثقلاً عليها.
 غرق جوزي في امرأة كانت على أبواب الموت، وكنتُ أشدّ فيه بكلّ قواي،
 كي لا أغرق أنا أيضاً.

- هل وجوده معها كان يعذبك؟ هو في النهاية اختارها، وهي زوجته.

- لا أدري إذا كان الأمر يخضع لمنطقٍ ما؟ لكنني كنتُ أتمنى موتها. يوم
 ماتت أحسستُ بنفسني كآني أنا من قتلتها. لو كانت أمي حيةً للعنتي
 بعقليتها الأرثوذكسية المغلقة، هي من نصحتني بنسيان جوزيف نهائيًا،

والتفكير في ابن عمّ آخر، أو ابن خالة، أو أيّ شخصٍ آخر، بعيدًا عن جبران أو العقاد. الزواج هو في النهاية ليس بكلّ هذه المشقة، مجرد حلمٍ صغير لتكوين عائلة، لا أكثر.

كانت المخطوط واضحة، عرفت صاحب الكلام حتّى قبل أن أقرأ اسمه. صحّة الأنسة مّي الجسدية ممتازة، والنشاط طبيعي، والأعمال تتمّ بصورة حسنة. إنّي أرى أنّ الأنسة مّي قادرة على حياة اجتماعية مستقرة. الجنرال الدكتور مارتن، كبير أطباء لبنان.

- وهذه قصاصة أخرى سجّلت رأي راجي الراعي، النائب العام الذي حضر محاضرتك.

- رأيتُه وسعدتُ جدًّا أنّه كان موجودًا، شهادته ثقيلة جدًّا، وهي التي غيرت مجرى الأحداث. كنتُ ألاحظه وهو يسجّل ويراقب ويدقّق جدًّا فيما كنت أقوله، ويتأمّلني. في النهاية عانقني بحبّ، وقال: لا أعلم من صاحب فكرة المحاضرة ودعوة الناس، لكنّها أجمل جواب على المشكّكين، سعيد من أجلك، لقد انتصرت في قضيتك المعروضة أمام محكمة البداية.

- بالقبض، هذا ما قاله في المحكمة.

- على الرّغم من أنّه شخصية قويّة، ومرعبة في نظراتها، لكنّه لم يُخفني، لأنّي كنت أعرف مسبقًا أنّه إنسان مثلي، يبحث عن الحقيقة الغائبة التي سُرفت منّي، وكان يريدّها، لينجز تقريره بموضوعية. حقيقي فكرة

المحاضرة في الوبست هول، على الرّغم من خطورتها الكبيرة، إلا أنها ظنّت
أملاً كبيراً وأخيراً بالنسبة لي، لا خيار، إمّا النجاح نهائيًا، أو قبول الموت في
المصفورية، وإنهاء قضية اسمها ميّ زيادة.

كنتُ أتكلّم براحه، لا أدري كم استمرّ زمنُ حوارنا، لكن سعادتي
كانت كبيرة جدًا.

- في مصر يحتفلون بانتصارك على الظلم.

- كما في كلّ مكان، الذين أعرفهم صامتون، ميتون.

- طاهر الطناحي، الرجل الجميل والطيب، كتب فيك قصيدة، يدعوك
فيها إلى مصر.

عودي إلى مصر مثل الشمس ساطعة تزجج فيك آيات وهرقانا

كم قد حزنا لبعده طال مواعده وكم حسدنا على الأيام لبنا

القاهرة أصبحت على بعد مرمى حجر.

كان قلبي مقهورًا من جيش الأصدقاء هناك، إذ لا أحد حرّك إصبعه
الصغير، لكن يجب قبول منطق الدنيا أيضًا كما هو، لا كما نريده. ما قرأته
من تصريحات العقاد، طه حسين، سلامة موسى، وغيرهم، جرح قلبي

وقسمه إلى نصفين، وجعلني أفكر في كل ما مضى، وأتساءل: أيُّ حدثٍ،
وأيُّ متحفٍ ملتزم، عندما ترى صديقك الذي يشترك معك في هموم الدنيا،
ينسأك، بل يوغل فيك سكيناً صدئة؟

أفهم جيداً اليوم لماذا حدثتنا معطوبة؟ حدثتنا الخطاب والمناسبة.

القاهرة على مرمى حجر، سعيدة بذلك، لكن لن أكون ممي التي عرفها
الجميع، ولن تكون قاهرتي حبيبتي التي منحنتني كل شيء، حبها، وبعض
أسرارها، وقلبها المعطوف.

امرأة أخرى، لا أعرفها الآن.

٦- اغسِلينِي يَا أُمَّي مِنْ دَمِي، وَدَثْرِنِي بِصَدْرِكَ.

(١)

لاول مرّة أصل إلى القاهرة منهكّة وكأني عدتُ فقط لأموت بجانب والدي ووالدي، لا أنكر أبدًا أنه في نيتي الموت في سكينته، ولا أستجيب لأيّ شخصٍ يتلفن لي. المرارة التي كانت تملأ قلبي كانت أكبر من أن أتحمّلها، منهم، لقد صمتوا كلّهم، بل الكثير منهم قال عني كلامًا غريبًا، قبل وبعد العصفورية. ويظنون أنّ العالم صغيرٌ ولن يسمعهم أحدهم، وأنّ المهولة المصرية انتهت، وتحرّروا من ثقلها نهائيًا!

نَسُوا أنّ ما في الصحافة لا يموتُ أبدًا.

لهذا؛ ضربتُ على نفسي سياجًا لآتي كنتُ فقط أريدُ أن أرتاح، لم أستطع تفادي بعضهم، العقاد، سلامة موسى، ولطفي السيد، أصيبوا بخيبة كبيرة لأنهم لم يجدوا المرأة التي تنافسوا عليها في السر والعلن، نَسُوا أنّ هذه المرأة لم تعد إلى القاهرة إلّا لتموت، وتُدفن بالقرب من والديها، ربّما حصلت على تلك السكينة التي بحثتُ عنها عبثًا.

أفقلتُ الباب في وجه أنطوان الجميل الذي شعرتُ يومًا بأنّه سيموت من دوني، لا لشيء سوى لأنّه تخلّى عني. ربّما غاضبة منه أكثر من غيره، لأنّه رجلٌ حسّسني دائمًا بأني جزءٌ منه، وأني ساكنةٌ في عينيه، وفجأة، مجرّد حفنة رماد، لم يكلف نفسه حتّى بجمعها ودفنها وسترها من البرد العاصف وظلم الناس، أو رميها في عميق البحر.

اعدُر نفسي كثيرًا، ربّما كنتُ أنا أيضًا مثقلَةً بشيءٍ غامض، استيقظَ في دفعة واحدة في القاهرة.

ربّما غالبت في شكّي، في الجميع. في هذه تحديداً، لن أكون إلا أنا، امرأة مبتورة من أجل سنوات عمرها وتعرف جيّداً قاتلها.

هذه القصصات لم تعد لها أيّة قيمة تُذكر، كثيرة، وأصبحت تضايقني.

استغربُ كيف ينقلب الحبُّ إلى كراهية، ثم يتحوّل عندي إلى بياضٍ شبه بالعدم؟ هل كان العقاد مجبراً أن يُفبرك كذبة ضدّي ليخفي بؤسه معي؟ أين كان يوم أخذتُ في سيارةٍ مغلقة، ودُفنت في مكان، لا أعرف كيف خرجت منه؟ الصديقة تُزار، عندما تكون مريضة، ويؤخذ بخاطرهما قليلاً، ليس هيتاً، أن توضع فجأة في صف الأموات والمجانين. أتساءل في خلوتي إذا كنتُ ما أزال ببعض عقلي؟ لا يمكن لهذه القصصات أن تكون كاذبة: "زرت الأنتسة مي، ورأيتها ترتحف، وهي تفتح الباب وتشير إلى السكن الذي أمامها، وتضع إصبعها على فمها، تحذرنِي من القلام، قالت: ششت.. ألا ترى هذه الحجرات، وما فيها من النور؟ إتها خالية وخاوية، فلم يبيرونها في هذه الساعة؟ أنجّهتُ إلى تلك الحجرات، وسألتُ عاملاً وجدته عند بابها، فعلمت منه، أنهم يعدونها للتسليم في اليوم التالي، أول الشهر، وأول تاريخ الإيجار، فلما أنبأتها بما علمتُ، بدا عليها الخوف، وخطر لها أنني أخفي عنها الموامرة، أو أشارك مع المتأمرين".



أضحكُ بمرارة. كيف لامرأةٍ ربحت معركة بيروت، تخسر موعدها مع القاهرة، وهي تظنُّ أنها مأمناها؟ ماذا لو زارني محمود العقاد في بيروت أو سأل عني؟ لم نتفق في أشياء كثيرة، لكنّه لم يكن عدوًا لي.

محتي ليست خاصة، ليست ترفًا بانسًا، هي محنة المثقف العربي في أوهامه المرضية، الذي استقرَّ على ازدواجية مقيته، سترافقه إلى قبره بعد أن قَبِلَ بها واستكان لها، يصرخ كما المؤذّن على ساحل مهجور، أو أجراس كنيسة ثقيلة، في الحبِّ، في السياسة، في الاجتماع، وكلِّها تعلق الأمر بموقفٍ حقيقي وبسيط لا يكلف إلا صدقه حينما يقف أمام المرايا القليقة، انسحب وأصبح غير معني بكلِّ ما قاله وحكاه، ويمسح كلَّ آلامه في الآخرين. إلى اللحظة لم أسمع أنّ العقاد أعاد النظر في نفسه حينما اتَّهمني بالجنون، ولم يكن مطلوبًا منه ذلك ليحوّلني إلى امرأةٍ نقلت العصفورية في أثرها، من القليلين من الذين استقبلتهم في بيتي الجديد الفقير، لكنّه لم يحسب لذلك أيَّ حسابٍ، شرب قهوة عندي في وقتٍ لم أفتح للآخرين لا باب بيتي، ولا باب قلبي. اعتقدُ أنّه حقد عليّ عندما أرادني في فراشه وتمنّعتُ، ليس كرهاً فيه، فقد كان أنيقًا ومعطرًا كتفاحة، لكنني كنت أفكر في جوزيف ولا أنبل غيرته من جبران، ثم هي تربيته الكنسية الثقيلة والمتناقضة أيضًا. وجد تعبيراته كلّها في السهولة. أحيانًا أنساءل إذا لم يظَلَّ الإنسان العربي مثبتًا في عقد المراهقة حتى الموت؟

"لقد كانت مَيّ متديّنة، تؤمن بالبعث، وأنها مستقف بين يدي الله يومًا، ويحاسبها على آثامها، فكانت برغم شعورها بالحياة، وإحساسها العميق الصادق، وذكاؤها الرّوّاء، وروحها الشّفاقة، وأنوثتها، تحرص على أن تمارسها بعفة واتزان".

لم يضع في حسبانَه أنه كان يريدُ شيئًا، أعطيته لجوزيف، وكنت عاجزة أن أمنحه إياه، لا أدري السّبب؟ ربّما لأنه كان يقينًا في كلِّ شيءٍ. لم أجد في العقاد هشاشة العاشق، ولكن ملمسًا من حجر وصوان، لم ينخط الأفكار التي نبت عليها، الكتابة هشاشة دائمة، لكنها أيضًا صنعة، الإحساس فيها قد يكون محدودًا.

لا أشعرُ أبدًا أنّي أخطأته يوم تركته، فهو في النهاية رجلٌ شرقي لن يتغير، وإذا تغير فسكون ذلك بصعوبةٍ كبيرة، ولكنه في أول هزّة، بدل أن يراجع نفسه، يعود إلى اللّحظة الأولى التي تظنّ أنه تخطأها.

وقصاصات سلامة موسى لم تكن أكثر رحمة.

لماذا يكذبون عليك أيّها الرّب في سموك العالي؟ هل يظنون أنك لا تعرف شيئًا؟

"كانت صورة مَيّ في ذهني، عندما ذهبنا لزيارتها، لا تزال صورة الفتاة الجميلة الحلوة التي تضحك في تدلّلي، وتحدّث في شأنٍ عن التّرصّات والمذاهب الأدبية أو الفلسفية. ودققنا

الجرس، فخرجت لنا امرأة مهذمة كأنتها في السبعين،
 قد اكتسى رأسها بشعرٍ أبيض، مشعث، وكان وجهها
 مغضناً، قد تقاطعت فيه الخطوط، وكان هندامها يبدو مهملاً. وظننت
 لأول رؤيتها أنها الخادمة، وانتظرت كي تتحى وتدخل، ولكنها لم تتح،
 وغمزني صديقي، وهو يمس بصوتٍ اعتقد أنها سمعته:
 الأنسة! وسلّمت وأنا مثلج من الخجل، ودخلتُ أجرّ
 قدمي وقعدت إزاءها وأنا أفكر في هذه المأسة. أين شبابها؟ أين
 حلاوتها؟ لم أعرف أنّ مي الجميلة، الرشيقه، خالدة الشباب،
 قد استحالت إلى عجوز، ولم يبق لها من جمالها إلا الذكري.
 وقعدنا نتحدّث، وجعلتُ تلووني لأنسي لم أسأل عنها،
 وتدفقت دموعها كما لو كانت ميازيب. وجري بكأوها
 في تشنج كأنتها تلتذه، ثم هدأتُ وأشعلت سيجارة،
 وجعلت تدخن وتنفخ دخانها عليّ مداعبةً، لأنني أكره الدخان، وهنا
 استولى عليها الطرب، فشرعت تضحك في إسرافٍ يزيد على إسرافها
 في البكاء. وكانت تتشنج بالضحك كما تتشنج بالبكاء، وتكرر
 هذا منها، ضحكٌ فبكاء، مع إسرافٍ في الاثنين".

يبدو أنّ فصل العصفورية سيستمر حتى الموت!

مع أنّي أحبته كثيراً وكنت وراء توظيفه في جريدة الوالد، بدون أن أنتظر
 منه شيئاً، لكن ذلك كلّه لم ينفع في شيء. كان كما البقية، يجد ضالته في

الكلام الثقيل والإصرار على الجنون، بدل الاعتراف بخطأ النسيان. نعم لته من قلبي كما نلوم صديقًا، لكن كان يجب أن بصمت، أفضل له ولنا جميعًا.

شيء في هذه الحياة مش على بعضه. هل أنا المذنب لأن رواي مضببة، أم الآخرون الذين كلمنا التفتوا، لا يرون إلّا أنفسهم في المرايا المعشقة بالألوان التي يشتهون؟

استقبل من، وأترك من؟ أحب من؟ وأعادي من؟ عندما كنت أنزف وحيدة في محرقة العصفورية، الأطيب منهم التفت صوب الفراغ، الآخرون وجدوا فرصة كبيرة لطحنني بقوة وبلا رحمة. طه حسين يقسم برأس كل أساتذته العظام وعلماء النفس أنه رأني غير طبيعية، وآني أسير حنيثًا نحو الجنون، ومصدر ذلك، ليس عبقرية قد تصيب العابرة من المثقفين، ولكن أزمة نفسية كبيرة جرّتها إلى العصفورية. وتسوا أن الجرائد لا ترحم مطلقًا.

القليلون من صمتوا وتمنّوا الخير في المطلق.

(٢)

هبت نسمةً باردة، فتعالت لها ستائر البيت عاليًا.

أشعرُ بإنهاك غير محدود كآني أحمل على ظهري ثقلًا مضنيًا، لا رغبة لي في الأكل إلا للعيش لا أكثر، حتى جسدي الذي استعاد نشاطه بدأ ينحف شيئًا فشيئًا.

أشعرُ برغبة كبيرة للنوم ونسيان كل شيء، حتى نفسي.

لا أحد منهم مَدَّ يده نحوي لإخراجي من القهر.

عندما أعبر تفاصيل حياتي لا أرى الشيء الكثير سوى آني بقيت أنا؛ تلك الصغيرة الضعيفة الحائرة وسط العضلات والوزايا، ولم يفتأ ذلك الوحي المعبذب يمس في سورته، وذلك الاحتياج المتوهج يُضرم في ناره، ففهمتُ أمرًا آخر وهو أنه حيث تكون العاطفة متيقظة، مرهفة، فهناك النزاع الأليم، والاستشهاد العظيم، وإذا رافقتها الأنفة وشرف السكوت على الحروق، والكروب، فهناك مأساة الصلْب تتجدد مع الأيام. وقفت عند كوة الحياة لا أدري لماذا أقف، ومن ذا أوقفني هناك؟ وإذا بالناس في السبيل يَمْرُون، فأخذتُ أنفخض الوجوه منهم والحركات، لعلني أعرُّ على ما يجعلني مختلفة عنهم، وهم مختلفون عني،

ولعلني أدرك ما هذا الذي يُطلب مني رغم حداثتي، وحيرتي، وجهلي، وقلّة اختباري، فصرتُ أعجب بالنّاس، وأغبطهم على ما لديهم، وليس لي أن أفوز بمثله، وأتعزّي بمظاهر الكآبة عندهم، لتكون تلك المظاهر صلة ولو واهية بيني وبينهم، على أنّي لم أزد إلا شعورًا بحيرتي وعجزتي، لم أزد إلا شعورًا بأنّي خيال لا ضرورة له، إزاء تلك الأقسام الفرحّة الضّاحكة، مع أنّ هذا الخيال يُطلب منه شيءٌ كثير لا يدري ما هو.

فظننتُ لحظة أنّي وصلتُ إلى قرارة اليأس، وأنّي شربتُ كأس المرارة حتّى الثمالة.

ثم أوحى إليّ بأنّ هناك وجودًا غير ملموس يدعى السعادة ينتظرني في أفقٍ غير معلوم.

شعرتُ باحتياجٍ محرق إلى التعرف إليها والتمتع بها، ففهمتُ أنّه ليس أفسى على النفوس في انفرادها وسكونها وعجزها، من تلقّي ذلك الوحي العنيف، والشعور بذلك الاحتياج العميق. وها أنا ذيّ أسير في أطراف مرقص الحياة، معانية ما يعانيه مساجين الوجود جميعًا. يبرح بي وليأهم الشوق إلى السعادة، وأتلقّي مثلهم ذلك الوحي المتجدّد بوجودها، وعند كلّ خطوة خيبةٍ وكمد، وعند كلّ خطوة أملٍ وجدل،

وعند كل خطوة روعة حيال هذا السيل الحيوي الذي
يتدفق مرغياً مزبداً إلى حيث لا يدري، وعند كل خطوة
استفهام لا جواب له عن معنى الحياة وغايتها، عن معنى الألم
وغايته، عن معنى الطرب وغايته، وعند كل خطوة سؤال للكون، لماذا
وُجدت النفس الإنسانية كالتحاس المجوف، تُرجع لكل صوتٍ
يقرعها صدىً رناناً عميقاً وجيماً؟

ياااه، كم من الحنين راح هباءً، وكم من شوقٍ أخطأ طريقه، وكم من
سعادةٍ أُجّلت حتى شاخت.

(٣)

هودي إلى مصر مثل الشمس ساطعة تزجبن ضبيك آهات وهرفاتا
 قد حزننا لبعده طال موصله وكم حسدنا على الأيام لبنتانا
 لو كنت تدري يا أستاذ طاهر الطناحي مقام حبي لمصر؟
 كلما تك تدفن القلب لكنها لا تكفي، هنا أيضًا خانني أصدقائي الكبار،
 لا أحاسب أحدًا، ولا أظلم أحدًا، فأنا جدّ منهكة.

محاضرتي في الجامعة الأمريكية، كانت باردة، ربّما لأنّ محاضرة بيروت
 كانت في الأذهان، لأنها أنجنتني من نهاية مأساوية، أعادت لي تقتي الضائقة
 في نفسي أولًا، وفي المحيط ثانيًا.

وصلتُ إلى القاهرة منهكةً إلى حدّ كبير، كنتُ خارج كلّ الدوائر، في
 دائرتي فقط. سعالي الذي زاد كان يقلقني، نوباته كثرت وتعبني. استعملتُ
 كلّ الأدوية التي توقّرت لي، لكنّه لم يخفّ إلّا قليلًا، ربّما كان السبب الأيام
 القاسية التي مضت ثقيلة عليّ وصعب عليّ تحملها، أضف لها رطوبة
 العصفورية التي لم أعود عليها، أمكنة يدخلها الإنسان سائلًا، ويغادرها
 مريضًا، إذا كُيّب له أن يخرج منها. كامي كلوديل قضت عمراً بكامله، ولا

^{١٠} محاضرة ألقتها في الجامعة الأمريكية بالقاهرة في ١٩٣٩، بعد وصولها إلى مصر بقرة
 ليلة.

أحد يضمن خروجها يومًا. عندما رأيتُ بعض صورها في مجلة الفنون الفرنسية التي جاءتني بها بلوهارت، لم أعرفها، أدركت كم أن قسوة المكان امتصّت فرحها.

توقّف السعال في أعالي الجبل في الفريكا، ثم عاد ثانية في شكل نوبات متتالية تستمرّ طويلًا. خفتُ حقيقة أن يكون مرض السّل الذي انتشر بشكلٍ مخيف في لبنان وبلاد الشام، لكن الأطباء -بها في ذلك أطباء العصفورية- طمأنوني، قالوا مجرد زكام عابر ولا يوجد ما يُقلق، ثمّ إنه لم يعد مرضًا مستحيل العلاج في حالة وجوده.

عندما غادرتُ المحاضرة في الجامعة الأمريكية المحاذية لبيتي في القاهرة، طلبتُ أن يخرجوني من الباب الخلفية، لم تكن لديّ أية رغبة لرؤية أيّ ممن كنت أعرفهم. رأيتُ بعضهم في القاعة.

رطوبة البيت كانت صعبة التحمل، ثقيلة. لا يمكنني أن أمنح لنفسي بيتًا أفضل من هذا. بحسب إمكانياتي، فقد خسرت كلّ شيء، وسرقوا مني عرقي وعرق والدي، كان عليّ أن أعيد ترتيب كلّ شيء.

قضيتُ أسبوعًا وأنا أنظفها وأغسلُ أرضيتها المثقلة بالغبار. أول ما دخلتها، شعرتُ بالاختناق، كأنها لم تفتح منذ زمنٍ طويل. كنت سعيدة أنّ الفصل القاتل انتهى، وآتي في حياة أخرى لا أعرف شكلها ونظامها، لكنها كانت شيئًا آخر.

عندما سألتُ طبيبي، الدكتور محمود، عن ضيق تنفسي وإحساسي من حينٍ لآخر بالاختناق، ونوبات السعال المرفقة أحياناً بخيوطٍ من الدم، قال:

- يا آنسة مي، من مرّ بما مررت به، تبدو هذه الأمور ثانوية، ويكون متنبّلاً لكل الأقدار. كويس أنك رجعتِ إلنا بخير، من يدخل إلى العصفورية، لا يخرج منها، وإذا خرج فمباشرة إلى المقبرة.

- لكني أشعر حقيقة بضيق في تنفسي يا دكتور، وبالسعال يزيد حدة لدرجة الاختناق.

- هذا ربو في أولى مراحل تكوّنه، خفيف، مصحوب بالتهاب رئوي عابر، مع شوية أدوية يروح. لكن أرجوك يا آنسة مي، قللي من التدخين، فهو عامل مساعد على المرض.

- وماذا أفعل بلا تدخين؟ كنت خائفة من مرض السل، فقد قتل الكثيرين. مجرد ربو، هذا يريحني دكتور محمود.

كلامه منحني شهية لسيجارة أخرى؛ اعتذرت منه للحظات.

الأمرُ الغريب، الكلام الذي قاله لي الدكتور محمود، هو نفسه الكلام الذي قاله لي الأستاذ خليل الخوري، عندما انتابني موجة سعالٍ طويلة في بيته وأنا برفقة بلوهارت.

جاءني وجه الأستاذ خليل الخوري وأنا غارقة في أوجاعي، بطيئته الكبيرة، واقترح عليّ أسبوعَ راحةٍ عنده، في بيتٍ مليء بالنور، يدخله الهواء من كلّ الجهات. لم يطلب مني شيئاً سوى أن أرتاح. يضحك مثل طفلٍ، ناسياً كلّ من يحيط به.

- ما بدنا عصفورية ثانية يا ميّ، الله يرضي عليك. أنتِ هوني في بيتك يا قلبي، مش ضيفة. إذا ما بتشعري براحة وأمان، مو ملزمة بالبقاء، نحنا منحبك، بس.

- ولو أستاذي الكريم، أنا بمتينة كثيراً، وجد سعيدة. وبعدين لا يمكن لعاقل أن يرفض هذا المكان المدهش؟ سأكون مجنونة حقيقي لو رفضته، وأنا صرت عاقلة. ما شفت؟ كلّ الرهان كان على العقل، وها أنا ذي قد استرجعته.

- عوافي عليك، عاقلة ونص ورُبعين، هههه، وأمامك عمر جميل لمواصلة جهودك الكتابية.

- إن شاء الله، ولو آتي أصبحت أشعر بنفسي مفرغة كلياً من الدّاخل.

- طبعي، طبعي جداً بعد هذا الفصل الظّالم.

- ظالم بحق، في بلدٍ آخر كان سيُحاكم المتسببون في أذاي. لكن نحتاج إلى زمنٍ آخر لكي يصبح القضاء عادلاً في بلداننا الممزقة التي سُرق منها حتى الحق في الحلم.

- كان بدي أسألك عن شي يا ممي، أنا ما انتبهت، لكن الصحافة كتبت ان الدكتور جوزيف زيادة كان حاضرًا، على الرغم من أنه رفض الدعوة وقال إنه لن يحضر. يُقال إنه عندما رأى تصفيقات الإعجاب في الوبست هول، غادر المكان بسرعة، برفقة شخصين كانا معه. لماذا جاء؟ هل كان يريد أن يعتذر؟ بعدين المفروض يستحي على حاله.

- لا علم لي حقيقة، نعم رأيت بتخفي كالسارق بين شخصين، لكن الذي حدث معي كان غريبًا، لأول مرة أخرج من القاعة وأنا بلا جوزيف في داخلي، لأول مرة لم أكن حزينة على فقدانه الأبدي، لأول مرة أيضًا رأيت يائسًا يحتل وجوده كليًا وكأنه لم يكن هناك. عندما غادرت الجامعة الأمريكية وحاولت أن أتذكر قسماته التي بدت مشدودة في القاعة، لم يحضرن شيء منها، سوى ملامح مسحوة، عوضها فراغ أبيض.

- يحدث هذا لما يكون القلب مُثقلًا بالحنينة.

- الأمر ثقيل جدًا يا سيدي الكريم، تقف ضد من عندما يعادلك المجتمع كله، حتى الذين ظننتهم أصدقاء أعزاء؟ أين رجال الأدب في لبنان؟ أين رجال القانون؟ أين الجمعيات النسائية؟ أين نصيرات المرأة؟ ألم توجد بينهن واحدة تدافع عني أنا التي قضيت السنين الطوال اندافع عن حق المرأة، ووقفت قلبي على خدمة بنات جنسي، ورفض مستواهن، ورد الظلم عنهن؟ أجل، أين هؤلاء وأولئك؟

- كلّ الذين قرؤوك يا ميّ يعرفون هذا جيّدًا.

- أستاذ خليل، هل يُعقل أن ينسى الإنسان بهذه السهولة؟ أين لبنان؟ لبنان الذي طويت ضلوعي على حبه، لبنان الذي تغنيّت في الجرائد والكتب والمجلّات ومن فوق المنابر، بجماله، بجماله، بينيه، لبنان الذي ما حلّت به محنة، إلّا انهمر الدمع من عينيّ، أي لبنان هذا، الذي لم يوجد فيه واحد يبكي على محتتي التي انطوت على محن كثيرة؟ تلك هي مكافأة لبنان لابنته ميّ: إهمالٌ مفرّج، وتغاضيٌ مخجل عن أخطأ مؤامرة جاءت بي من مصر، وألقتني مدة سبعة شهور في العصفورية، أنفّرج في التّهار على مواكب النّساء العاريات، وأسمع ألفاظاً ما كنتُ أعلم أنّها موجودة، وأنّ في البشر من يتلفظ بها، وأسمع في اللّيل عواء الذّناب. أسمع وأرى كلّ هذا، وليس هناك من يسمع صوتي، يرى محتتي فيبادر إلى إنقاذي. سبعة أشهر قضيتها في العصفورية، على هذه الحال، وفي تلك الغمرة من الألم واليأس والعذاب، دون أن يهتزّ عرقٌ بالشفقة، أو لسانٌ بالسؤال. ولهذا اسمحو لي سيدي الكبير، خليل خوي، بأن أكون صادقة، وأقول بكلّ ألم، وبكلّ أسف، وخجلٍ أيضًا، أن أردد، وأنا على تلك الحال في كلّ يوم وفي كلّ ساعة: لعنة الله على لبنان.

- لا يا مّي، لا حبيبتي، هذا لا يشبه قلبك السّموح. لبنان أكبر من هيك

بشر.

- قلت اللي حرق قلبي. أعرف عزيزي أنّ كلّ جوّاتك على هذا البلد،
وقلبي أيضًا، وأنت تعرف ما يعنيه لي لبنان ولوالدي المرحومين، حياتنا
كلّها كانت له، ولخيرته ولحبّه. تعذّبْتُ لدرجة فقدتُ عقلي من صمت البشر
على الظلم.

لم أستطع يومها، كتم دموعي التي ساحت بغزارة، أخرجتُ مندبلاً
صغيرة، هو في الأصل لأمّي، لم يفارقني طوال حياتي، وما تبقى منها.
غريبًا شعرتُ لحظتها بيّتم كبير، احتلّ جسدي كلّهُ، ونحّي ومفاصلي،
وبدت لي جراحاتي الكثيرة وكأّتها انفتحت دفعة واحدة. كان الدّم يسيلُ
وكأّتي المسيح بعد أن أنزل من على خشبة الصلب.

- لا تبكي يا مّي، أنت أكبر، والحقّ في النهاية عرف أهله، انتصر على
الكلّ، لم يعد لك دّين على أحد.

- نعم يا سيّدي، لقد كنتُ ألعن وطني، وعندما يلعن
المسرّ من يحبّ، يكون الألم والبأس قبد وصلّا إلى الأفاصي. كنتُ
أتساءل وسط حرائقي المعزولة: هل يعيد الدّمع المدرار، إلى ضلوعي،
أقدس مكنوناتي العاطفية لأرضي وناسي ووطني، ولبناني؟

شعرتُ بارتجاف يدي وأصابني وأنا أضع السيجارة السابعة والأخيرة في فمي، ثم غرقتُ في موجة من السعال تشبه الغصّة، لم أكن قادرة على توقيفها لدرجة أنّ حَصَّن الأستاذ خليل وبلوهارت يدي. وناولتني بلوهارت كأسًا من الماء حتّى خفّ عليّ السعال، ثم أعطتني ملعقة السيرو الذي منحه لي الطبيب.

سمعت تمتمة الأستاذ خليل التي أصبحت واضحة:

- أبناء الكلب! لا بد أنّ رطوبة المكان أثرت على صدرك.

في الثانية التي أغمضت فيها عينيّ، رأيتُ كلبًا ينهشني، كان له وجه جوزيف.

ناولتني بلوهارت بقية دوائي وطلبتُ منّي أن أستريح قليلًا قبل السفر. وأنا أقوم للذهاب إلى غرفة النوم، والاستعداد لرحلة القاهرة بعد أيام قليلة، قال الأستاذ خليل وهو يحضن كفي:

- لازم نشوف لك طبيب متخصص في آلام الصدر قبل سفرك، سعالك ما مريحني، ثقيل وبه مخاط كثير. في انتظار ذلك، قلّي من التدخين، فهو هالك سرّي للصّحة.

عندما فتحتُ عينيّ، كان الدكتور محمود ما يزال متسرّجًا في مكانه يتأمّلتني.

- صحتك تحتم عليك ذلك.

- هههههه، سأكذب عليك دكتور أنت أيضًا، كما كذبت على أحبتي في بيروت، بالخصوص الأستاذ خليل الذي رعاني في بيته قبل سفري إلى بيروت، وأقول إنها آخر السيجات.

- لست مضطرة للكذب يا آنسة مي.

وقع كلمة الدكتور محمود أيقظني نهائيًا من غفوتي.

فقد نسبت الطبيب كليًا، نبهني بلغة فرنسية أنيقة، فهو خريج جامعات ومستشفيات باريس.

- آنسة مي نحن هنا، لا تروحي بعيد.

- كنتُ في بيروت مع صديق عزيز.

- عليك أن تنسي ذلك الفصل القاسي.

- كنتُ مع رجلٍ جميل القلب، أكرمني بحبه.

- تحتاجين إلى بعض السكينة.

- رابحة لإيطاليا، بحبها كثير.

- نعم الفكرة، لازم تخرجين من الدوائر التي تُقلقك، أعطيك أدوية مسكنة للسعال، ومضادًا حيويًا، للالتهابات الصدرية، وإن شاء الله كل شيء يكون بألف خير.

- شكرًا دكتور.

عند الباب وقف يوذعني.

- سافري، لا تترددي، أنت بحاجة إلى ذلك، الحياة جميلة وتستحق أن تُعاش.

رأيتني في اللحظة نفسها أهتم حقائي واستعد للسفر من جديد. أستعيد كلماته الأخيرة: الحياة جميلة وتستحق أن تُعاش.

(٤)

كانت سفرة إيطاليا جدّ شاقة.

وضعتُ الحقائب في الزاوية الخلفية للبيت، لأول مرّة لا افتحها، وكأنتها
السفرة الأخيرة.

رحلة إيطاليا لم تكن بالجمال الذي أردته، ولم تكن سيّئة أيضًا بالسوء
الذي تصوّرتُه.

كنتُ فيها كمحكوم عليه بالموت الحتمي، جاء ليودّع الأمكنة التي
أحبّها، أو تلك التي تحمل ذكرى بطعم الفرح مع شخص لم يقادر ذاكرته.

السعال لم يتوقّف، بل زاد قوةً وتمزيقًا لصدري.

بدأت أرى من حينٍ لآخر خطوطًا حمراء تخرق كتلة المخاط الصفراء.

كان يجب أن أنسى كلّ شيءٍ، كلّ شيءٍ بلا استثناء، العودة إلى بيتي في
القاهرة كانت حلمًا، ها أنا ذي قد حققتُه، لكنّ قلبي ما يزال مُثقلًا بالرياح
الساخنة والدمّ الفاسد الذي تجمّد وتكتل حتى أصبح جزءًا من الجسد.

أعدتُ غلق أبوابي في وجه الكلّ، لم أعد بحاجة إلى أيّ شخصٍ، مال
قلبي تجاه كلّ ما نصحتني به أمي، أبونا والعدراء؛ بدأت أجد فيهما بعض
الرّاحة.

أغلقتُ الأبواب والنوافذ ولم أعد أستقبل أحدًا.

رنّ التليفون فجأة، عرفته من صوته الذي يفخّمه أكثر رغم نقله
ليدهش به مستمعه.

- أستاذنا الكبير طه حسين.

- الحمد لله على سلامتك، سعدنا بعودتك ظافرة متصرة، الحق يظل
حقاً ولا يتغير مهما كان انعكاسه على البشر، والشّر شرّاً أيضاً، لا يتغير.

- أيّ ظفرٍ وأيّ انتصارٍ؟ هذه فلسفة تتجاوزني يا دكتور، كلّ ما أعرفه
هو أنهم يومٌ حاكموك بسبب كتابك في الشعر الجاهلي، لم أتفلسف كثيراً،
عقدنا ندوات في الصّالون، وحشدنا الناس، واخترت صفك مع نخبة قليلة
من الأصدقاء. يوم طردوك من الجامعة لم أفكر عندما أتاني لطف السيد
بالعريضة، لم أسأل، قلت هذا أستاذنا، وله حقٌّ علينا، يستحق كلّ التقدير،
والوقوف بجانبه واجبٌ، كيفما كانت النتائج والخسارات. وقبلت في النهاية
أن أخضع للحجز يومين، وتحملت الاستجوابات الأمنية.

- حكاية قديمة يا مي.

- لأنها قديمة، أذكرك بها.

- نحن هنا، في أرض الكنانة، فرحنا لك، يوم سمعنا أنك غادرت
العصفورية بسلام. رأينا في حجزك ظلماً كبيراً ضدّ كاتبةٍ منحت قلبها
وحياتها لبلدها لبنان.

- لا سيد طه حسين، أعطيتُ كلَّ شيءٍ لبلدي مصر. أنا شامية صح، لكن هذه البلاد أعطتني كلَّ شيءٍ وأنا عدتُ لأموت فيها وأصطف بجانب والدي وأمي.

- قصّة طويلة دي حكاية الشوام في مصر. المهم، يمكن نخصص لهذا اسبوع في صالونك.

- الصالون توقف من زمان يا سيدي الفاضل.

- طيب، خيلنا نعرف نحكي شوي، هل يمكن تحديد موعد لرؤيتك؟ حابب أسمعك عن قرب.

- كيف تخسر وقتك الثمين على امرأة فقدت عقلها بسبب عصاب مزمن لاحظته فيها الجميع؟ لكن لا أحد نصحتها، كانت تتترفز بسرعة، ألم نصرح بهذا، في بعض الصحف المصرية واللبنانية يا دكتور؟

- الكلام ضخم قليلاً، لم أقل هذا، قلتُ كانت متعبة شوي وتحتاج إلى قسطٍ من الراحة، ووضعها يمكن يكون تعقد لا أكثر. ثم إن العصفورية يدخلها الإنسان مجنوناً، يخرج منها عاقلاً.

- ويدخل إليها الإنسان عاقلاً، يغادرها مجنوناً. أتمنى لكل أصدقائي الذين نسوني، ليلة تدريبية واحدة في العصفورية فقط، وبعدها نحكي.

- تعرفين يا آنسة أن بعض الجرائد تغالي اللقاء المباشر بصفى الأشياء. هل تذكرين كيف تذكرت حماسك وأنت تقفين ضدي في ندوة المرأة

والحضارة؟ كنتِ متطرفة في موقفك، مع أنني لم أقل إلا ما تؤمنين به، نحتاج إلى جهود الغرب للخروج من تحلقنا ويؤسنا. وصفينا الأمر بنقاشٍ جميل في صالون الثلاثاء.

- يا سيدي العميد، أنا منقطعة عن كل شيء، بالخصوص أصدقائي. الصالون توقف من زمان. يبدو أنك غير متابع.

- أسفار كثيرة. حابب أشوفك، ماذا أعمل؟

- لا شيء. إذا أحببت أن تشوفني بسيطة، أنا هذه الأيام لا أرى إلا القساوسة، كن قسيسًا وتعال، ولا بأس أن أراك بعدها. أنا أقدر جهودك العلمية ومشارك العظيم الذي نخطبت من خلاله كل المصاعب.

- هههه. عزيزتي مي، يؤسفني أن لا أكون قسيسًا.

- ولماذا لا تكون قسيسًا؟

- إنك تطلين المستحيل.

- لماذا يا دكتور؟ بجلالك تستطيع أن تفعل ذلك.

- لا أصلح لذلك، ثم مش ضروري.

ثم أقفل التليفون، ولم يتصل بعدها أبدًا.

(٥)

أكتب.

أكتب إذ أنا ما زلت قادرةً على الكتابة، لأعلن إرادتي، التي لن يتغير
فيها، لو حدث لي ما يحرمني من الكلام.

أكتب بلا هواة.

عيناى تدمعان، أشعر بتعبٍ كبير، وأجد صعوبة كبيرة في الجلوس على
الكرسي.

شيءٌ في بدأ ينظفني ويصبح ثقيلًا ككتل الرصاص، لكنني أصرّ على
الكتابة حتى النهاية لأنسى ليالي العصفورية الطويلة، أنسى كل ما كان
بشئني، فقط لأستمرّ في الحياة. لم تعد القاهرة تلك المدينة التي كنتُ
أنتفّسها، المدن ليست كتلاً حجرية، لكنها بشرٌ يعيشون معنا، ويتنفسون
هواننا، يتألّمون ويفرحون لنا.

ما شاهدته في الحمام عندما سعلتُ كثيرًا وبصقتُ كتلاً من الدم المتجمّد،
أخافني، فانا هشة مثل ريشةٍ في مهبّ الخوف الدائم من شيءٍ غامض،
أحسه ولا أراه. لا أريدُ أن أفكر في الأسوأ، ربّما التهاب حلقي هو السبب.
اللواء الذي شربته، أراحني كثيرًا، ولكن ليس لمدةٍ طويلة، ثم إن الطبيب
ذكر أنه يمكنه أن يتسبّب في نزيفٍ صغير، كان عليّ أن أوّمن أنه لا خوف.

لستُ مستعدةً لأعيش دوامة جديدة.

عزلتني لم تعد تطيقني، أو لم أعد أطيقتها، وأصبح من الصعب عليّ تحمّل الناس الذين يتلونون مثل الحرياء.

سعلتُ كثيرًا اليوم، السبب، لآتي مشيتُ في المدينة مدّة طويلة، باتجاه الكنيسة. رأيتُ حركة الناس وهم يركضون نحو مختلف المعابد، لم أستطع السير براحة كما تعودت، فقد انقطع نَفْسي.

أسرعت الخطى إلى أن وصلت إلى الكنيسة، وجدتنني أقرأ كل ما سكن في قلبي، في الأعماق السخية والهادئة.

سجدتُ على ركبتي وتممت: ربّي والهي إيتها إرادتي الثابتة في أن أكرّمك وأمدحك وأعبدك لأجل آلامك الخمسة عشر السرية، ودمك المسكوب، على قدر ما في الشواطئ من رمالٍ، وتراب الحقول وأعشاب الأرض كلّها وأوراق الأغصان، على قدر ما في الحقول من أزهارٍ وما في الأفلاك من كواكبٍ وما في السماء من ملائكةٍ وما على الأرض من خلّاتق. على قدرها ألوف المرات، فلتعبد، ولتمدح، ولتتمجد، يا ربّي يسوع المسيح. اجعلني مع جميع البشر نمدح ونحبّ ونمجد قلبك القدّوس، ودمك الثمين والذبيحة الإلهية المقدسة، والقربان الأقدس، والفائقة القداسة مريم العذراء، والمراتب الملائكية التسعة، وجمهور القديسين من الآن وإلى الأبد. آمين.

ارغبُ كثيرًا يا يسوعي الحبيب أن أشكرك وأخدمك وأرضيك
واعترض عن جميع الإهانات الملحقة بك، وأن أصير خاصتك جسدًا
ونفسًا. أريدُ كثيرًا أن أتوب عن خطاياي، وأطلب منك يا إلهي الغفران
والرحمة، كما إني أيضًا أتوق إلى أن أقدم استحقاقاتك اللامتناهية، إلى الأب
الأزلي، كمفارة عن خطاياي وقصاصاتي المستحقة. أقصدُ بثباتٍ أن أغتير
حياتي وأسألك أن تجعل ساعتني الأخيرة سعيدة وبسلام. أصلي أيضًا طالبة
خلاص النفوس المتألمة في المطهر. أشتهي أن أجد مديح الحب هذا
والتعويض كل ساعة من النهار والليل بأمانته إلى آخر نسمة من
حياتي. أسألك يا يسوع الصالح والمحبوب للغاية أن تُثبت في السماء رجائي
المخلص، لا تسمح بأن يبدده الروح الشرير. آمين.

شعرتُ براحةٍ كبيرة، وبنورٍ قد غمرني كليًا، فارتحل بي نحو السماوات
العالية، ولم يسألني، أخذني من الجمع، وانسحب.

تفرست كل أيقونات الكنيسة المدهشة، وسكونها، لا أحد سوى
السكينة التي تلت هؤلاء البشر بعد قرونٍ من الزمن الذي مضى بكل حينه
وأفراحه وقسوته. أنفَرس في أوجه القديسين طويلًا، أرى شيئًا غريبًا في
ملاعهم الهاربة كأنها تشبهنني أو أشبهها. تلك أنا؛ أنا المرأة التي دخلت
الكنيسة وهي ملفوفة ومتنكرة. في الساري الهندي الذي أهدها لي السفير
الهندي يوم زيارته للصلالون الأدبي. كان برفقة ابته دنيا، دمية من النور
والوان الجنة، سمعتُ لاحقًا أنها تركت كل شيء، واعتذرت من والدها

برسالة تركتها عند رأسه، وهربت مع عسكري إنجليزي إلى لندن، هربت نحو قدرها الصعب، وهي لا تعرف ماذا ينتظرها، لكنّها سارت في المسلك السري الذي كان في طريقها ويتنظر وصولها.

العالم كلّه كان رجراجًا تحت قدمي، كأني كنتُ أمشي على حصيرٍ من إسفنج.

أسمع دقّ النواقيس التي كانت تعلن عن شيء ما، ربّما توقّف حربٍ عالمية طال أمدها، كما الأولى.

فقد غيرت كلّ شيء، في الخرائط، والإنسان.

أرى كاتدرائية مدينتي في الحيّ القديم في الناصرة تدعوني نحوها، وأسمع آذان الجامع الأبيض الذي يهزني كما يهزّ طفلٌ صغير في عزّ نومه وهدأته.

أفكر في العودة، لكنّي متعبة.

أركبُ سيارة أجرة وأمشي نحو البيت.

أعود إلى بيتي الذي لم يعد يشبهني.

أشعر بالوهن، لكنّي لا أتوقّف عن الكتابة مطلقًا.

مضى الوقت بسرعة غير محسوبة.

أرى الساعة، منتصف الليل، السبت ١٨ أكتوبر، من سنة ١٩٤١، كلُّها
نفاصل صغيرة، ترسم علامات يوم مرتبك، كان نهار آخر يفتح جفنيه
بصعوبة، وثقل.

تناقل الأشياء في يدي، وبهت نظري شيئاً فشيئاً، أصغى قليلاً إلى قلبي
الذي فقد اتزانته، يرتجف القلم بين أصابعي، أحاول أن أكتب، يزداد
الخفقان، أرى أمي مرّة أخرى، يخرج من صدري صوت مشروخ
ومرتعش، يزداد الخفقان مصحوباً بسعالٍ جاف، أجد مشقة كبيرة في
التنفس، أقوم من مكاني بصعوبة، أضغ قلبي على الورقة حيث وصلت،
وأشعر للمرّة الأولى بأنّ جسدي يخدعني، يخذلني بشكلٍ فجائي.

الخفقان لم يتوقف، السعال يزداد حدة.

تلبس الرؤى، تأتيني الأشياء في شكل صورٍ متقطعة، أسمع الأناشيد
الكنسية الكبيرة، تأتي من مكانٍ بعيد، ربّما من الكنيسة التي أزورها في كلّ
وقت؛ كنيسة الظاهر. ربّما كانت تأتي من داخلي، خلفها ترسم عواصف
كأنها القيامة. الصور ترتجف. أسمع ذنباً صوته يشبه صوت جوزيف،
بعوي ويتضور، من بعيد، جوعاً أو ألماً، أو خوفاً.

أغمض عيني لكي لا أرى أحداً.

كي لا أراه هو تحديداً.

أرفع رأسي للمرة الأخيرة، قبل الذهاب نحو السرير للاستسلام لراحة
جسدٍ شعرت به فجأةً عمزقًا ومقطعًا وجروحه تنزف في كلِّ اتجاه، وتزداد
اتساعًا كلما تأملتُها.

تجاوزت الساعة منتصف الليل بربع ساعة بالضبط، أذهب لأنام قليلاً،
وأسترجع وجه أُمِّي.

أقوم بصعوبة، كلُّ شيء أصبح فيها ثقيلًا.

لقد حان الوقت يا أُمِّي.

- أيُّ وقتٍ يا ابنتي؟

- وقتي لكي أراك.

- أنا هنا منذ الساعات الأخيرة من الليل.

يرتعش القلم في يدي، أحاول أن أتركه ينام في حبره الأسود، ويعبر
نحو الأبدية. أرى أُمِّي مرّةً أخرى بوجهها الطقولي، في يديها ستائرٌ بيضاء
من حرير، تفتحها عن آخرها منتظرة طلبي الأخير. لا تتعبي نفسك يا أُمِّي،
أنا قادمة نحوك من عالمٍ مجروح، مقيح، مؤلم، بارد كالموت. اغسليني فقط
يا أُمِّي من دمي، دثريني يا بتول القلب والروح، ضمّيني للمرة الأخيرة، إلى
صدرك. لا أريد أن أموت في هذا البرد، في وحدة تقودني نحو العدم، أكره
العدم يا أُمِّي.



كأنتا المرة الأخيرة التي أرى فيها كتبتي المحيطة بي، كأنها تسافر معي في كل أحلامي: غرازيللا، دليل حلمي التائه، وصورة دوريان غراي، رياضة البادية، الكتاب الذي أصدرته عن صديقتي الأدبية ملك حنفي ناصف.

كأنتا اختزلت حياتي الأدبية كلها.

أغمض عيني، يسقط القلم من يدي، تنفتح أصابعي عن آخرها، ثم تتجمد. أحمل القلم ثانية بصعوبة.

أنا التي تكره الأسرة الحديدية، أجدني الآن مستسلمة لسرير فولاذي ثقيل يشبه قبراً من رصاص. ألتفت نحو الساعة الحائطية العتيقة، للمرة الأخيرة. يرتسم الوقت واضحاً: الأحد ١٩ / ١٠ / ١٩٤١، الساعة ١٠ ص ٥٥.

عيناى ملتصقتان بالسقف الذي لم يكن ثابتاً، كان كأنه ينزل مليمتراً بعد مليمتراً، كما في صالة مسرح قديم، أو أوبرا كبيرة. فجأة، يتاب نظري نوع من البياض الذي بدأ يغيم بصري، تنزل في اللحظة نفسها ملاءات الحرير البيضاء التي كانت في يدي أمتي، تلفني ثم تلفني، حتى تغطيني كلياً.

أسمع همهمات الطويلة، فلا أميز كلمات أمتي من وشوشة الأطباء.

يااااااه، كم هي متعبة هذه الحياة؟ شيء فيها رُكّب بشكل غلط، يكبر فينا حتى يشلنا، أو يقتلنا.

أغمض عيني لكي لا أرى شيئاً غيره، وجه أمي السخي الذي لم يجفّ
فيه حليبُ طفولتها، أنسَمُ لها بصعوبة، يتملّكني إحساسٌ بالتعب ورغبة لا
تقاوم في النوم، تخرج كلماتي الأخيرة التي لا أحد كان يسمعها غيري:

- أنا بخير يا أمي، ببعضِ الخير، اغسليني يا أمي من دمي، ودثّريني
بصدرك.

انتهت يوميات ليالي المصفورية

نمت صباح يوم الأحد في ١٩ أكتوبر ١٩٤١

...أخيراً دوتتك يا وجمي وهم قلبي.

أين أهرب بهذا الخوف الذي سيضيف لي رهباً جديداً؟ لأول مرة أجد الجراءة وأتحدث عن علاقاتي السوية، وحتى غير السوية بمقاييس الآخرين، عن محيطي الخادع، عن الناس الذين عرفتهم وعرفوني. تحدثت عن الذين أحببتهم وأحبوني، عن الذين ركضوا ورائي حتى تلتأت ألسنتهم. حكيتُ، عن الذين زجوا بي في دهاليز الجنون، وجعلوا من العصفورية سجناً كبيراً أمرتُ فيه بصمتي، ولا أحد يسمعي، حتى النمس الأخير، وبلا قفازات، نلتُ بعض ما أحرقتني، وحوّلني رماً في ثانية واحدة. لم أنتقم من أي شخص، كيفما كانت درجة آذائه لي. أهرق نفسي جيئاً، لا يمكنني أن أكون لي رتبة من أخفق لي أن يكون هو بحبه وسخاله، فاتحل صورة عدوه، وسكن لي الضمينة والأحقاد.

يحق لي اليوم أن أتلاشى كما الفيعة، داخل حبي الذي شكّلني، وفي عمق وهي الذي صنعتته، وصنعتني أيضاً.

دهوني الآن أحلم فقط ولو في عمق الغياب، يحق لي ذلك، ولو لثانية
واحدة، قبل أن أسير بخُطى هادئة نحو أبدية الخلاص ٥٧.

^{٥٧} وجدت هذه الكلمات مكتوبة على ظهر مخطوطة ليلي العصفورية. يُرجع أنها لمي زيادة، كتبها مباشرة بعد انتهائها من إنجاز مخطوطتها، أو جزء منها، قبل أن تُفقد وعيها، بين ليلتي السبت والأحد ١٨ و١٩ أكتوبر ١٩٤١. الأمر الذي قادها إلى المستشفى، ثم إلى الوفاة بعد ساعات قليلة. اخترنا، أنا ورز، وضع هذا النص في آخر المخطوطة، لأننا نتصور أنه آخر كلماتها بعد الانتهاء من تدوين ليلي العصفورية. هو مجرد اجتهاد بعد نقاش طويل، فلذا أصبنا لنا الأجر المُستاد، وإذا أخطأنا لنا بعينه.

ہیَ لَمْ تَكُنْ، لَكِنَّا شَبَّهتْهُم.

(١)

كانت رائحةُ المخطوطة حزينَةً، وأنا أغلقها.

شيءٌ يسدُّ الحلق والشم، بعطرٍ غريبٍ، هو خليطٌ أقرب إلى اللوز المر، لكنه ليس هو.

الذي عرفناه أنا وروز خليل، من خلال هذه الرحلة الشاقة، واعتمادًا على الكثير من الوثائق التي عثرنا عليها، مبعثرة في كلِّ الأمكنة، بما فيها وثائق أم الصبايا، كان جسدُ ميٍّ منهكًا بعد أن عادت لها كآبتها بشكلٍ حاد، انقطعت عن كلِّ معارفها إلا أسماء قليلة تعاطفت معها منذ اللحظة الأولى من الزجج بها في دهاليز العصفورية. عاشت عزلة قاسية، حافظت قليلًا على علاقتها مع آل الجزائري، وبعض العائلات الشامية العريقة، والقليل من وجهاء لبنان.

ما عرفناه، مما كان مدونًا على الوثيقة، المفصولة عن مخطوطة ليالي العصفورية، في شكل تقرير، هو:

^{٥٥} وثيقة كانت مع مجموع المقتنيات التي اشتريناها من صحراء الجيزة من أم الصبايا، كتبت مع رسائل ووصولات كهرباء، تهديدات من أصحاب البيت بسبب التلخر في الدفع، في كيمس بلاستيكي صغير. قالت أم الصبايا، خذوه، ربما احتجتموه، وأعطوني اللي طلع بليديكم. الوثيقة هي عبارة عن تقرير طلبه مستشفى المعادي من الدكتور محمود، لوضعه تحت تصرف رجال الأمن الذين طلبوه في إطار تحريقتهم عن سبب الوفاة، لأن بعض الصحف قالت أنها ملقت ممسمة من طرف بعض أعضاء عائلتها الذين انتقموا للإهانة التي ألحقها بهم.

أَنْ مَيَّ عندما سحبت نفسها بشاقل نحو الفراش، كان دوار ما قد
أخذها ومنعها من الوقوف.

تلفتت لي ويدها ترتجف على غير العادة، وارتمى جسدها وأصبح من
الضعف عليها التحكّم فيه.

قالت وهي في حالة دوخة:

- لا أعرف حقيقة! أشعر بألم كبير على مستوى الصدر، بدوار في رأسي،
أرى أشياء غير مريحة، وضباباً يلغني ويكسو ناظري، أكاد لا أرى إلا سلسلة
من الأشكال التي لا جسد لها، وكأنها هلام في طور التكوين.

- ربما من شدة التعب، التعب يولد هذه الرؤى المتهاوجة.

- ليس هذا ما يشغلني يا دكتور، لكن رأسي والدم الثقيل الذي في
فمي، وضيق التنفس والخفقان الذي يكاد يفجر القلب. منذ لحظات طويلة
والخفقان على حاله، كأن قلبي يريد الخروج من قفصي الصدري.

- ارتاحي، أنا جاي، أطلب لك سيارة إسعاف من مستشفى المعادي،
مسافة السكة فقط.

- أترك لك الباب مفتوحاً، لا اعتقد أنني سأكون قادرة على فتحه بعد
لحظات.

عندما وصلت وفحصتها - يقول الحكيم محمود في وثيقته - كانت قد دخلت في شبه غيبوبة، لاحظت أنها كانت تنزف من فمها، تأكد لي أن الأمر شديد الخطورة، رافقتها في سيارة الإسعاف إلى مستشفى المعادي بدون تأخر.

كانت متعبة.

استسلمت لفراسٍ كان شبيهاً بالتايوت؛ مجلتها الأثيرة التي كلما انتابها ظلام الروح، استدعتها.

رفعت رأسها، لم تر شيئاً، تعودت أن ترى الوقت مرتسماً على الحائط من خلال زحف الظلال وتحولاتها.

سألت المريضة بكلام متقطع:

- كم الساعة يا ابنتي؟

- الساعة صباحاً يا ستّ مّي.

- ستّ مّي ا تعرفيني؟ سعيدة بذلك.

- مين ما يعرف حضرتك؟

قالها الطيب والمريضة في اللحظة نفسها وكأنهما اتفقا على نفس الكلام.



ارتسمت في عينيها المتعبتين حالة من الفرح الطفولي المتعب، ثم التفتت نحوي:

- لولا الحكيم محمود، كنتُ الآن في السماء، مؤكِّد.

- هذا واجبه، واجبتنا جميعًا.

تأملت السقف بعينيها في شبه غيبوبة - يواصل الحكيم محمود في وثيقته، كانت اللحظة الوحيدة التي هدأ فيها سعالها، ونظرت إلى جانبها، فرأت سواقًا كثيفًا، فهمتُ منها ومن أحاديثها، أنها تذكرت الرسالة الأخيرة التي كتبها لجوزيف. ضحككتُ بسخرية، تمتمت، لم يسمع الطيب والمرضة إلا كلمات ناعمة ومرهقة لم يفهما معناها: جوزي، حبيبي، ياالله، كنتُ أحتب. كم كنتُ غبية 19

ثم أخفت رأسها تحت الفراش كما تعودت أن تفعل في كل مراحل عمرها.

بقيتُ هناك، لم أغادر المكان على الرغم من أنها كانت بين أيدي أمته، كنتُ أعرف أنّ علامات وجهها الذي مال نحو البياض، كانت تقول شيئًا رفضتُ أن أقرأه.

العاشرة وخمس دقائق، يوم الأحد 19 أكتوبر، سنة 1941، فتحت عينيها للمرة الأخيرة، ملائمتها بالتور الذي تسرب من النوافذ الزجاجية الكبيرة، تمتمت قليلاً بشكلٍ يكاد يكون واضحًا كليًا: أمي، حبيبي،

أخسليني من دمي وضمتيني إليك، أشعر بالبرد ويقوّة خامضة تسترح قلبي
بعنف. وعندما أطبقتُها، بدأ الدّمع يسيل بلا توقّفٍ صعبٍ، عليها فتحها،
قبل أن يرتسم خيطٌ أحمر، رقيقٌ، على طرفي شفّتيها. تلمّس طيبب المستشفى
صدرها، كان باردًا كقطعة ثلج.

أعقبته بنفس الحركة، شعرتُ بالبرودة نفسها، برودة أعرف متهاها كلّما
فحصتُ مريضًا في نهاياته، في عيادتي.

غطّيتها ببطّانيةٍ ثقيلةٍ كانت عند قدميها.

عندما سألتني الممرضة، التي لاحظت حركتي:

- لماذا غطّيتها يا دكتور؟

- برد الخريف يدخل العظم كالمسامير.

ثم التفتُ نحو الفراغ أمسح عيني من ظلّ كان قد غطاها إلى درجة أن
أغرقها في الظلمة.

سمعتُ رنين أجراس الكنائس يأتي من بعيد.

ثم من قريبٍ، فأقرب.

(٢)

لا ادري بالضبط لماذا شعرتُ في لحظةٍ من اللحظات برغبة لا تقاوم في البكاء؟ في البداية لم تكن مميّ تعنيني إلا كحالة بحثٍ جامدةٍ وباردة، لكنني منذ أن سافرتُ في داخلها، تغير كل شيء، أصبحت تعنيني كأنها جزءٌ مني.

ولا ادري أيضًا لم رأيت، في آلام مميّ، آلام سيدنا المسيح وأحزانه وعزله القاسية، وهو ينزف أمام كل الناس ولا أحدٌ تدخل من العابرين أو الواقفين، لإنقاذه، أو تغطية جسده؟ على رأسه تاجٌ من المسامير الصّدة والشوك، وعلى ظهره صليبه الثقيل. لا أعرف ولا أجد أي جدوى للمعرفة، لأنها متأخرة، يكفي أنها حاضرة في دمي، في كل خلاياي الدقيقة، الأكثر صغرًا.

ليس ما حدث لي هو فقط قصة كتاب، ولكن أكثر. امرأة القلب من هذا الزمن المختل الذي قلت نساؤه وقل رجاله، تتخفى في التجاوير بين النبضة والنبضة، بين الخوف والخوف، والرعدة والرعدة، والغفوة والغفوة، تتوغل كل يوم أكثر وكأنني أنا من أبدوها. كلما عاودتني صورها، نسألت: أين رأيت هذه المرأة؟ أين صادفت ظلها؟ أي قدر فتح عيني عليها؟ كيف توجهت نحوها وأنا أقدم لها نفسي: أنا ياسين الأبيض الذي حقق كتابك السري، ليالي المصفورية، برفقة صديقتي التي أحبتك أيضًا؟ أسمع صوتها يأتيني من بعيد، لا يجيب عن سؤالي، ولكنه يهرب من هذه

الأرض، راکضاً بخطى حثيثة نحو سماء كانت تشبه الحجارة الباردة والجامدة: اغسليني يا أمي من دمي، وضمتيني للمرة الأخيرة إلى صدرك، لا أريد أن أموت في هذا البرد في وحدة قاسية. ألمسها بأنفاسي وهي تتقطع كما خيط ينسل من لباسٍ حريري حتى ينفرط كلياً، ويصبح لا شيء. اغسليني يا أمي من دمي، لقد نزلت جرحي، ولم أعد قادرة على إيقافه.

وأنا أقرأ من جديد محاضرتها التي ألقتها في الويست هول، في AUB، شعرتُ في ثواني غير معدودات، أنني كنتُ هناك حقيقة، متخفياً بين الجموع مثل الثعلب الصغير المتخفي بين الكراسي، أنظرُ تارة إلى عينيها، وأخرى إلى عيني مي. كل التفاصيل الدقيقة التي كانت في داخلها، كنتُ معنيًا بها بعمق، حتى رمشات عينيها الهاربة، هدوؤها الموارب، حتى كلامها وتفادياها الحديث عن نفسها، كنتُ أعرفه كلمة كلمة، سمعتها تقوله، رأيت في عينيها، وفي حيرتها. وهل قالت ذلك الكلام الذي هزني بعنف؟ لا أدري كيف رأيت هذا كله، أو تخيلت أنني رأيت، في عينيها الوجلتين؟ كنتُ الوحيد من بين الجموع المترابطة، عند مدخل الويست هول، وفي داخله، الذي سمع بوضوح ما قالته خفية كي لا يسمعها أحد:

أنسى ما في الحب، هو أن تحوّل من كنتُ محبب، إلى حنفة يياضي. وحيلة أخرج الآن بلا جوزيف، أضعض صيني، وأسير على الماء والنعيم بلا وجهة. قلبي كان مجروحاً وموجعاً، لكنني كنتُ أعيش حالة صفاء لم أحس بها من قبل. رأيتُ كامبي كلوديل تصرب بيلسيا ورجليها لكي يجزروها من قبلها.

لأول مرة أرى وجهها الجميل وهي تحاول أن تركض نحوي، لكنّ القيد الفولاذي الذي كان بمعصمها ورجليها، منعها من أية حركة. عندما قاومت أكثر متحملة الألم الكبير، سال النّم خزيراً عند ملتقى القيد، نازحاً نهائياً الجليدة الخارجية للترجلين والمعصم.

أسئال: هل عشتُ زمن ميّ الذي قادها نحو العذاب الكبير؟ زمن شهد حربين قاتلتين وجدت نفسها بينهما، الأولى انتهت وهي تحلم بالزهور والفرح، والرغبة المندفعة للخروج من شرنقة الذلّ والسجن الذكوري، والثانية غادرتها وهي في قمة اشتعالها. كلّها غفرت، رأيتها تجري كمن هرب من موت يركض وراءها، كلّ الحرائق التي كانت فيها انتقلت نحوي، التصقت بي وختمت على جلدي.

لا يمكنني اليوم أن أسافر إلى القاهرة من دون الركض نحو قبرها قبل أن تُقلع طائرات أسفاري بساعات، لا أدري لماذا؟ ربّما لأنّي اشتيت أن أظلّ أركض وراء امرأة، لا أدري إذا وجدت، أو أنا من صنع جزءها الحميمي؟ والتوقف عند مدخل المقبرة لحظاتٍ قبل أن أتسلّل بخوف داخلها، ويأتيني الحارس، ليقول لي كلاماً لقتته إياه يوم زرت المكان لأول مرة: هذا قبر كاتين لم يظلمها أفرادٌ عائلتها قط، ولكن حصراً ذكورياً جامداً بكامله، يظنّ أنه، وما يزال، مالك الحقيقة والجنوى، اخترقته بكلّ ما أوتيت من قوة، اخترقت حياة سيكنا للمسيح وحملت صليبيها على ظهرها بكله ومسحبه ودماعها بهزل، والناس، حتى أقرب أصداقائها، ظلّوا

يتخرجون عليها. ويوم قمت قلبها من المرتفع العالمي، وفتحت عينها من
آخرها، صمتت فجأة، وتركت معها ييدر. رأت في الحشد أقرب
أصدقائها ينسحبون معلنين أنهم لا يعرفونها، ولا تعنيهم إلا قليلا، وأنها
كانت مجنونة، وقد تحملوها زمنا طويلا على مضض.

أذكر أول مرة، يوم زرتُ المقبرة المسيحية وسألتُ الحارس عنها:

- مساء الخير، هل يمكن أن تدلني على قبر الأنسة مي؟

أجاب بتعجب:

- مي مين؟ فيه هنا ميّات الميّات يا عزيزي.

- مي زيادة، هل تعرفها؟ هي من ضيوف المقبرة التي تحرسها.

- طبعا أعرفها، فيه اللي يقولوا عنها أنها كانت حبيبة الباشا، أحبها

لعبريتها، ولجمالها، وقتلها ابن عمها من شدة الغيرة عليها، وأبوها وأمها

ماتا غبنا وكمدّا عليها. ربّما هذه القصة لا تروق لك؟

- ليس فقط إنّها لا تروق لي، ولكنّها غير صحيحة. يزورها ناس

كثيرون؟

- لا، قليل جدًا. أكاد أقول لك صراحة، لا أحد منذ سنوات.

ضحكتُ بمرارة وأنا على يقين أنه مخطئ في الشخص الذي كنتُ أريدُ
زيارته، ثم مشيتُ وراءه حتى وصلتُ إلى اسمها المعلق في الهواء كروح
إنسان، لا هو ميت ولا هو حيّ.

ثم جلسنا محاطين بالقبور، لا أحد يسمعنا سوى الأموات، حكيثُ له
قصةٌ مميّةٌ كاملة، من يومها حفظها لدرجة أنه نسيَ أنّي آتِي أنا من لقن له تلك
الجمل التي يكرّرها أمام الزائرين، وأصبح يُعيدها حتى على مسمعي.

(٣)

من بين كلِّ الرسائل التي استطعتُ الحصول عليها، رسالتها لكامي كلوديل، التي لم تُرسل. ألحقتها لنا الست زينب، أم الصبايا، ضمن الكيس مقابل سعر رمزي، في المقهى، في خان الخليلي. في الرسالة شيءٌ من خوفها: السيدة كامي كلوديل؛ عذراً على الجراءة، فأنا لا أعرفك إلا من منحوتاتك وماساتك. لست أدري إذا ما كان سيُكتب لك قراءة هذه الرسالة؟ لكنّها تشبهنا. أشعرُ أنّ رودان وأخاك صورة مختصرة لجوزيف، كلهم قتلة، فوق سلطان القانون، ما الفرقُ بينهم في النهاية؟ لا يتحملون امرأة ناجحة لا تشبه الأخريات. اعتقدُ أنّ الموت هنا، بكلِّ جبروته وبشاعته، أراه في كلِّ زوايا البيت، يتنقل بكلِّ حرية، يقترب، لكنّه لا يجرؤ على لمسي. ربّما هي اللّحظات الأخيرة، التي يتحوّل فيها الموت إلى غرابٍ بعينين كبيرتين، وأنا أهشّه لكي يُخلي المكان. يهرب، ثمّ يأتي من جهةٍ ثانية قبل أن يُحدث حفرة في قلبي بمنقاره الطويل معلناً عن نهايتي. هو هنا، بدأتُ أهشّه، وهو يقترب، يهرب بعيداً، يتأمل خوفي بعينه الباردتين.

هو هنا إذاً ولا شيء يبعده إلا حفرة القلب التي يتركها وراءه بعد أن يمتصّ الروح ١٩

أسمع قلبك الذي تشبه خفقاته دقات أجراس الكنائس القديمة، أسمع بوضوح أجراس كاتدرائية البشارة، أسمع آذان الجامع الأبيض الذي

يواجه بيتي في الناصرة، أتلمس خفقات متصف الليل وأفكر في عنتكِ التي لم تنته.

شيء ما ينسحب نهائيًا من هذه المدينة، التي بدت مستسلمة للضمت.

أخذت إلى مستشفى المعادي، ثم نامت مثل ميتة. يقولون إنها، في صباح الأحد، تأملت السقف بعينها، ونظرت بجانبها، رأت سوادًا كثيفًا. كانت تقول كلامًا غير مفهوم سوي كلمتي؛ الرسالة وجوزيف. ابتسمت قليلاً، تمتعت من جديد بسلسلة من الكلمات غير المترابطة: غيبه.. كنت أحبه.. هرب.. سيده باريس. ثم بذلت جهدًا أخيرًا، فأخفت رأسها تحت الفراش كما كانت تفعل وهي صغيرة، اهتزت في مكانها، نزعته الغطاء من على وجهها، ثم فتحت عينها عن آخرهما، فأتسع البؤبؤان لدرجة أن استوعبا كل ما كان يحيط بها من أثاث وبشر وآلات طبية. سكنت قليلاً، ثم وجهت بصرها بشكل جانبي، تجاه الممرضة التي كانت تقف عند رأسها. بدأت تتكلم كأنها تحدث شخصًا معينًا؛ أمها: هنا يا أمي، هنا في أنفاسك العطرة. لا أعرف من سيزورني ويتحمل رائحة الأدوية والتوابيت، وهذا الألم الثقيل؟ لا أحد يا أمي، لا أحد أبدًا. ربها أمين الرميحاني؟ لطفني السيد؟ العقاد؟ وربها لا أحد، لتكتمل صورة الجنازة الباردة، حيث الأطفال يلعبون على حواف المقبرة، غير مكترثين بما يحدث من حولهم، ولا بالتابوت التيجه نحو المقبرة المسيحية.

في العاشرة وخمس دقائق، يوم الأحد ١٩ أكتوبر الثقيل، من سنة ١٩٤١، قبل أن تنطفئ، التفتت إلى النافذة التي تسرب منها نور مسح كل الظلال الخفية، ففرقت غرفة العمليات في شمس خريفية بشلالات أشعتها.

فتحت ميّ، أو الأصح؛ إيزيس كوبيا، بصعوبة عينيها، للمرة الأخيرة، ملاتها بالنور الذي غمرها فجأة، وعندما أغمضتها للمرة الأخيرة، صعبُ عليها فتحها.

(٤)

القصاصَةُ الصَّحفية التي بين يديّ؛ أحرقتني.

الرياح كنست الأرض، ورفعت حزمة من الأوراق والأترية عاليًا. فجأة بدأت القطرات الأولى من مطر الخريف تسقط سميكةً وباردةً مثل ندف الثلج الصلبة. نعش يسير بخطى عسكرية، وراءه ثلاثة أشخاص: خليل مطران، أنطوان الجميل، ولطفي السيد، بالبسة يغلب عليها اللون الأسود. في الزاوية اليمنى من المقبرة أطفال يلعبون بكرة من القماش وأوراق الصحف، غير مكترئين بما كان يحدث بجانبهم. لا أحد ممن عرفتهم ميّ كان هناك، حتى الذين أحبّوها، غابوا، اندثروا فجأة، وكأنتهم لم يعرفوها، مع أنهم سكنوا في بيتها، وعملوا في صحيفة والدها، واستراحوا في صالونها.

عندما كان لطفي السيد رئيسًا للمجمع اللغوي وطلب منه العقاد وطه حسين نشر الرسائل المتبادلة بين ميّ زيادة ورجال صالونها، ردّ بحكمة الرجل الذي خبر الدنيا: لو تعارضت الفضيلة مع ذائلنا التي فعلناها في صالون ميّ، أنشر ذائلنا ونناقض الفضيلة؟ لم تكن ملائكة معها مطلقًا، لكل واحد منا أحقاد على الغير بسببها، بأنانية غير مسبوقة.

آخر ورقة ضممتها إلى المخطوطة بشكلٍ موجه:

(إني أموت، لكنني أمتسى أن يأتي بعدي من ينصفني).

وأنا أتأمل الوثائق المتناثرة والمخطوطة، تذكّرتُ روز وهي تصور المخطوطة والقصاصات المتناثرة حولها، ثمّ وهي تحزم حقيبتها للسفر فجرًا إلى إسطنبول، ومنها إلى مونتريال. كانت مثل طفلةٍ تكبر في عينيها كلّ الأعراس.

- ياسين حبيبي، أعرف أنك في أقاصي انتشائك، قلل من اندفاعك نحو الأشياء، فهذا يؤذيك كثيرًا، أنت باحث، كاتب، عاشق لكلّ ما يدهشك، لكنك ككلّ الذين سبقوك في هوى ميّ زيادة؛ لغتك تفضح تعلقك وحبك، لا يمكنك أن تُخفي ما يشتعل في داخلك، وكلّما حاولت، اشتعل أكثر بالسنة عالية، وتخطى حواجزك البائسة.

- قد يكون كلامك صحيحًا يا روز، لكن شعوري غريب، كآتي أعرف هذه المرأة أكثر من أيّ زمنٍ مضى، ونافستُ رجالًا آخرين في حبّها. بعد المخطوطة، جاءت نحوي عارية لأول مرّة، حاملة على ظهرها المعقوف قليلاً، صليبيها الثقيل. كنّا نتأمل جراحاتها وهي تعبر درب الآلام أمامنا.

كانت في صورةٍ موحّدة، المجدلية وسيدنا المسيح معًا، مُصرجةً في دمهما السخي.

أغلقتُ المخطوطة بلطفٍ، مخافة أن تبعثر في الفضاءات والسموات، بعد أن شممتها للمرّة الأخيرة، كآتي أستنشق عطرًا نادرًا. وضعتها في علبة

الحفظ، هي والوثائق، وأرجعتها إلى مكانها لتنام هناك بهدوء وسكينة إلى أن يأتي من يوقظها من سباتها وصمتها.

فجأة، وأنا أهمم بالخروج ومغادرة قاعة المخطوطات، تسرب صوت ناعم إلى أعماقي زارعاً سكينة غير معهودة في، عرفته بدون جهد كبير. كان صوت ممي المتخفي بين الأوراق التي مرّ عليها قرابة القرن، صوت إيزيس كوبيا، أقسم أنني سمعتُ نشيجها وتنهداتها الحارقة. أغمضت عيني واستكنتُ قليلاً عند الباب الموارب، رأيتها فجأة تجلس قبالي على كرسي قديم، كان شعرها أبيض مشدوداً بمسكٍ خفيف، من العاج الرمادي. كانت ملامحها متعبة، كأنها لم تنم إلا قليلاً، يختلط صوتها الناعم، الذي يُغفي بصعوبة حشرة حزينة، بفرقعات الفحم الحجري الذي كان يمترق في أعماق المدخنة القديمة: *أيقاني عنده شهرين ونصف شهر على مضض مني، وأنا أطلبه بالعودة، حتى استكمل برنامجه في أمري، فأرسلني إلى العصفورية، بحتمة التقلية. وباسم الحياة، ألقاني أولئك الأقارب في طرد للمجانين أحضروني على مهلي.*

الجزائر/ القاهرة/ القاهرة/ باريس/ بيروت، خريف ٢٠١٧

شُكْر

إلى كلِّ من ساهم، من قريبٍ أو من بعيدٍ، في إنجاز هذا العمل الصَّعب.
ومن قال إنَّ الرواية فعلٌ سهلٌ؟

صديقتي ورفيقتي زينب لعوج؛ الشاعرة والجامعية، لها الفضلُ الكبيرُ في متابعة هذه الرواية عن قرب، وكلِّما تعبْتُ في الحصول على الكثير من الوثائق، كانت حاضرة، وخصَّصت وقتًا غير يسير للبحث في المكتبات الافتراضية، والورقية، عن المادة التاريخية المُبعثرة داخل أدغال الإنترنت، التي توفِّر مادةً شديدة الأهمية، على الرغم من فوضى هذه المادة، وعدم دقَّتِها، في بعض الأحيان، ممَّا اقتضى مقارنات كثيرة للحصول على المادة الأقرب إلى الحقيقة. الكثيرُ ممَّا قيل عن ميّ، كان محكومًا إمَّا بمسبقات الضَّغينة، أو الحبِّ المطلق.

شكري يذهب أيضًا إلى الأستاذة الدكتورة رزان إبراهيم؛ أستاذة النقد بجامعة البترا، الأردن. فقد قامت بجهد جبار في المتابعة الدقيقة لهذا العمل عن قرب، منذ أن كان مجرد فكرة، إلى أن تبلور وأصبح حقيقة. تخصصها العلمي سمح بالاقتراب من تفاصيل حياة ميّ وماساتها التي أشركني في تفاصيلها. وأمدتني بالكثير من الأبحاث والدراسات المتخصصة، لبلورة مشروع رواية ليالي إيزيس كوبيا. الجدل الذي دار بيننا حول ميّ زيادة وحياتها الخفية والمعلنة، يستحق أن يكون كتابًا حول شخصية ميّ التي لن تتكرر بسهولة، على الرغم من النهاية التراجيدية التي انتهت بها إلى مستشفى المجانين.

شكر خاص، للجامعة الأمريكية بكل مؤسساتها العلمية، ومدير قسمها للدراسات العربية ولغات الشرق الأدنى، الدكتور بلال الأرفه لي، ومدير مركز البحث في الفنون والإنسانيات، الدكتور عبد الرحيم أبو حسين، والسيدة رينا باسل التي نظمت برنامجي كاتب في إقامة بشكل ناجح ودقيق، طوال مدة استضافتي في الجامعة الأمريكية، في بيروت AUB.

الشكر الكبير موصول إلى مديرة المكتبة في الجامعة الأمريكية، في بيروت، وإلى مسؤولة مركز التوثيق التي أمدتني بالكثير من الوثائق النادرة وبالمحاضرات التي ألفتها ميّ، في الويست هول.

الشكر موصول إلى الدكتورة سهيلة ميمون، من جامعة الشلف، التي نشطت معي بحماس وعجبة، سلسلة المحاضرات التي ألفتها في الجامعة الأمريكية، على مدار الأيام التي قضيتها في الاستضافة.

لا أنسى الطلبة الذين داوموا طوال إقامتي على الجلسات العلمية في مركز البحث في الفنون والإنسانيات، وزاروني في مكثي في الجامعة الأمريكية، للإجابة عن بعض أسئلة الكتابة، وعن الشخصية التاريخية، والمزائق المحيطة بها.

لا أنسى عائلة ميّ زيادة الواسعة، التي استقبلتني في ضيعة شحتول، وجونيا، وبيروت. شكر خاص لمؤرخ العائلة الباحث جريوس زيادة، الذي استقبلني في جونيا، وأمدني بكتابه التوثيقي المهم عن ميّ.

حبي وامتثاني للصديق، الباحث الكبير، كريم مروة، الذي أفادني جداً بأسماء كبيرة اهتمت بعمي في لبنان وخارجها، فكان نعم الحبيب والصديق.

شكري الذي لا حد له يذهب نحو العزيز عساف، من مؤسسة بوكلافيا للكتاب الصوتي، الذي كان مرافقي الجميل في رحلة بيروتية أدين له فيها بالكثير، فقد وضع نفسه تحت تصرّفي، هو وسيارته وقلبه، وعلاقاته القريبة من آل زيادة، بالمصاهرة.

شكري الكبير يذهب إلى وزارة الثقافة الفلسطينية التي استضافتني مع كوكبة من الأدباء العرب في ندوة الرواية العربية، مما سمح لي بالانتقال، على مسؤوليتي الشخصية، إلى فلسطين العميقة، لمعينة بيت مّي الذي وُلدت فيه، في الناصرة.

الشكر الكبير للعزيزين، الباحثة الفلسطينية المقدسية نادية حرشاش، ومدير متحف درويش، والروائي، سامح خضر، على المساعدة الكبيرة التي قدّماها لي، ومرافقتي حتّى الناصرة وحيفاً، وقاداني إلى كلّ الأمكنة التي طلبت زيارتها. استقبلنا في الناصرة رئيس بلديتها السابق، الرّجل المثقف والشهم، الأستاذ رامز جرابسي، الفضل الكبير يعود له أولاً، وللأستاذ أمين محمد علي، الأخ الشقيق للشاعر الكبير طه محمد علي، الذي يعرف عائلة زيادة جيّداً، في زيارة المدينة القديمة حيث يوجد البيت الذي ولدت

فيه ميّ. حزنت أنّ العائلة الطيّبة الساكنة في البيت، لم تكن تعرف طبيعة المكان، الذي كانت تقيم فيه. لا يمكن أن تُعاقب ميّ حتّى في مسقط رأسها، لدرجة أنّ روائع طفولة الكاتبة، انتفت كليّاً، لدرجة أنّي شككت في أنّ البيت هو السّكن العائلي الأول لميّ؟ فتأكّدت من صديقي الكاتب الفلسطيني توفيق فياض الذي كان يزور بيتها، فبعث لي صوراً، تأكّدت من خلالها أنّه نفس المكان الذي زرته.

كلّ الشكر الصديق الدكتور جوني منصور من حيفا، ورفيقة عمره فيفيان، ومن خلالها إلى فلسطيني حيفا ومثقفها، الذين لم يقصروا معي في توضيح صورة فلسطين والمنطقة، وجهودهم الفكرية والإعلامية في رسم وجه آخر لفلسطين المحتلّة، التي تكبر في الظلّ، وخارج الانفاقيات والأحكام المسبقة.

أخيراً، الشكر لكلّ من ساعدني على تحطّي عقبة البحث في التفاصيل المتناقضة من حياة ميّ، الذين لم يرد ذكرهم بالأسماء، فهم كثير. بعضهم استفدت من كتبهم، وآخرون من مقالاتهم المتخصصة، أو من أفلامهم الوثائقية عن ميّ زيادة، على مدار الستين الماضيتين، في محاولة لاستعادة

امرأة بدأ النسيان الظالم يطويها، ويسرق منها وجودًا إبداعيًا واجتماعيًا
وإنسانيًا استحقته بامتياز.

ما زلت أؤمن، وأنا أنني ليلي إيريس كوبيا، بأن الرواية أصبحت
اليوم أهم سلاح في وجه طغيان النسيان وهزيمة الذاكرة، لتحرير التمثال
العالق منذ قرون، بأعماق الصخرة الصماء.

وامسيني الأعرج



الأعمال الكاملة

t.me/kotbhm